الدكتور رمضان عبد التواب

المدخل إلى علم اللغة

ومناهج البحث اللغوي

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

إهــــــداء ٢٠١٢

محمد صالح الضالع

جمهورية مصر العربية

المدخل إلى علم اللغة

ومناهج البحث اللغوى

تأليف
الدكتور رمضان عبد التواب
عميد كلية الآداب
جامعة عين شمس

الطبعة الثانية
١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م

الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

رقم الإيداع ٤٨٥٥ / ٨٢

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

اللغة أعظم إنجاز بشرى على ظهر الأرض ، ولولا اللغة ماقامت للإنسان حضارة ولا نشأت مدنية . ولقد وقر فى أذهان الناس منذ القديم تقديس اللغة وإعظام شأنها ، وبلغت القداسة عند الشعوب البدائية ،أن ارتبطت اللغة عندهم بتأثير اللفظ وسحر الكلمة ، واختلط الاسم بالمسمى ، فى عقيدة هذه الأقوام .

وقد أدرك العلماء فى العصر الحديث ، علاقة اللغة بالمجتمع الذى تعيش فيه ، ومدى تأثرها به وتأثيرها عليه ،كما عرفوا الصلة القائمة بين اللغة والنفس الإنسانية ، وتلونها بألوان الانفعالات والعواطف الوجدانية ، لدى بنى البشر .

ولم يأل علماء اللغة جهدا فى الوقوف على أسباب الصراع اللغوى بين اللغات المتجاورة ، ومظاهره ونتائجه ، وولادة لغة واندثار أخرى ، والعلاقة بين اللغات واللهجات .

وأفاد هؤلاء العلماء من معطيات العلوم الأخرى فى الدرس اللغوى ، فاستخدموا المعامل فى الوقوف على كنه الصوت اللغوى ومميزاته ، واستطاعوا أن يصفوا بدقة الفرق بين صوت وصوت ، ويميزوا الوحدات الصوتية ، وتنوعاتها المختلفة فى هذه اللغة أو تلك .

كما استخدم العلماء طرائق علم الجغرافيا ، فى وضع الظواهر اللغوية على خرائط تبين حالها ، وتوضح توزيعها بين المتحدثين بهذه اللهجة أو تلك ، شأنها فى ذلك شأن الظواهر الطبيعية والجوية والاقتصادية ، فى خرائطها الدالة عليها .

وقد تعددت مناهج البحث اللغوى عند علماء اللغة ، وتمخضت بحوثهم عن ثلاثة مناهج مختلفة : المنهج الوصفى ، والمنهج التاريخى ، والمنهج المقارن . ولكل منهج من هذه المناهج أنصار يدعون له ، ويغضون من شأن المناهج الأخرى ، ولكننا مع ذلك نرى أن كل منهج منها يؤدى غرضا لايؤديه غيره ، وإن مال الميزان فى العصر الحديث مع المنهج الوصفى ، وتعددت طرائقه وتشعبت مسالكه .

ولكن هذه اللغة التى جند لها العلماء كل هذا الحشد الهائل من الدراسات والبحوث ، لم تسفر بعد عن طريقة نشأتها عند الإنسان الأول ، رغم كثرة النظريات والمذاهب اللغوية ، حول هذه النشأة .

وهذا الكتاب مدخل إلى كل هذه القضايا اللغوية ، توخّيت فيه الإحاطة والإيجاز ، ولم أغفل جهد السابقين الأوائل من علمائنا العرب ، أو أسرف فى النقل عن المحدثين من علماء الغرب . وقد أوليت فيه تطبيقات المنهج المقارن عناية خاصة . وفى النية أن تكون لتطبيقات المناهج الأخرى ، مساحة فى هذا الكتاب فى طبعة أخرى بعون الله تعالى .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

د . رمضان عبد التواب

القسم الأول
المدخل إلى علم اللغة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

علم اللغة ، هو العلم الذى يبحث فى اللغة ، ويتخذها موضوعاً له ، فيدرسها من النواحى الوصفية ، والتاريخية ، والمقارنة ، كما يدرس العلاقات الكائنة بين اللغات المختلفة ، أو بين مجموعة من هذه اللغات ، ويدرس وظائف اللغة وأساليبها المتعددة ، وعلاقتها بالنظم الاجتماعية المختلفة .

وموضوع علم اللغة ، هو كل النشاط اللغوى للإنسان فى الماضى والحاضر ، يستوى فى هذا الإنسان البدائى والمتحضر ، واللغات الحية والميتة ، والقديمة والحديثة ، دون اعتبار لصحة أو لحن ، أو جودة أو رداءة ، أو غير ذلك [١] .

واللغة التى يبحث فيها هذا العلم ، ليست هى اللغة العربية أو الإنجليزية أو الألمانية ، وإنما هى اللغة فى ذاتها ، ومن أجل ذاتها [٢] ، هى « اللغة » التى تظهر وتتحقق ، فى أشكال لغات أخرى كثيرة ، ولهجات متعددة ، وصور مختلفة من صور « الكلام » الإنسانى ؛ فمع أن اللغة العربية ، تختلف عن الإنجليزية ،وهذه تختلف عن الألمانية ، فإن هناك أصولاً وخصائص جوهرية ، تجمع مابين هذه اللغات ، كما تجمع بينها وبين سائر اللغات ، وصور الكلام الإنسانى ، وهو أن كلا منها لغة ، أو نظام اجتماعى معين ، تتكلمه جماعة معينة ، بعد أن تتلقاه عن المجتمع ، وتحقق به وظائف معينة ، ينتقل من جيل إلى جيل ، فيمر بأطوار من التطور ، متأثرا فى ذلك بسائر النظم الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والدينية وغير ذلك .

---

(١) انظر : F. De Saussure, Grundfragen, S.7 .

(٢) انظر : علم اللغة للدكتور محمود السعران ٥١

وهكذا نرى أن علم اللغة ، يستقى مادته من النظر فى اللغات على اختلافها ، وهو يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق والخصائص ، التى تجمع اللغات الإنسانية كلها ، فى إطار واحد .

وتتحدد لذلك وظائف علم اللغة فيما يلى [١] :

١ ـــ وصف ماوصل إلينا من اللغات البشرية ، والتأريخ لها ، وتقسيم اللغات إلى فصائل وعائلات ، وإعادة صوغ اللغات الأم ، لكل هذه الفصائل ، على قدر الإمكان .

٢ ـــ البحث عن القوى المؤثرة فى حياة اللغات فى كل مكان ، واكتشاف القوانين العامة ، التى تفسر الظواهر اللغوية الخاصة بكل لغة .

٣ ـــ تحديد مجالات علم اللغة ، والبحث عن تعريف مناسب لهذا العلم .

وكان لابد لكى تكتمل مباحث هذا العلم ، أن يسبق بدراسات تفصيلية لمعظم لغات البشر ، وقد مهدت تلك الدراسات المستقلة لكل لغة على حدة ، للبحث فى تاريخ اللغات والمقارنة بينها ، فكثر التفكير فى نشأة اللغة ، وفى تطورها ، وفى العائلات اللغوية ، وغير ذلك .

نعم إن تلك الدراسات السابقة للغات البشر ، أو لأشهرها ، يعاد النظر فيها الآن مرة أخرى . والذى يدعو إلى إعادة النظر فيها ، هو نتائج « علم اللغة » نفسه ؛ لأن بعض تلك الدراسات ، قام على أسس غير سليمة ، أو استعان بوسائل قاصرة ، ولكن تلك الدراسات ، مع مافيها من

---

(١) انظر : F. De Saussure, Grundfragen, S.7

قصور ، كانت خطوة أساسية ، لظهور « علم اللغة » ، ووصوله إلى ما وصل إليه الآن .

ومن واجبات اللغوى أن يدرس اللغة كما هى ، فليس له أن يغيّر من طبيعتها ، شأنه فى ذلك شأن الباحث فى أى علم من العلوم ، فليس له أن يقتصر فى بحثه على جوانب من اللغة مستحسنا إياها ، وينحى جوانب أخرى ، استهجانا لها ، أو استخفافا بها ، أو لغرض فى نفسه ، أو لأى سبب آخر من الأسباب .

ولاترمى دراسة علم اللغة إلى أغراض عملية ؛ فالباحث اللغوى يدرس اللغة لغرض الدراسة نفسها ، فهو يدرسها دراسة موضوعية ، تستهدف الكشف عن حقيقتها ؛ فليس من موضوع دراسته ، أن يحقق أغراضا تربوية مثلا ،أو أية أغراض عملية أخرى ، فهو لايدرسها بغرض الارتقاء بها مثلا ، أو تصحيح جوانب منها ، أو القضاء على عوج فيها ؛ فإن عمله يجب أن يقتصر على وصفها وتحليلها ، بطريقة موضوعية .

* * *

مجالات علم اللغة

يبحث علم اللغة فى المجالات التالية :

١ ــ دراسة الأصوات التى تتألف منها اللغة ، ويتناول ذلك تشريح الجهاز الصوتى لدى الإنسان ، ومعرفة إمكانات النطق المختلفة الكامنة فيه ، ووصف أماكن النطق ومخارج الأصوات فى هذا الجهاز ، وتقسيم الأصوات الإنسانية إلى مجموعات ، تظهر فى كل مجموعة منها خصائص معينة ، ودراسة المقاطع الصوتية ، والنبر والتنغيم فى الكلام ، والبحث عن القوانين الصوتية التى تكمن وراء إبدال الأصوات وتغيرها . كل ذلك يتناوله فرع خاص من فروع علم اللغة ، وهو « علم الأصوات » .

٢ ــ دراسة البنية ، أو البحث فى القواعد المتصلة بالصيغ ، واشتقاق الكلمات وتصريفها ، وتغيير أبنية الألفاظ للدلالة على المعانى المختلفة ، وهو مايدرس عند العرب باسم « علم الصرف » .

٣ ــ دراسة نظام الجملة ، من حيث ترتيب أجزائها ،وأثر كل جزء منها فى الآخر ، وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض ، وطريقة ربطها . وبعض هذه البحوث تدرس عند العرب فى « علم النحو » .

٤ ــ دراسة دلالة الألفاظ ، أو معانى المفردات ، والعلاقة بين هذه الدلالات والمعانى المختلفة ، والحقيقى منها والمجازى ، والتطور الدلالى وعوامله ونتائجه ، ونشوء الترادف والاشتراك اللفظى والأضداد ، وغير ذلك . وكذلك دراسة حياة الكلمة عبر العصور اللغوية المختلفة ، ومايعتريها من تغير فى الصوت والدلالة ، ومايطرأ عليها من أسباب الرقى والانحطاط ،وعوامل البلى والاندثار .

٥ ــ البحث فى نشأة اللغة الإنسانية . وقد ظهرت فى ذلك عدة نظريات مختلفة ، تحاول أن تفسر لنا ، كيف تكلم الإنسان الأول هذه اللغة ، التى تطورت على مر الأزمان ، حتى وصلت إلينا فى صورها المختلفة الراهنة . وقد نادى بعض اللغويين المحدثين بإخراج موضوع نشأة اللغة ، من موضوعات علم اللغة ؛ أمثال « ڤندريس Vendryes » الذى يرى « أن غالبية أولئك الذين كتبوا عن أصل الكلام ، منذ مائة عام ، يهيمون فى تيه من الضلال .. وغلطتهم الأساسية ،أنهم يواجهون هذه المسألة ، من الناحية اللغوية ، كما لوكان أصل الكلام ، يختلط بأصل اللغات [١] » .

فإن اللغويين يدرسون اللغات ، التى تتكلم والتى تكتب ، ويتتبعون تاريخها ، بمساعدة أقدم الوثائق التى تم اكتشافها ، ولكنهم مهما أوغلوا فى هذا التاريخ فإنهم لايصلون إلا إلى لغات قد تطورت ، وتركت وراءها تاريخا ضخما ، لانعرف عنه شيئا . أما فكرة الوصول إلى إعادة بناء رطانة بدائية ، بمقارنة لغات موجودة بالفعل ، فسراب خدّاع !

٦ ــ علاقة اللغة بالمجتمع الإنسانى والنفس البشرية . وهنا يتنازع علم اللغة علمان آخران ، هما : علم الاجتماع ، وعلم النفس ؛ فهناك بحوث ترمى إلى بيان العلاقة بين اللغة والإنسان فى حياته الاجتماعية ، وتبين أثر المجتمع وحضاراته ونظمه ، وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية ، فى مختلف الظواهر اللغوية . كما أن هناك بحوثا أخرى نفسية ، تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية ، والظواهر النفسية ، بمختلف أنواعها ، من تفكير وخيال ، وتذكر واسترجاع وعاطفة ، وغير ذلك .

---

(١) اللغة لفندريس ٢٩

٧ ــ وآخر مجالات هذا العلم ، هو البحث فى حياة اللغة، وتطورها فى نواحى : الأصوات ، والبنية ، والدلالة ، والتركيب ، وغير ذلك . وكذلك البحث فى صراع اللغات ، وانقسامها إلى لهجات ، وصراع اللهجات بعضها مع بعض ، وتكوّن اللغات المشتركة ، وغير ذلك من الأمور .

* * *

الفصل الأول
الدراسة الصوتية
مقدمة

الوحدة الكبرى لأية مجموعة كلامية ، هى الجملة ؛ مثل قولنا : « محمد فى البيت » مثلا . وتتركب الجملة من وحدات أصغر منها ، هى مايطلق عليها اسم الكلمات ، مثل : (محمد) و (فى) و (البيت) فى الجملة السابقة ، كما تتركب الكلمات هى أيضا من وحدات أصغر منها ، هى مايطلق عليه اسم : الأصوات ، مثل مانراه فى كلمة : (محمد) من صوت الميم ، ثم صوت الضمة ، ثم صوت الحاء ، ثم صوت الفتحة ، ثم صوت الميم ، ثم صوت الفتحة ، ثم صوت الدال ، على الترتيب .

وهذه الوحدات الأخيرة ، هى موضوع « علم الأصوات » الذى يدرس الأصوات اللغوية ، من ناحية وصف مخارجها ، وكيفية حدوثها ، وصفاتها المختلفة ، التى يتميز بها صوت عن صوت ، كما يدرس القوانين التى تخضع لها هذه الأصوات فى تأثرها بعضها ببعض ، عند تركبها فى الكلمات أو الجمل .

فالصوت الإنسانى الحى ، هو موضوع علم الأصوات اللغوية . ولم يكن هذا العلم وليد العصر الحاضر . فقد شغل اللغويون من قديم [1] ، بالنظر فى الأصوات اللغوية ، غير أن ماوصلوا إليه قديما ، لم يكن قائما على أساس علمى ثابت ؛ ولهذا فإنه لايبلغ من الدقة والإتقان والضبط ، ماوصل إليه المحدثون من علماء اللغات .

---

(١) انظر تفصيل القول فى الدراسات الصوتية الأولى ، عند اليونان والرومان والهنود ، فى كتاب : علم اللغة للسعران ٩٢ – ٩٦

وإذا نظرنا إلى جهود علماء العربية فى هذا الشأن ، نجد أن أصوات اللغة ، كانت من الأمور ، التى جذبت انتباه علماء العرب الأوائل ، فعملوا فى جهد لايعرف الملل، على إتقان النطق بها ، وعلى الأخص عندما انتشر الإسلام فى بقاع الأرض المختلفة ، وطرقت أسماع العرب أصوات اللغات الأخرى ، فخشى العلماء أن تنحرف أصوات العربية ، بتأثرها بأصوات تلك اللغات ؛ فلم يكد القرن الثانى الهجرى يبدأ ، حتى قام بين علماء العرب ، من يصف الأصوات العربية ، معتمدا على التجربة باللسان والأذن ، لا على المعامل والأجهزة ؛ إذ لم تكن قد عرفت بعد ، فى ذلك العصر .

واشتهر من بين العلماء فى ذلك العصر الأول ، الخليل بن أحمد الفراهيدى (توفى سنة ١٧٥ هـ) الذى عنى كثيرا بدراسة الأصوات ، وموسيقى اللغة ، وقد ساعده سمعه المرهف الحساس ، على التفوق فى هذه الناحية ، فوجه عنايته لأوزان الشعر وإيقاعه ، واستخرج لنا بحور الشعر وقوافيه أو علم العروض ، الذى لايعدو أن يكون دراسة صوتية ، لموسيقى الشعر ، واتجه كذلك إلى الألحان والأنغام ، وألف فى الإيقاع والنغم. وأخيرا حين بدا له وضع معجم لألفاظ اللغة ،رتبه على حسب مخارج الأصوات ، وهذا المعجم هو كتاب : «العين » . ومهما يكن القول فى شأن هذا المعجم من أنه تضمن مسائل لغوية ، نقدها علماء العربية ،بعد ظهوره ، وأنكروا نسبتها إلى الخليل ،ونزهوه عن الوقوع فى أمثالها ، وذهب بعضهم لهذا إلى نفى نسبة هذا الكتاب إليه ــ فالذى لاشك فيه أن الخليل ، قد وضع هيكل هذا المعجم ، ورسم منهجه ونظامه ، وأن ماجاء فيه مما أنكره هؤلاء العلماء ، إنما أقحم فى ثناياه بعد الخليل .

رأى الخليل بن أحمد ، أن الترتيب المألوف لحروف الهجاء العربية ، وهى : أ ب ت ث ج ح خ .... إلخ ، إنما استمده النساخ والكتبة من

الترتيب السامى القديم ، الذى اشتهر عند الأمم السامية القديمة ، كالفينيقيين والعبريين ، وهو ترتيب أبجدهوز ... إلخ ، وأن النساخ قد وضعوا الرموز المتشابهة الصورة ، بعضها بجوار بعض ؛ ومن هنا جاء الترتيب الهجائى المألوف لنا . كما وجد الخليل أن هذا الترتيب الهجائى المألوف ، ليس قائما على أساس علمى ، فآثر أن يختار ترتيبا آخر ، أساسه مخارج الأصوات ، ورتب معجمه (العين) على ذلك ، فبدأ بأصوات الحلق ، وجعلها أقساما ، ثم أصوات أقصى الفم ، ثم أوسط الفم ، ثم أدنى الفم ، ثم الشفتين ، فجاء ترتيبه للأصوات اللغوية فى العربية ، على النحو التالى : (١) :

ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و ا ى .

وكان الخليل بن أحمد أسبق مَنْ ذاق الحروف ، ليتعرف مخارجها ؛ يقول عنه تلميذه الليث بن المظفر : « وإنما كان ذواقه إياها ، أنه كان يفتح فاه بالألف ، ثم يظهر الحرف ، نحو : أب ، أت ، أح ، أع ، أغ ، فوجد العين أدخل الحروف فى الحلق ، فجعلها أول الكتاب (٢) » .

وهذا معناه تجربة النطق بالصوت ساكنا ؛ لئلا يختلط بغيره ، ويلتبس على الناطق معرفة كيفية صدوره ومخرجه الدقيق . وهذه الطريقة تقرب مما يدعو إليه المحدثون ، من علماء الأصوات .

وجاء « سيبويه » تلميذ الخليل بن أحمد ، فخصص للدراسة الصوتية فصولا ، فى كتابه : « الكتاب » ، فذكر عدد الحروف العربية ، ومخارجها ،

---

(١) انظر كتاب العين للخليل بن أحمد ١/٥٣ ؛ ١/٦٥

(٢) العين للخليل بن أحمد ١/٥٢

ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها ، واختلافها ؛ وذلك فى باب عقده للإدغام ، وقال فى آخره : « وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات ، لتعرف مايحسن فيه الإدغام ، ومايجوز فيه ، وما لايحسن فيه ذلك ، وماتبدله استثقالا كما تدغم ، وماتخفيه وهو بزنة المتحرك [١] » . وقد رتب سيبويه الأصوات العربية ، حسب مخارجها على النحو التالى مخالفاً فى بعضه لترتيب الخليل :

ء ا هـ ع غ خ / ق ك / ج ش ى ض / ل ر ن / ط د ت / ص ز س / ظ ذ ث / ف ب م و .

وقد تأثر بكتاب سيبويه كل من جاء بعده من النحاة واللغويين ، لا فى آرائه النحوية فحسب ، بل فى آرائه الصوتية كذلك ؛ فأخذوا يرددون كلامه فى الأصوات دون أن يزيدوا عليه مايستحق الذكر ، فهذا ابن جنى فى القرن الرابع الهجرى ، يؤلف كتابا مستقلا فى علم الأصوات هو : « سر صناعة الإعراب » ، لايكاد يخرج فيه عن كلام سيبويه ، فى تعداد المخارج ، ووصف الحروف ؛ فكثيرا مايقتبس نص العبارات التى جاءت فى كتاب سيبويه ، ويقف عند حدودها .

وهو فى بداية كتابه ، يلتمس لحدوث الأصوات وسيلة للإيضاح ، لم يهتد إليها سيبويه من قبل ؛ إذ يشبه ابن جنى مجرى النفس فى أثناء النطق بالمزمار ، كما يشبه مدارج الحروف ومخارجها ، بفتحات هذا المزمار ، التى توضع عليها الأصابع ، أو بوتر العود وأثر الأصابع ؛ فيقول : « شبه بعضهم الحلق والفم بالناى ؛ فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا ، كما

---

(١) كتاب سيبويه ٢/٤٠٦ — ٤٠٧

يجرى الصوت فى الألف غفلا بغير صنعة ، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى المنسوقة ، وراوح بين أنامله ، اختلفت الأصوات ، وسمع لكل خرق منها صوت لايشبه صاحبه ، فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق والفم ، باعتماد على جهات مختلفة ، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة .

ونظير ذلك أيضا وتر العود ؛ فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل ، سمعت له صوتا ، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه ، أدّى صوتا آخر ، فإن أدناها قليلا سمعت غير الاثنين ، ثم كذلك كلما أدنى إصبعه من أول الوتر ، تشكلت لك أصداء مختلفة ... فالوتر فى هذا التمثيل كالحلق ، والخفقة عليه بالمضراب ، كأول الصوت من أقصى الحلق ، وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور ، كجريان الصوت فى الألف الساكنة ، ومايعترضه من الضغط والحصر بالأصابع ، كالذى يعرض للصوت فى مخارج الحروف من المقاطع ، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا ، وإنما أردنا بهذا التمثيل الإصابة والتقريب (١) » .

وجاء القرن الخامس الهجرى ، يحمل إلينا رسالة صغيرة فى الأصوات العربية ، للرئيس ابن سينا ، فيلسوف الإسلام ، واسمها : « أسباب حدوث الحروف » ، وهى مقسمة على ستة فصول ؛ الأول منها فى سبب حدوث الصوت ، ويقصد به صوت الإنسان وغيره ، والثانى فى سبب حدوث الحروف ، ويقصد بالحروف الأصوات الإنسانية ، والثالث فى تشريح الحنجرة واللسان ، والرابع فى الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب ، والخامس فى الحروف الشبيهة بهذه الحروف ، وليست فى لغة العرب ، والسادس فى أن هذه الحروف من أى الحركات غير النطقية قد تسمع . وحديث ابن سينا فى هذه الرسالة ، أشبه بحديث علماء وظائف الأعضاء ،

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/٩

فلا نكاد نلمح فيها أنه تأثر كغيره بكتاب سيبويه ، فله مصطلحاته ، وله وصفه الأصيل لكل صوت ، مما جعله محل إعجاب وتقدير من بعض اللغويين المحدثين .

وفى القرن السادس الهجرى ، يؤلف الزمخشرى كتابه « المفصل » فى النحو ، ويخصص القسم الأخير منه للدراسة الصوتية ، فيردد فيه كلام الخليل وسيبويه ، دون زيادة تذكر .

ولانكاد نجد بعد هذا فى كتب المتأخرين ، مايمكن أن يتّسم بالأصالة فى دراسة أصوات اللغة ، سوى تلك المحاولة التى جاءت فى كتاب السكاكى : « مفتاح العلوم » فى أوائل القرن السابع الهجرى ، من رسم بدائى لأعضاء النطق .

ورغم كثرة كتب القراءات فى العصور المتأخرة ، وعلاجها المسهب للقراءات السبع والعشر وغيرها ، نرى أنها حين تعرض لأصوات اللغة ، تكتفى ببضع صفحات ، تصف فيها مخارج الحروف وصفاتها ، فى صورة مقتضبة مختصرة ، لاتخلو من الغموض أو التحريف ، فى بعض الأحيان ، كما أن عناية أصحابها قد وجهت كلها ، إلى رواية القراءات وسندها ، معتمدين على تلقين القراءات وضبطها ، عن طريق التلقى الشفوى ، جيلا بعد جيل ، حتى انتهى الأمر إلى بضعة متون صغيرة ، سميت « بعلم التجويد » يحفظها الطالب عن ظهر قلب ، دون فهم لها فى غالب الأحيان . وقد التزمت هذه المتون فى غالب أحوالها ، نصوص سيبويه وعباراته فى شرح أصوات اللغة ووصفها .

تلك هى الدراسات الصوتية عند قدامى العرب . أما الدراسات الصوتية عند علماء الغرب ، فقد ظهرت بوادرها فى الربع الأول من القرن

التاسع عشر الميلادى ، حين أخذ العلماء هناك ، يقارنون اللغات الهندأوربية بعضها ببعض (١) .

أما المؤلفات الحديثة فى علم الأصوات باللغة العربية ، فمنها :

١ ـــ الباب الأول من كتاب « التطور النحوى » ص ١١ ـــ ٧٣ وهو عبارة عن سلسلة محاضرات ، ألقاها المستشرق الألمانى « برجشتراسر » باللغة العربية ، على طلبة كلية الآداب ، بالجامعة المصرية القديمة سنة ١٩٢٩ م . وهو يهتم فيها بالمقارنات السامية اهتماما بالغا .

٢ ـــ « علم الأصوات عند سيبويه وعندنا » محاضرة للمستشرق الألمانى : « شادِه » ألقاها فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية فى سنة ١٩٣١ باللغة العربية ، ونشرت بصحيفة الجامعة المصرية سنة ١٩٣١ م . وهذه المحاضرة خلاصة مؤلف باللغة الألمانية لهذا المستشرق .

٣ ـــ « الأصوات اللغوية » للدكتور إبراهيم أنيس ، وهو أول كتاب متكامل باللغة العربية عن الدراسات الصوتية على المنهج اللغوى الحديث . وقد صدرت أولى طبعاته فى عام ١٩٤٧ م .

٤ ـــ « منهج الأصوات » فصل من كتاب : « مناهج البحث فى اللغة » ص ٥٩ ـــ ٧٠ للدكتور تمام حسان ، وفيه اهتمام كبير بعلم الأصوات التجريبى . وقد ظهر سنة ١٩٥٥ م .

٥ ـــ « الأصوات اللغوية » فصل من كتاب « فقه اللغة » لمحمد المبارك ص ٢٩ ـــ ٥١ وهو عبارة عن دراسة تقليدية ، تعتمد على ترديد أقوال

---

(١) انظر فى ذلك مقالة الدكتور مراد كامل : « علم الأصوات ، نشأته وتطوره » بمجلة مجمع اللغة العربية ١٦/٧٥ – ٧٩ .

السابقين من اللغويين العرب . والكتاب مطبوع بدمشق سنة ١٩٦٠ م .

٦ ــ الباب الثانى من كتاب « علم اللغة » للدكتور محمود السعران ص ٩١ ــ ٢٢٠ وقد أفاد فيه مؤلفه من كثير من مؤلفات الغرب فى الدراسات الصوتية . وقد ظهر الكتاب فى عام ١٩٦٢ م .

٧ ــ مقالة بعنوان : « جهود علماء العرب فى الدراسة الصوتية » للدكتور إبراهيم أنيس ، بمجلة مجمع اللغة العربية (سنة ١٩٦٣ م) ١٥ / ٤١ ــ ٤٩

٨ ــ « أصوات اللغة » للدكتور عبد الرحمن أيوب . صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٦٣ م والثانية سنة ١٩٦٨ م . وقد اعتمد فيه صاحبه اعتماداً كبيرا على كتاب « هفنر » Heffener « علم الأصوات العام » General Phonetics المطبوع فى أمريكا سنة ١٩٥٢ م .

٩ ــ « دروس فى علم أصوات اللغة العربية » لجان كانتينو ترجمه إلى العربية « صالح القرمادى » ونشره فى تونس سنة ١٩٦٦ م .

١٠ ــ « الأصوات » للدكتور كمال محمد بشر ، وهو القسم الثانى من كتابه : « علم اللغة العام » ، نشره سنة ١٩٧٠ م .

١١ ــ مقالة بعنوان : « مشكلة الضاد العربية ، وتراث الضاد والظاء » للدكتور رمضان عبد التواب ، بمجلة المجمع العلمى العراقى (المجلد الحادى والعشرون) فى سنة ١٩٧١ م .

١٢ ــ « دراسة الصوت اللغوى » للدكتور أحمد مختار عمر ــ نشر بالقاهرة سنة ١٩٧٦ م .

١٣ ــ فى علم الأصوات الفيزيقى (مدخل إلى التصوير الطيفى للكلام) لإرنست بولجرام ــ ترجمة الدكتور سعد عبد العزيز مصلوح ــ القاهرة ١٩٧٧ م .

١٤ ــ « دراسة السمع والكلام » للدكتور سعد عبد العزيز مصلوح ــ القاهرة ١٩٨٠ م .

١٥ ــ « فى البحث الصوتى عند العرب » للدكتور خليل إبراهيم العطية – بغداد ١٩٨٣ م .

١٦ ــ « علم الأصوات » لبرتيل مالبرج – ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين – القاهرة ١٩٨٥ م .

★ ★ ★

كيف يحدث الصوت الإنسانى

ينبغى قبل أن نعرف الإجابة على هذا السؤال ، أن نتعرف الجهاز النطقى عند الإنسان ، وهو عبارة عن التجويف الفمى والأنفى ، والحلق ، والحنجرة ، والقصبة الهوائية ، والرئتين . وفى تسمية هذه الأعضاء كلها بالجهاز النطقى ، إجحاف بوظائفها الحيوية الأخرى ، إذا علمنا أن الشفتين تستخدمان لتلقى الطعام عند دخوله فى الفم ، كما تستخدمان صماما لمنع الطعام أن يخرج من الفم فى أثناء المضغ ، كما تستعملان فى المص ، بتضييق الفجوة بين منطقة الضغط الخفيف داخل الفم ، والسائل الذى يراد امتصاصه وغير ذلك من الأغراض الأخرى .

أما الأسنان والأضراس ، فلتقطيع الطعام ومضغه ، واللسان لتقليب الطعام فى الفم وتذوقه . أما الأنف والتجويف الأنفى ، فليسا إلا حجرة يتكيّف فيها الهواء ، قبل نزوله إلى الرئتين . أما الحلق فإنه ليس إلا ممرا للطعام والهواء كليهما . وينتهى الحلق بالحنجرة ، وفيها الأوتار الصوتية التى تؤدى وظيفة الصمام للرئتين لحفظها ، ولحبس الهواء فيهما عند الحاجة إليه . أما القصبة الهوائية ، فإنها الطريق الذى يمر به الهواء الداخل للرئتين أو الخارج منهما . وأما الرئتان فإنهما لتنقية الدم الموجود بالجسم ، بإعطائه الأوكسجين ، وتخليصه من ثانى أكسيد الكربون ، ثم توزيع هذا الدم الصالح ، على أعضاء الجسم بواسطة القلب .

وعلى ذلك « فالنطق فى الواقع ، ليس أكثر من وظيفة ثانوية ، تؤديها هذه الأعضاء ، إلى جانب قيامها بوظائفها الرئيسية ، التى خلقت من أجلها ؛ ولهذا فإن عجز الإنسان عن الكلام ؛ لاصابته بالبكم ، لايعنى على الإطلاق عجز أعضائه هذه عن القيام بوظائفها الأخرى ، التى تحفظ على

صاحبها الحياة ؛ فلسان الأخرس يقوم بجمع الوظائف التى يقوم بها لسان غير الأخرس ، فيما عدا الكلام ، بطبيعة الحال [١] » .

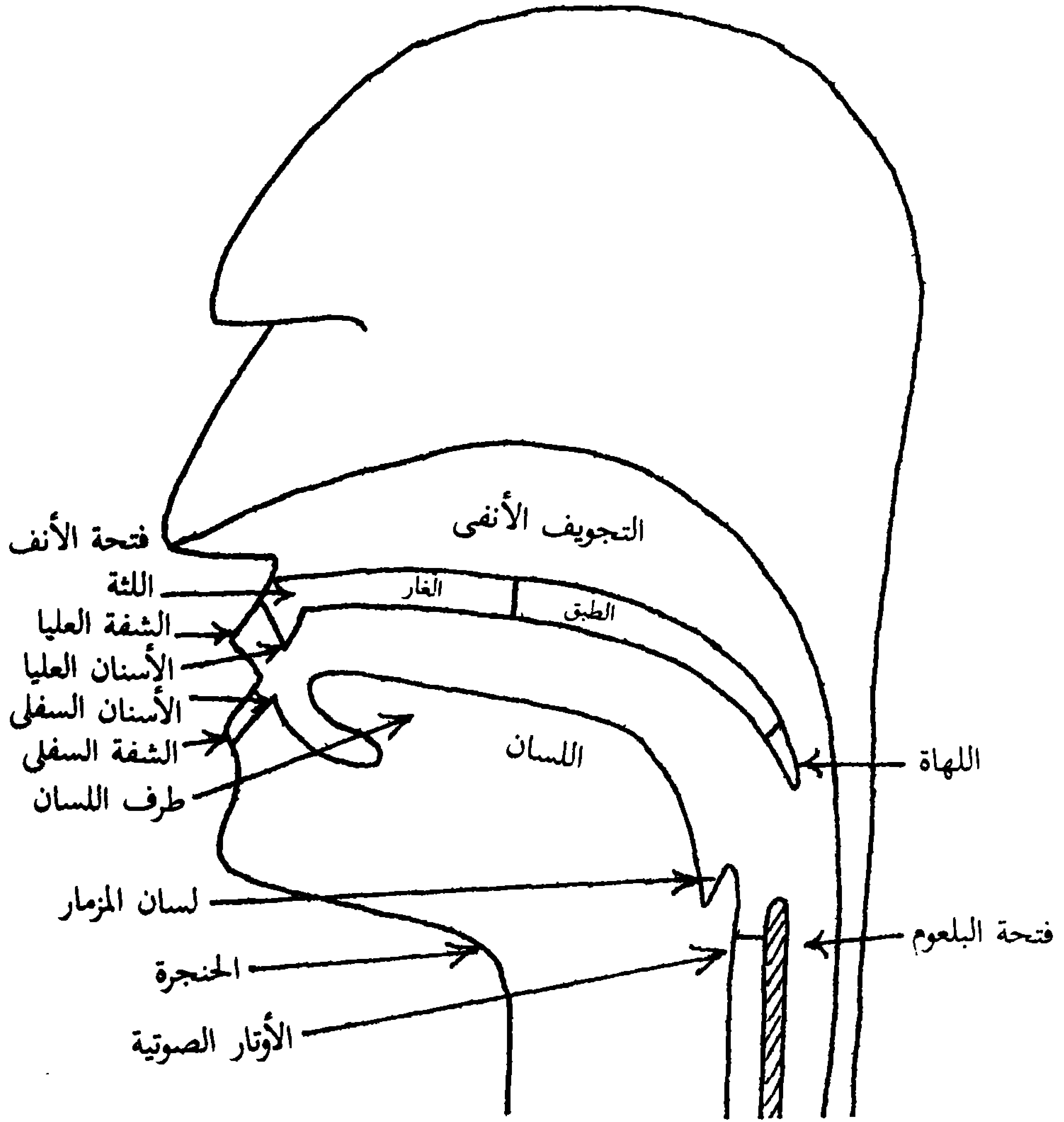
ولكل هذا نرى أن الأعضاء ، التى جرى الاصطلاح على تسميتها أعضاء النطق ، لاتنحصر وظيفتها فى إحداث الأصوات ، بل إن لها وظائف حيوية أخرى ، ويوجد لدى كل حيوان جهاز يماثل أو يقارب الجهاز النطقى لدى الإنسان ، غير أن الإنسان استخدم ذكاءه على توالى الأيام والعصور ، فاستطاع أن يكيف جهازه الصوتى فى أوضاع مختلفة ، مع إخراج الهواء من الرئتين ، فأنتج بذلك أصواتا مختلفة المخارج والصفات ، يتألف منها كلامه الإنسانى .

أما الحيوان فإنه قد يستخدم نقطة مامن هذا الجهاز الصوتى ، فيخرج صوتا واحداً متشابهاً ، أو صوتين متواليين دائما .

وفيما يلى صورة تقريبية « للجهاز النطقى » عند الإنسان :

---

(١) أصوات اللغة ، للدكتور عبد الرحمن أيوب ٤٠ .



وإذا نظرنا إلى هذا الجهاز النطقى ، نجد أنه يتكون من أجزاء ثابتة ، وأخرى متحركة ؛ فالأجزاء الثابتة فيه هى الأسنان العليا ، واللثة ، والغار وهو الجزء الصلب من سقف الحنك . ومن الأجزاء الثابتة كذلك : الجدار الخلفى للحلق ، وماعدا ذلك من أجزاء الجهاز النطقى فمتحرك .

وسنشرح فيما يلى كل جزء من أجزاء هذا الجهاز ، مع بيان دوره فى إحداث الصوت .

أما الشفتان :

فتتحركان بحرية في كل اتجاه ،وتتخذان أوضاعاً مختلفة عند نطق الأصوات ، ومن الممكن ملاحظة هذه الأوضاع ، فى يسر وسهولة ؛ إذ يمكن أن تنطبق الشفتان ، فلا تسمحان للهواء بالخروج مدة من الزمن ، ثم تنفرجان ، فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا ، كما فى نطق الباء . وقد تستدير الشفتان ، كما يحدث عند نطق الضمة مثلا . كما يمكن أيضا أن تنفرجا ، كما فى نطق الفتحة ، إلى غير ذلك من الأوضاع والحركات .

وتختلف عادات البشر فى استغلال حركة الشفتين ، والانتفاع بها ؛ فمن الشعوب من تتميز عادات النطق لديهم بكثرة الحركة فى الشفتين ، ومنهم من يقتصد فى ذلك .

وأما الأسنان:

فمن أعضاء النطق الثابتة فى الجهاز النطقى ، ولاسيما العليا منها ، ولاتستغل فى النطق إلا بمساعدة أحد الأعضاء المتحركة ، كاللسان والشفة السفلى .

وأما سقف الحنك :

فهو الذى يتصل به اللسان ، فى أوضاعه المختلفة فى الفم ، ومع كل وضع من أوضاع اللسان ، بالنسبة لجزء من أجزاء الحنك الأعلى ، تتكون مخارج كثير من الأصوات .

وينقسم سقف الحنك إلى أربعة أقسام ؛ الأول : هو اللثة ، أو أصول الأسنان العليا . والثانى : هو الغار ، وهو الجزء الصلب من سقف الحنك ،

وهو محدّب ومحزّز . والثالث : هو الطبق ، وهو الجزء الرخو من سقف الحنك ، وهو متحرك . والرابع : هو اللهاة ، وهى جزء متحرك كذلك .

وأما اللسان :

فإنه أهم عضو فى عملية النطق ، وهو يحتوى على عدد كبير من العضلات ، التى تمكنه من التحرك ، والامتداد ، والانكماش ، والتلوّى إلى أعلى أو إلى الخلف . وهذه السهولة فى التحرك ، مكّنت اللسان من الاتصال بأية نقطة من الفم ، فنتج عن تحركاته المختلفة ، عدد كبير من الإمكانات الصوتية فى الجهاز النطقى ، ولاغرابة بعد هذا إذا كان اسمه يرادف كلمة « اللغة » عند كثير من الشعوب . وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى : ﴿ بلسان عربى مبين ﴾ .

وأما الحلق :

فإنه الجزء الذى بين الحنجرة وأقصى الحنك ، وهو عبارة عن تجويف فى الخلف من اللسان ، يحدّ به أماما ، وبما يسمى الحائط الخلفى للحلق من الخلف . وهذا الحائط الخلفى ، ليس إلا عظام العنق ، مغطّاة بما يكسوها من اللحم .

وفى مقدمة الحلق ، منطبقا على جذر اللسان ، مايسمّى بلسان المزمار ، وهو قطعة من اللحم ، لاتتحرك ذاتيا ، ولكن تتحرك بحركة اللسان ، وتؤدى وظيفة صمام القصبة الهوائية ، بسدّها لئلا يؤذيها الطعام النازل إلى المرىء من خلفها . ويبدو أنه لادخل للسان المزمار فى عملية النطق .

وأما الحنجرة :

فإنها تقع فى قمة القصبة الهوائية ، وهى عبارة عن حجرة متسعة نوعا ما ، ومكونة من ثلاثة غضاريف ؛ الأول أو العلوى منها ناقص الاستدارة من الخلف ، عريض بارز من الأمام ، ويعرف الجزء البارز منه بتفاحة آدم . أما الغضروف الثانى فهو كامل الاستدارة . والثالث مكون من قطعتين موضوعتين فوق الغضروف الثانى من الخلف .

وفى الحنجرة توجد الأوتار الصوتية ، وهى فى الواقع وتران اثنان ، عبارة عن غشاءين كل واحد منهما نصف دائرة حين يمتد ، فإذا امتد الوتران أغلقا فتحة الحنجرة ، ومنعا الهواء الرئوى من المرور . وعلى ذلك فهما من أعضاء النطق المتحركة ؛ ولهما القدرة على اتخاذ أوضاع متعددة ، تؤثر فى الأصوات الكلامية . وهذه الأوضاع ثلاثة ، هى : وضع الارتخاء التام ، ووضع الذبذبة ، ووضع الامتداد وقفل مجرى الهواء تماما .

أما الوضع الأول : فهو وضع التنفس العادى . وأما الوضع الثانى : فهو الذى ينتج نوعا معينا من الأصوات ، يسمى بالأصوات المجهورة ، وسنتحدث عنها فيما بعد . وأما الوضع الثالث ، فهو الوضع الذى ينتج صوت الهمزة فى اللغة العربية مثلا .

وأخيرا فإن الرئتين مخزن للهواء ، تتحركان تمدّدا وانكماشا ، بحسب حركة الحجاب الحاجز الموجود تحت الرئتين ، أسفل الصدر .

وهذا ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أنه يمكن قفل المجرى الأنفى مما يلى الحلق ، برفع الطبق ولصقه بالحائط الخلفى للحلق . ويمكن فتحه كذلك ، بإنزال الطبق فى اتجاه مؤخرة اللسان .

تلك هى أعضاء النطق المختلفة ، التى تهمنا فى دراسة الصوت الإنسانى وعملية النطق . ونصل الآن إلى الإجابة عن السؤال السابق وهو : كيف يحدث الصوت الإنسانى ؟ فنقول : إن الهواء الخارج من الرئتين ، إما أن يصادف مجراه مسدوداً سداً تاما ، عند أية نقطة فى الجهاز النطقى مابين الحنجرة والشفتين . وإما أن يصادف فى طريقه تضييقا فى المجرى ، لاسداً فيه ، بحيث يسمح هذا التضييق للهواء بالمرور ، ولكن هذا الهواء يحتك بنقطة التضييق هذه .

أى أن الكلام يحدث عادة ، عند عملية الزفير ، وذلك « بأن تعترض الأعضاء الصوتية ممر الهواء . وتقتضى عملية الكلام إطالة الزمن الذى تتم فيه عملية الزفير ، بالنسبة لعملية الشهيق ، حتى تصبح الفترة ، التى يستغرقها الزفير من ثلاثة إلى عشرة أمثال فترة الشهيق . هذا فى الكلام العادى أما عندما يسترسل المتكلم فى حديث سريع طويل ، فقد يصبح طول فترة الزفير ثلاثين مثلا ، لطول فترة الشهيق ، وكلنا يعرف بالمشاهدة ، كيف تكون النسبة بينهما ، عندما يحاول أحد المقرئين قراءة سورة قصيرة ، أو أكثر ، فى نفس واحد .

« ومع هذا ، فإن عملية الزفير ، التى يتم خلالها النطق ليست مجرد إخراج الهواء على نحو مناسب ، ولكن الهواء فى الواقع يخرج فى دفعات ، تتفق كل دفعة منها ، مع إنتاج مقطع صوتى كامل . ويمكن تشبيه الرئتين عند الزفير ، فى أثناء الكلام بالبالونة التى تنتهى بزمارة ؛ ينطلق الهواء منها ، بحكم ضغط جسمها المطاط ؛ فإذا مافرض أن جعل الطفل الذى يلعب بها ، يضغط على جدارها ، ضغطات متوالية ، لخروج الهواء منها على دفعات ، لاتوقف بين إحداها والأخرى ، لسمعنا للزمارة صوتا شبيها بالصوت

المتقطع ، بالرغم من عدم توقفه . وهذه العملية شبيهة كل الشبه بعملية إنتاج المقاطع فى أثناء الكلام ، لكل مقطع دفعة هوائية ، تنتج من انقباضات متوالية ، يقوم بها الحجاب الحاجز ، فيؤثر الضغط على الهواء الخارج من الرئتين ، دون أن يتوقف خروجه (١) » .

وعلى هذا ، يمكن تبعا لذلك ، أن يحدث من أى جزء من أجزاء الجهاز الصوتى ، من الناحية النظرية ، صوت ما ؛ وذلك إما بسدّ هذا الجزء سداً محكما ، حتى لايتسرب الهواء إلى الخارج ، ثم نزيل هذا السدّ بسرعة ، فينطلق الهواء بانفجار ، وعندئذ نسمع صوتا معينا ، وإما أن يضيق الجهاز النطقى ، فى إحدى نقطه ، تضييقا يسمح بمرور الهواء مع الاحتكاك بهذا الجزء المضيق .

وبهذا يمكن أن يخرج من كل جزء من أجزاء هذا الجهاز ، عدد لاحصر له من الأصوات ، بمساعدة حركة أجزائه المتحركة . غير أن الشعوب البشرية ، قد اختلفت فيما بينها فى استخدام إمكانات الجهاز النطقى ، استخداما كاملا ؛ وهذا هو السبب فى أن اللغات الإنسانية ، تتفق فيما بينها فى بعض الأصوات ، وتختلف فى بعضها الآخر ، وذلك تبعا لاختلافها فى استخدام إمكانات الجهاز النطقى المتعددة ؛ فالشعوب الهندوأوربية مثلا ، لم تستخدم كل إمكانات النطق فى إخراج الأصوات من الحلق ؛ ولذلك تخلو بعض لغاتهم من صوتى الخاء والعين ، وذلك بعكس اللغة العربية ومعظم اللغات السامية مثلا .

---

(١) انظر : أصوات اللغة للدكتور عبد الرحمن أيوب ٤٤

وقد استخدمت العربية الفصحى ، عشرة مخارج فى الجهاز النطقى ، هى بالترتيب :

١ ــ الشفة . ويسمى الصوت الخارج منها شفويا .

٢ ــ الشفة مع الأسنان . ويسمى الصوت الخارج منهما شفويا أسنانيا .

٣ ــ الأسنان . ويسمى الصوت الخارج منها أسنانيا

٤ ــ الأسنان مع اللثة . ويسمى الصوت الخارج منهما أسنانيا لثويا .

٥ ــ اللثة . ويسمى الصوت الخارج منها لثويا .

٦ ــ الغار .ويسمى الصوت الخارج منه غاريا .

٧ ــ الطبق . ويسمى الصوت الخارج منه طبقيا .

٨ ــ اللهاة . ويسمى الصوت الخارج منها لهويا.

٩ ــ الحلق . ويسمى الصوت الخارج منه حلقيا .

١٠ ــ الحنجرة . ويسمى الصوت الخارج منها حنجريا .

تلك هى مخارج الأصوات فى العربية الفصحى ، كما تدل عليها تجارب معامل الأصوات فى وقتنا الحاضر . واللسان عامل مشترك فى أكثر هذه المخارج ؛ إذ يخرج طرفه بين الأسنان ، أو يوضع عند الأسنان واللثة ، أو عند اللثة وحدها ، أوعند الغار ، أو ترتفع مؤخرته عند الطبق أو اللهاة ؛ فليكن ذلك مفهوما لدينا ، وإن لم ننسب مخرجا من المخارج إليه .

وبيننا وبين قدامى اللغويين من العرب ، خلاف فى عدد المخارج للأصوات العربية ، وفى تحديد مخارج بعض الأصوات ؛ فعندنا الآن أن :

١ ــ الأصوات الشفوية هى : ب م و .
٢ ــ والشفوية الأسنانية هى : ف .
٣ ــ والأسنانية هى : ذ ظ ث .
٤ ــ والأسنانية اللثوية هى : د ض ت ط ز س ص .
٥ ــ واللثوية هى : ل ر ن .
٦ ــ والغارية هى : ش ج ى .
٧ ــ والطبقية هى : ك غ خ .
٨ ــ واللهوية هى : ق .
٩ ــ والحلقية هى : ع ح .
١٠ ــ والحنجرية هى : الهمزة والهاء .

هذا هو رأى المحدثين من علماء الأصوات ، فى مخارج أصوات العربية الفصحى ، مؤسسا على نتائج التجارب الصوتية ، فى المعامل وغيرها .

أما الخليل بن أحمد ، فجعل المخارج ثمانية ، يختلف موقع الأصوات العربية ، فى بعضها ، عما عندنا الآن . كما أنه لم ينسب الياء والواو والألف والهمزة ، إلى مخرج معين ، وسماها هوائية ؛ فقال : « فالعين والحاء والهاء والخاء والغين **حلقية** ؛ لأن مبدأها من الحلق . والقاف والكاف **لهويتان** ؛ لأن مبدأهما من اللهاة . والجيم والشين والضاد **شجرية** ؛ لأن مبدأها من شجر الفم ، أى مفرج الفم . والصاد والسين والزاى **أسلية** ؛ لأن مبدأها من أسلة اللسان ، وهى مستدق طرف اللسان . والطاء والتاء والدال **نطعية** ؛ لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى . والظاء والذال والثاء **لثوية** ؛ لأن مبدأها من اللثة . والراء واللام والنون **ذلقية** ؛ لأن مبدأها من ذلق اللسان ، وهو تحديد طرفيه كذلق

السنان . والفاء والباء والميم **شفوية** ، وقال مرة : شفهية ؛ لأن مبدأها من الشفة . والياء والواو والألف والهمزة **هوائية** فى حيز واحد ؛ لأنها هاوية فى الهواء ، لا يتعلق بها شىء [(١)] » .

وأما سيبويه ، فإنه يعد المخارج ستة عشر مخرجا ، ويسود كلامه الغموض وعدم الوضوح ، فى كثير من الأحيان ؛ حيث يقول : « والحروف العربية ستة عشر مخرجا ، فللحلق منها ثلاثة : (١) فأقصاها مخرجا الهمزة والهاء والألف (يقصد بذلك ألف المد) . (٢) ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء . (٣) وأدناها مخرجا من الفم الغين والخاء . (٤) ومن أقصى اللسان ومافوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف . (٥) ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ، ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف . (٦) ومن وسط اللسان ، بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء . (٧) ومن بين أول حافة اللسان ومايليه من الأضراس مخرج الضاد . (٨) ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ، مابينها وبين مايليها من الحنك الأعلى ، ومافوق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام . (٩) ومن طرف اللسان بينه وبين مافويق الثنايا مخرج النون . (١٠) ومن مخرج النون غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلا ، لانحرافه إلى اللام ، مخرج الراء . (١١) ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء . (١٢) ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاى والسين والصاد . (١٣) ومما بين طرف اللسان ، وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء . (١٤) ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء . (١٥) ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو . (١٦) ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة [(٢)] » .

---

(١) العين للخليل بن أحمد ٦٥/١

(٢) كتاب سيبويه ٤٠٥/٢

ويعلق المستشرق « شادِه » Schaade على تقسيم سيبويه للمخارج ووصفها بقوله : « نشاهد غاية التفصيل مثلا فى تقسيمه للأسنان ؛ وقد قسمها إلى الثنايا والرباعيات والأنياب والأضراس . ويخالف هذا التدقيق معاملته للحلق ، فإن سيبويه وإن قسمه إلى أقصى الحلق ، وأوسط الحلق ، وأدنى الحلق ، لم يكن يعرف الحنجرة ، ولأجزاءها كالمزمار والأوتار الصوتية . وسبب هذا الاختلاف واضح ؛ فإن الأسنان مكشوفة للرؤية ، وأما الحنجرة وأجزاؤها وعملها ، فتقتضى ملاحظتها إلى التشريح ، وماأظن سيبويه يجترىء عليه ، أو إلى بعض الآلات الفنية ، كمنظار الحنجرة ، أو الأشعة المجهولة ، ولم يكن مثل هذه الآلات بين يديه ، وكفى بذلك عذرا يعتذر به سيبويه ، لعدم معرفته بالحنجرة وعملها . وإن ثبت أن الخلل المذكور فى مدارك سيبويه منعه من أن يفهم بعض المسائل الصوتية ، حق الفهم [١] » .

وبعد أن عرفنا شيئا عن المخارج فى العربية الفصحى ، نعود إلى موضوعنا الأول ، وهو كيفية حدوث الصوت مرة أخرى .

لقد قلنا إنه فى الإمكان أن يعوق تيار الهواء الخارج من الرئتين ، عائق يمنعه من المرور ، عند أى مخرج من هذه المخارج ، ثم يزول هذا العائق بسرعة ، وبهذا يندفع الهواء الخارج بانفجار شديد . وإما أن يضيق المجرى عند أى مخرج من هذه المخارج ، ضيقا يسمح للهواء بالمرور مع الاحتكاك بمكان التضييق .

ويسمى الصوت الخارج فى الحالة الأولى (حالة وجود عائق) صوتا شديداً أو انفجاريًّا ، وفى الحالة الثانية (حالة تضييق نقطة فى المجرى) يسمى الصوت الخارج صوتا رخوا أو احتكاكيا .

---

(١) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص ٥

ويجعل « ڤندريس » لإنتاج الصوت الانفجارى ثلاث مراحل ؛ فيقول: « ففى كل صامت انفجارى إذن ثلاث خطوات متميزة : الإغلاق أو الحبس ، والإمساك الذى قد يكون طويل المدى أو قصيره ، والفتح أو الانفجار . وعند إصدار صامت بسيط مثل التاء ، فإن الانفجار يتبع الحبس مباشرة، والإمساك يضؤل إلى مدى لايكاد يُحَسّ ، وعلى العكس من ذلك ، تظهر الخطوات الثلاث بوضوح ، فيما يسمى بالصوامت المضعّفة ، وهى ليست إلا صوامت طويلة (١) » .

وإذا كان الشرط فى إنتاج الأصوات الشديدة الانفجارية هو سرعة زوال العائق ، فإننا نجد بين أصوات العربية ، صوتا لايزول فيه العائق بسرعة ، بل إن العضوين المتصلين ، لاينفصلان انفصالا سريعا ، وإنما انفصالهما انفصال بطىء ، وفى الانفصال البطىء مرحلة بين الانسداد المطلق والانفتاح المطلق ، شبيهة إلى حد ما ، بالتضييق الذى عرفنا أنه من مميزات الأصوات الرخوة الاحتكاكية ، وهذه المرحلة تسمح للهواء أن يحتك بالعضوين المتباعدين ببطء احتكاكا شبيها بما يصاحب الأصوات الرخوة ؛ ولذا فإن هذا الصوت يجمع بين الشدة والرخاوة ، بمعنى أنه يبدأ شديدا انفجاريا ، وينتهى رخوا احتكاكيا ، ولهذا نسميه بالصوت المزدوج ، كما يسميه آخرون بالصوت المزجى أو الصوت المركب . وهو فى اللغة العربية صوت الجيم فى الفصحى . وفى اللغات الأخرى نظائر لهذا الصوت ؛ مثال ذلك فى الإنجليزية ch وفى الألمانية z (تْسْ) وكذلك Pf (پْفْ) . ويسمى الصوت المزدوج عندهم باللاتينية : Affricata وبالفرنسية : affriquèe وبالإنجليزية : affricate .

---

(١) انظر اللغة لفندريس ٤٨

ويجعل ڤندريس هذا النوع من الأصوات متوسطا بين الانفجارى والاحتكاكى ؛ فيقول : « وتوجد سلسلة من الأصوات المتوسطة بين الانفجارية والاحتكاكية ،وهى ما تسمى شبه الانفجارية ، أو بعبارة أوضح : الانفجارية الاحتكاكية وتتميز بالإغلاق الذى لايستمر إحكامه ، وفيها كما فى الانفجارية حبس ، ولكن هذا الحبس تتبعه حركة خفيفة من الفتح ، بحال يجعل الانفجارى ينتهى بالاحتكاكى ؛ فالانفجارى الاحتكاكى هو انفجارى فاشل (١) » .

كما يقول ماريوباى : « أما الأصوات المركبة affricates فهى أصوات لاتنتج عن طريق تغيير المخرج ، وإنما تعديل طريقة النطق ، فإذا حدث أن كان الانغلاق المتلوّ بانطلاق ، الموجود فى نطق ال (t) ــ إذا حدث أن كان هذا الانغلاق متبوعا بالصوت الاستمرارى الاحتكاكى ، فإن النتيجة ستكون ch الموجودة فى church . ويحدث الشيء نفسه مع ال (d) إذا أتبعت بالصوت الاحتكاكى المجهور (s) فى : measure حيث يكون الناتج صوت ال (J) الموجود فى jet.

ومن الممكن بالطريقة نفسها إنتاج أصوات مركبة مثل dz , ts اللذين تمثلهما بعض الأبجديات (وبخاصة الألمانية والإيطالية) برمز واحد هو (z)؛ وذلك عن طريق الجمع بين أسنانى انفجارى ، وصفيرى (sibilant) ضيق احتكاكى (spirant) من غير تعديل فى مخرج الصوت (٢) » .

هذا ، ومن الممكن كذلك ، أن يمر الهواء بمجراه دون احتكاك أو

---

(١) اللغة لفندريس ٥٠ .

(٢) أسس علم اللغة ٨٤ .

انحباس من أى نوع ؛ إما لأن مجراه فى الفم يتجنب المرور بنقطة السدّ أو التضييق ، كما فى صوت « اللام » ، أو لأن هذا التضييق غير ذى استقرار ، كما فى صوت « الراء » ، أو لأن الهواء لايمر بالفم ، وإنما يمر بالأنف ، كما فى صوتى « الميم » و « النون » . وهذا النوع من الأصوات ، نسميه بالأصوات المتوسطة ، لأنها ليست بالشديدة ولا بالرخوة . وهذه الأصوات الأربعة تسمى عند علماء الغرب بالأصوات المائعة أو السائلة : Liquida .

وهكذا نرى أن تغير شكل المخرج عند حدوث الصوت ، ينتج لنا أربعة أنواع من الأصوات ، وهى :

١ ــ شديد = انفجارى .

٢ ــ رخو = احتكاكى .

٣ ــ متوسط= مائع = سائل .

٤ ــ مزدوج= مزجى = مركب .

وهناك تقسيم آخر للأصوات ، لاينظر فيه إلى شكل المخرج ، وإنما ينظر فيه إلى اهتزاز الأوتار الصوتية أو عدم اهتزازها ، فالأصوات التى تهتز معها الأوتار الصوتية وتتذبذب ، يسميها علماء الأصوات « بالأصوات المجهورة » ، أما تلك التى لاتهتز معها الأوتار الصوتية ، فتسمى عندهم بالأصوات المهموسة.

ويذكر المحدثون من علماء الأصوات [١] ، أنه لاختبار جهر الصوت ، يمكن أن تجرى إحدى التجارب الآتية :

---

(١) انظر الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ٢٣

١ ــ حين تضع الإصبع فوق تفاحة آدم ، ثم تنطق بصوت من الأصوات وحده ، مستقلا عن غيره من الأصوات ، ولايتأتى هذا إلا بأن نشكل الصوت موضع التجربة بذلك الرمز الذى يسمى السكون ؛ مثل (بْ) . ويجب الاحتراز من الإتيان قبله بألف وصل ، كما كان يفعل القدماء من علماء الأصوات ؛ لأن الصوت حينئذ لايتحقق فيه الاستقلال ، الذى هو أساس التجربة الصحيحة . فإذا نطقنا بالصوت وحده ، وكان من المجهورات ، نشعر باهتزازات الوترين الصوتيين ، شعورا لايحتمل الشك .

٢ ــ وكذلك حين نضع أصابعنا فى آذاننا ، ثم ننطق بالصوت المجهور ، وهو وحده مستقلا عن غيره ، نحس برنّة الصوت فى رءوسنا . وفى ذلك يقول ڤندريس : « وإذا راعى الإنسان أن يسد أذنيه عند النطق ، فإنه عند مايصل إلى المجهورة ، يسمع الرنين الذى تنشره الذبذبات الحنجرية فى تجاويف الرأس [1] » .

٣ ــ والتجربة الثالثة ، هى أن يضع المرء كفه فوق جبهته فى أثناء نطقه بالصوت ، موضع الاختبار ، فيحس برنين الصوت ، وذلك الرنين هو أثر ذبذبة الوترين الصوتيين .

وهناك أخيرا تقسيم ثالث للأصوات ، ينظر إلى ارتفاع مؤخرة اللسان ، أو انخفاضها عند نطق الصوت ، ففى الحالة الأولى يسمى الصوت « مفخما » أو « مطبقا » ؛ نظراً لارتفاع مؤخرة اللسان تجاه الطبق ، وهو الجزء الرخو من سقف الحنك ، وفى الحالة الثانية ، يسمى الصوت « مرققا » أو « غير مطبق » .

---

(١) اللغة لفندريس ٥١ .

والأصوات المفخمة فى اللغة العربية ، هى : الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، لاغير ، فهذه الأصوات وإن كان مخرج الثلاثة الأولى منها ، من الأسنان واللثة ، ومخرج الرابع من بين الأسنان ، فإن مؤخرة اللسان تعمل معها كذلك ؛ فالتفخيم أو الإطباق وصف لصوت لاينطق فى الطبق ، وإنما ينطق من مكان آخر ، وتصحبه ظاهرة عضلية فى مؤخرة اللسان ، وذلك على العكس مما سبق أن عرفناه فى المخارج من الأصوات « الطبقية » ، وهى التى مخرجها من الطبق .

وقد أحسن الدكتور تمام حسّان ، حين فرق بين الإطباق والطبقية ، على النحو التالى ؛ فقال : « وليحذر القارىء من الخلط بين اصطلاحين ، يختلفان أكبر اختلاف ، وإن اتحدا فى كثير مما يخلق صلة بينهما ؛ ذلك هما : الطبقية أو النطق فى مخرج الطبق Velar Articulation والإطباق أو مايسمى فى علم الأصوات Velarization فالطبقية ارتفاع مؤخرة اللسان ، حتى يتصل بالطبق فيسدّ المجرى ، أو يضيقه تضييقا ، يؤدى إلى احتكاك الهواء بهما فى نقطة التقائهما ؛ فهى إذن حركة عضوية مقصودة لذاتها ، يبقى طرف اللسان معها فى وضع محايد . إما الإطباق فارتفاع مؤخرة اللسان فى اتجاه الطبق ، بحيث لايتصل به ، على حين يجرى النطق فى مخرج آخر غير الطبق ، يغلب أن يكون طرف اللسان أحد الأعضاء العاملة فيه [١] » .

★ ★ ★

(١) مناهج البحث فى اللغة ٨٩ .

تلك هى مخارج الأصوات وصفاتها المختلفة ، عند المحدثين من علماء الأصوات ، أما قدامى اللغويين من العرب ، فإن التقسيمات عندهم متداخلة ، والتعريفات ليست واضحة فى كثير من الأحيان ؛ فهم يرون مثلا أن الأصوات كلها تنشأ من أقصى الحلق ، ويسمون ذلك المكان « المقطع » ثم يتحدد الصوت عن طريق حصره فى مكان مامن الفم ، ويسمون ذلك المكان « المعتمد » ؛ قال ابن درستويه فى شيء من ذلك : « وليست الألف من الحروف الحلقية ، ولا لها معتمد فى حلق ولاغيره ، لأنها من الحروف الهاوية فى الجوف وإنما **مقطعها** فى أقصى الحلق ، والحروف كلها مقطعها هناك ، لأن الصوت كله إنما يخرج من الحلق ، ثم يحصره **المعتمد** ، فيصيره حرفا [1] » .

وإذا كان سيبويه يقسم الأصوات إلى مجهورة ومهموسة ؛ فإن تعريفه لها ، يثير كثيرا من الشبه ، التى لم تجد لها حلاً معقولا حتى الآن ؛ يقول [2] : « فالمجهورة حرف أُشْبع الاعتمادُ فى موضعه ، ومُنِع النفسُ أن يجرى معه ، حتى ينقضى الاعتماد عليه ، ويجرى الصوت ، فهذه حال المجهورة فى الحلق والفم ، إلا أن النون والميم ، قد يعتمد لهما فى الفم والخياشيم ، فتصير فيهما غُنّة . والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ، ثم تكلمت بهما ، لرأيت ذلك قد أخل بهما .

وأما المهموس فحرف أُضعف الاعتمادُ فى موضعه ، حتى جرى النفسُ معه ، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جرى النفس . ولو أردت ذلك فى المجهورة ، لم تقدر عليه » .

---

(١) شرح الفصيح لابن درستويه ١/١٠٨ .

(٢) كتاب سيبويه ٢/٤٠٥ .

وهكذا نجد أن تعريف سيبويه للمجهور والمهموس ، لا يقوم أساسا على اهتزاز الأوتار الصوتية فى الحنجرة ، أو عدم اهتزازها ، وإنما يقوم على جرى النفس أو عدم جريه ، وتلك الصفة من السمات الخاصة بشدة الصوت أو رخاوته .

وكان من الممكن القول بأن سيبويه يقصد بالمجهور والمهموس مانعنيه نحن بالشديد والرخو ، لولا أن سيبويه قسم الأصوات بعد ذلك إلى شديد ورخو ، وبيّن المراد بهما عنده . وعلى الرغم من ذلك فإن تعريفه للشديد يقرب جدا من تعريفه للمجهور ، كما يقرب تعريفه للرخو من تعريفه للمهموس كذلك ؛ يقول سيبويه : « ومن الحروف الشديد وهو الذى يمنع الصوت أن يجرى فيه ، وهو الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والتاء والدال والباء ، وذلك أنك لو قلت : الحَجْ ، ثم مددت صوتك لم يَجْرِ ذلك . ومنها الرخوة وهى : الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاى والسين والظاء والثاء والذال والفاء ، وذلك إذا قلت : الطَّسْ وانقضْ ، وأشباه ذلك ، أجريت فيه الصوت إن شئت [1] » .

فلا فرق بين المجهور والشديد فى كلام سيبويه « ويبدو أن بين التقسيمين السابقين تداخلا والتباسا ، وقد قالوا إن الفرق بينهما أن المجهور يمنع النفس ، والشديد يمنع الصوت ، ولكن هذا التفريق غير واضح وضوحا تاما [2] » .

وليست التعريفات عند ابن جنى فى كتابه : « سر صناعة الإعراب » بأوضح منها عند سيبويه [3] .

---

(١) كتاب سيبويه ٢/٤٠٦ .

(٢) فقه اللغة لمحمد المبارك ٣٦ .

(٣) انظر سر صناعة الإعراب ١/٦٩ – ٧٠ .

ومع ذلك فإن تعريف سيبويه لكل من الشديد والرخو ، يلفت نظرنا إلى شيء ، تنبه له علماء الغرب كذلك ، وهو أن الأصوات الشديدة أصوات وقتية آنية Momentanlaute لايمكن التغني بها وترديدها ؛ لأنها تنتهى بمجرد زوال العائق وخروج الهواء . أما الأصوات الرخوة فإنها أصوات استمرارية متمادّة Dauerlaute يمكن التغنى بها ، واستمرار نطقها بلا انقطاع ، ما دام فى الرئتين هواء .

* * *

الأصوات الصامتة والمتحركة

تنقسم الأصوات الكلامية عموما إلى قسمين كبيرين هما : الأصوات الصامتة ، وهى مايطلق عليها بالإنجليزية : (Consonants) والأصوات المتحركة ، أو أصوات العلة ويسميها الإنجليز (Vowels) ، وتعرّف الأخيرة بأنها الأصوات المجهورة التى يحدث فى تكوينها ، أن يندفع الهواء فى مجرى مستمر خلال الحلق والفم ، وخلال الأنف معهما أحيانا ، دون أن يكون هناك عائق ، يعترض مجرى الهواء اعتراضا تاما أو تضييق لمجرى الهواء ، من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعاً ؛ والأصوات المتحركة فى العربية الفصحى ، ماسماه نحاة العرب بالحركات ، وهى الفتحة والضمة والكسرة ، وكذلك حروف المدّ واللين ، كالألف فى « قال » ، والواو فى « يدعو » ، والياء فى « القاضى » . وسوف نتحدث فيما بعد ، عن كيفية حدوث الحركات بالتفصيل .

ومالم يصدق عليه تعريف الأصوات المتحركة ، هو الأصوات الصامتة التى نتناولها الآن بالوصف التفصيلى ، لمخارجها وصفاتها ، وبيان الخلاف بين القدماء والمحدثين فى تحديدها . وسوف نتناولها فى كلامنا ، حسب ترتيبها فى المخارج .

(١) الأصوات الشفوية :

وهى فى العربية : الباء والميم والواو (فى مثل : ولد) . أما الباء فهى صوت شديد مجهور مرقق ، يتم نطقه بضم الشفتين ، ورفع الطبق ، ليغلق مابين الحلق والتجويف الأنفى ، مع ذبذبة الأوتار الصوتية ، فإذا بقيت كل الأوضاع المذكورة كما هى ، فيما عدا الأوتار الصوتية ، التى لانجعلها تهتز ،

ينتج عندنا صوت آخر مهموس ، لاوجود له فى اللغة العربية ، ولكنه يوجد فى اللغات الأوربية ، وبعض اللغات السامية ، وهو صوت (P) فهو النظير المهموس للباء العربية.

أما الميم ، فإنه صوت أنفى مجهور ، ينطق بأن تنطبق الشفتان تماما ، فيحبس خلفهما الهواء ، ويخفض الطبق ، ليتمكن الهواء من الخروج عن طريق الأنف ، مع حدوث ذبذبة فى الأوتار الصوتية ، وبقاء اللسان فى وضع محايد .

وأما الواو ، فإننا نعنى بها هنا ضمن الأصوات الصامتة ، الواو فى مثل : « واحد » أو « ولد » ونحو ذلك . وهو صوت مجهور ، بينه وبين صوت الضمة الخالصة (وهو من الأصوات المتحركة) فرق بسيط جدا ، وسنعرف ذلك عند حديثنا على أصوات العلة .

(٢)الأصوات الشفوية الأسنانية :

وليس منها فى اللغة العربية ، إلا صوت الفاء . وهو صوت رخو مهموس مرقق ، ينطق بأن تتصل الشفة السفلى بالأسنان العليا ، اتصالا يسمح للهواء أن يمر بينهما فيحتك بهما ، مع رفع مؤخر الطبق ، لسد التجويف الأنفى ، وإهمال الأوتار الصوتية بجعلها لاتتذبذب .

ونظير هذا الصوت المجهور ، لاوجود له فى اللغة العربية ، وإنما يوجد فى اللغات الأوربية ، وهو صوت (v) فى الإنجليزية وصوت (w) فى الألمانية مثلا ؛ فهذا الصوت يشبه الفاء العربية فى كل شيء ، إلا أنه يختلف عنها فى أن الوترين الصوتين يهتزان معه ؛ ولذا فإنه صوت مجهور ، فى حين أن الفاء العربية صوت مهموس .

ونطق الفاء على هذا النحو ، من الشفة والأسنان ، ليس من طبيعة كل اَللغات البشرية ؛ « إذ ينطق اليابانيون صوت الفاء بطريقة تجعلها شفوية صرفة مهموسة احتكاكية ، عن طريق إرسال الهواء من بين الشفتين شبه المفتوحتين ، كما يحدث حينما نحاول إطفاء عود كبريت . أما الأسبانيون فينطقون ال (ڤ) بنفس الطريقة ، مع تذبذب الوترين الصوتيين ، ليحدث الجهر [١] » .

(٣) الأصوات الأسنانية :

وهى : الثاء والذال والظاء . ولسنا ندرى لماذا عدّ الخليل بن أحمد هذه الأصوات الثلاثة لثوية ، وقال : « لأن مبدأها من اللثة [٢] » ، كما تابعه على ذلك بعض النحاة ، كابن يعيش الذى يقول : « والظاء والذال والثاء من حيز واحد ، وهو ما بين طرف اللسان **وأصول** الثنايا ، وبعضها أرفع من بعض ، وهى لثوية ؛ لأن مبدأها من اللثة [٣] » ، مع أن النطق المتواتر لها فى العربية الفصحى ، هو النطق الأسنانى ، وقد روى ذلك سيبويه فقال : « ومابين طرف اللسان **وأطراف** الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء [٤] » .

أما الثاء : فهو صوت رخو مهموس مرقق ، ينطق بأن يوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا ، بحيث يكون هناك منفذ ضيق للهواء ، ويكون

---

(١) أسس علم اللغة لماريو پاى ٨٣ .

(٢) العين للخليل بن أحمد ١/٦٥ .

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ١٠/١٢٥ .

(٤) كتاب سيبويه ٢/٤٠٥ .

معظم جسم اللسان مستويا ، ويرفع الطبق ليسد المجرى الأنفى ، بأن يلتصق بالحائط الخلفى للحلق ، ويتم ذلك كله ، مع عدم وجود ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

وليس هناك نظير مفخم لهذا الصوت فى اللغة العربية . وقد غلط الدكتور السعران ، حين قال عن صوت الظاء « إنه مطبق الثاء ، أى أن بين هذا الصوت (الظاء) وبين الثاء ، مابين الصاد والسين [١] » .

وصوت الثاء من الأصوات التى فقدت فى اللهجة العامية ، واستعيض عنه فيها بالتاء ، نحو : ثقيل > تقيل ، أو بالسين فى الكلمات الثقافية ؛ نحو : ثابت > سابت .

وأما الذال : فهو نظير الثاء المجهور ، أى أنه صوت رخو مجهور مرقق ، يتم نطقه بنفس الطريقة ، التى ينطق بها صوت الثاء ، مع فارق واحد ؛ هو أن الأوتار الصوتية تهتز عند نطق الذال ، ولاتهتز عند نطق الثاء .

وقد ضاع صوت الذال كذلك ، فى اللهجة العامية المصرية ، وحل محله الدال ؛ نحو : ذهب > دهب ؛ ذَيْل > دِيل ، أو الزاى ؛ نحو : ذِكْر > زِكْر ؛ ذُلّ > زُلّ .

وأما الظاء : فإنه نظير الذال المفخم ، أى أنه صوت رخو مجهور مفخم ، ينطق بنفس الطريقة ، التى ينطق بها صوت الذال ، مع فارق واحد ، وهو أن مؤخرة اللسان ترتفع نحو الطبق مع الظاء ، ولاترتفع مع الذال . وسيبويه نفسه يقول : « ولولا الإطباق فى الظاء لكانت ذالا [٢] » .

---

(١) علم اللغة للدكتور محمود السعران ١٩١ .

(٢) كتاب سيبويه ٢/٤٠٦ .

وقد فقدت الظاء من اللهجة العامية المصرية كذلك ، وحل محلها الضاد ؛ مثل : ظِلّ > ضِل ؛ أو الزاى المفخمة ؛ نحو : ظُلْم > ژلْم ، وغير ذلك .

(٤) الأصوات الأسنانية اللثوية :

يعدّ هذا المخرج أغنى المخارج بالأصوات فى العربية ؛ ففيه تنطق الأصوات التالية : الدال ، والضاد ، والتاء ، والطاء ، والزاى ، والسين ، والصاد .

أما الدال : فإنها صوت شديد مجهور مرقق ، ينطق بأن تلتصق مقدمة اللسان باللثة والأسنان العليا ، التصاقا يمنع مرور الهواء ورفع الطبق ، ليسد التجويف الأنفى ، مع ذبذبة الأوتار الصوتية ، وبقاء مؤخرة اللسان فى وضع أفقى ، ثم يزال السدّ بانخفاض مقدمة اللسان ، فيندفع الهواء المحبوس إلى الخارج .

وأما الضاد : فإنها حسب نطقنا لها الآن ، تعدّ المقابل المفخم للدال ، أى أنها صوت شديد مجهور مفخم ، ينطق بنفس الطريقة ، التى تنطق بها الدال ، مع فارق واحد ، هو ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق ، فى النطق بصوت الضاد . وعلى هذا فالضاد العربية هى المقابل المطبق للدال .

وأما التاء : فهى نظير الدال المهموس ، أى أنها صوت شديد مهموس مرقق ، ينطق بنفس الطريقة ، التى يتم بها نطق صوت الدال ، مع فارق واحد ، هو عدم إعمال الأوتار الصوتية فى التاء ، وتركها تهتز وتتذبذب مع صوت الدال .

وأما الطاء : فهى كما ينطق بها اليوم ، تقابل التاء فى الترقيق والتفخيم ، أى أنها صوت شديد مهموس مفخم ، ولا فرق بينهما إلا فى أن

مؤخرة اللسان ، ترتفع نحو الطبق عند نطق الطاء ، ولا ترتفع نحوه فى نطق التاء .

وأما الزاى : فهو صوت رخو مجهور مرقق ، يتم نطقه بوضع طرف اللسان فى اتجاه الأسنان ، ومقدمته مقابل اللثة العليا ، مع رفع الطبق تجاه الحائط الخلفى للحلق ، فيسد المجرى الأنفى ، ويتم كل هذا مع وجود ذبذبة فى الأوتار الصوتية . ونظير الزاى المفخم ، لا وجود له فى العربية الفصحى ، وإن وجد فى العامية ، فى ذلك الصوت الذى يحل محل الظاء العربية أحيانا ، فى مثل : ظُلْم>زُلْم ، ونحوه .

وأما السين : فإنها نظير الزاى المهموس ، وهذا معناه أنه صوت رخو مهموس مرقق ، لايفترق عن الزاى فى نطقه ، إلا فى أن الأوتار الصوتية تهتز مع الزاى ،ولا تهتز معه .

وأما الصاد : فإنها نظير السين المفخم . وهذا معناه أنه صوت رخو مهموس مفخم ، ينطق كما ينطق السين ، مع فارق واحد ، هو أن مؤخرة اللسان ترتفع معه ناحية الطبق .

(٥) الأصوات اللثوية :

وهى اللام والراء والنون . **أما اللام** : فإنها صوت جانبى مجهور ، ينطق بأن يتصل طرف اللسان باللثة ويرتفع الطبق ، فيسد المجرى الأنفى ، عن طريق اتصاله بالجدار الخلفى للحلق ، هذا مع حدوث ذبذبة فى الأوتار الصوتية .

ومعنى أنه صوت جانبى ، أن أحد جانبى اللسان ، أو كليهما

يسمح للهواء الخارج من الرئتين بالمرور بينه وبين الأضراس ، فى الوقت الذى لايمكنه فيه المرور من وسط الفم ، لحيلولة طرف اللسان المتصل باللثة دون ذلك .

والأصل فى صوت اللام الترقيق ، إلا أنه ــ كما يذكر علماء القراءات ــ يفخم فى لفظ « الله » إذا لم يسبقه صوت من أصوات الكسرة ، كما أنهم يجيزون تفخيمه ، إذا تلاه صوت من أصوات الفتحة ، وسبقه أحد الأصوات المطبقة ؛ مثل : الصلاة ، والطلاق ، والظلام ، والضلال .

والفرق بين اللام المرققة والمفخمة ، يوجد كما هو معروف ، فى وضع مؤخرة اللسان بالنسبة للاثنين ؛ إذ إنها ترتفع ناحية الطبق ، فى حالة اللام المفخمة ، وتنخفض إلى قاع الفم فى حالة اللام المرققة ؛ فالفرق بين نطق اللامين هو نفس الفرق بين صوتى السين والصاد .

وإذا كان الخط العربى ، لم يرمز لكل لام من اللامين برمز يختلف عن الآخر ، فما ذلك إلا لأنها عبارة عن عائلة صوتية (فونيم) واحدة ، لايتعدد بتعدّد أفرادها معنى الكلمة . وسنشرح نظرية « الفونيم » هذه فيما بعد .

وأما الراء : فإنها صوت تكرارى مجهور ، يتم نطقه بأن يترك اللسان مسترخيا ، فى طريق الهواء الخارج من الرئتين ، فيرفرف اللسان ، ويضرب طرفه فى اللثة ضربات متكررة . وهذا معنى وصف الراء بأنه صوت تكرارى ، هذا بالإضافة إلى حدوث ذبذبة فى الأوتار الصوتية ، عند نطق هذا الصوت .

ويلاحظ أن الأطفال ، فى بداية نموهم اللغوى ، لايقدرون على نطق الراء ؛ بسبب ضعف العضلات المحركة لمقدمة اللسان عندهم ، وقصورها فى

هذه السن المبكرة ، عن إحداث الاهتزازات السريعة ، المكررة لهذه المقدمة .

غير أنه سرعان مايتقن الطفل نطق الراء ، بالتقليد وكثرة التمرين . وقد يصاب الطفل بلثغة فى الراء ، لسبب أو لآخر ، فلا يقدر على نطقها طيلة حياته نطقا صحيحا .

وقد عرف قدماء النحاة العرب ، بعض الطرق البدائية للتغلب على لثغة الراء ؛ فقد رووا لنا أن عبيد الله بن محمد بن جرو الأسدى النحوى العروضى « كان يلثغ بالراء غيناً ، فقال له أبو على الفارسى : ضع ذبابة القلم تحت لسانك ؛ لتدفعه بها ، وأكثر مع ذلك ترديد اللفظ بالراء ، ففعل ، فاستقام له إخراج الراء فى مخرجها [١] » .

ويذكر القراء أن الراء ترقق ، إذا كسرت ، أو كانت ساكنة بعد كسر ؛ مثل كلمة : رِزق ، ورِجْس ، وحِرْمان . وذلك على العكس من : يَرْجون ويحرُم . والفرق بين الراءين يشبه الفرق بين اللامين المرققة والمفخمة ، فيما سبق تماما .

أما النون : فهو صوت أنفى مجهور ، يتم نطقه ، بجعل طرف اللسان متصلا باللثة ، مع خفض الطبق ، ليفتح المجرى الأنفى ، وإحداث ذبذبة فى الأوتار الصوتية . ومعنى الأنفية فى هذا الصوت ، أن الهواء الخارج من الرئتين ، يمر فى التجويف الأنفى ، محدثا فى مروره نوعاً من الحفيف ، وهى بهذا الوصف كالميم تماما ، غير أن الفرق بينهما أن طرف اللسان مع النون يلتقى باللثة ، فيمتنع مرور الهواء عن طريق الفم ، بعكس الميم ، فإن الذى يمنع مرور الهواء من الفم معهما ، هما الشفتان .

---

(١) انظر : بغية الوعاة ١٢٧/٢

ويذكر الدكتور تمام حسان أمثلة لأنواع أخرى من صوت النون ، تبعا لوقوعه قبل الأصوات الأخرى ، فهناك نون أسنانية ، وهى التى تقع قبل الذال ، أو الثاء ، أو الظاء فى مثل : إنْ ذهب ، وإنْ ثاب ، وإنْ ظلم . وهناك نون أسنانية لثوية ، وهى التى تقع قبل الأصوات الأسنانية اللثوية ، التى وصفناها من قبل ؛ مثل : إنْ دأب ، وإنْ ضرب ، وإنْ تبع ، وإنْ طلب ، وإنْ زرع ، وإنْ سكت ، وإنْ صلح . كما أن هناك نونا غارية ، وهى التى تقع قبل الشين أو الجيم أو الياء ؛ نحو : مَنْ شاء ، ومَنْ جاء ، ومَنْ يكن . وكذلك هناك نون طبقية تأتى قبل الكاف ، فى مثل : إنْ كان ، ولكنها لاتأتى قبل الغين والخاء ، وهما من أصوات الطبق أيضا ، بل تنطق النون قبل هذين الصوتين فى مخرجها الأصلى وهو اللثة ؛ فيقال : إنْ غاب ، وإنْ خاف . وهناك أخيرا نون لهوية ، تأتى قبل صوت القاف فى مثل : إنْ قال (١)

ونحب أن ننبه هنا ، إلى أن هذه الأصوات جميعها للنون ، ليست إلا مظاهر مختلفة « لفونيم » واحد .وسوف نشرح ذلك فيما بعد .

(٦) الأصوات الغارية :

وهى فى العربية الفصحى : الشين والجيم والياء . **أما الشين** فهى صوت رخو مهموس مرقق ، ينطق برفع مقدمة اللسان تجاه الغار ، ورفع الطبق ليسد المجرى الأنفى ، بالتصاقه بالجدار الخلفى للحلق ، ويتم ذلك كله ، دون إحداث ذبذبات فى الأوتار الصوتية ، فإذا مر الهواء فى الفراغ

---

(١) انظر مناهج البحث فى اللغة ١٠٦ – ١٠٧ .

الضيق ، بين مقدمة اللسان والغار ، سبب نوعا من الاحتكاك والصفير ، وهو صوت الشين .

وليس فى العربية نظير مجهور للشين ، إلا أنها قد تجهر بتأثير الأصوات المجهورة ، المجاورة لها ؛ مثل الشين فى كلمة : « مشغول » . وهذه الشين المجهورة ، توجد فى نطق الشوام للجيم العربية . ونحن نميز هذه الشين المجهورة بالرمز (چ) ونطقها يماثل نطق الصوت الأخير فى الكلمة الفرنسية : (rouge) = رُوچ .

أما صوت الجيم : كما نسمعها الآن من مجيدى القراء ، فإنها صوت مجهور يجمع بين الشدة والرخاوة ، وهو ماسبق أن سميناه بالصوت المزدوج . ويتم نطقه بأن يرتفع مقدم اللسان ، فى اتجاه الغار فيلتصق به ، وبذلك يحجز وراءه الهواء الخارج من الرئتين ، ثم لايزول هذا الحاجز فجأة ، كما فى الأصوات الشديدة ، وإنما يتم انفصال العضوين ببطء ، فيترتب على ذلك أن يحتك الهواء الخارج بالعضوين المتباعدين ، احتكاكا شبيها بالاحتكاك الذى نسمع صوته ، مع الشين المجهورة (چ) ؛ وعلى ذلك تعدّ هذه الجيم فى الحقيقة : صوت دال مغوّر ، يعقبه صوت شين مجهور .

وهذه الجيم بهذا الوصف ، لاوجود لها فى اللهجات الحالية ، إلا فى لهجة من لهجات صعيد مصر ، وبعض أماكن الجزيرة العربية . كما أصبحت كافا مجهورة تنطق من الطبق ، مع إعمال الأوتار الصوتية فى نطق القاهريين ، أى أن مخرجها انتقل إلى الخلف . وهى فى لهجة أهل سوريا ، عبارة عن شين مجهورة ، كما سبق أن ذكرنا . كما تطورت فى نطق بعض أهالى الصعيد ، إلى دال أسنانية لثوية ، بانتقال مخرجها إلى الأمام .

ويبدو أن بعض قبيلة تميم ، كانوا ينطقون شينا مهموسة ، بدلا من

الجيم ؛ قال الجوهرى : « وأشاءه لغة فى أجاءه ، أى ألجأه . وتميم تقول : شرٌّ مايُشيِئُك إلى مُخّة عُرقوب ، بمعنى : يجيئك ؛ قال زهير بن ذؤيب العدوى :

فيـال تميم صابِـــروا قد أُشئتم إليه وكونوا كالمحرّبةِ البُسّلِ [١] »

كما يقول ابن جنى : « قال الراجز :

إذ ذاك إذ حبْلُ الوِصال مُدْمَشُ

أى : مُدْمَج ، فالشين بدل من الجيم »[٢] .

وعدّ أبو بكر الزُّبيدى ، هذه الظاهرة فى الأندلس ، من لحن العامة ؛ فقال : «اشترَّت الدابة خطأ ، والصواب : اجترَّت [٣] » .

والظاهر أن صوت الجيم المزدوج هذا ، ليس أصلياً فى اللغة العربية القديمة ، وإنما هو متطور عن جيم تشبه نطق المصريين لهذا الصوت . والدليل على ذلك مقارنة اللغات السامية الأخرى ، كالعبرية والسريانية والحبشية ، فصوت الجيم فى هذه اللغات ، صوت شديد يشبه نطق المصريين .

ويقول المستشرق « إنّو ليتمان » Enno Littmann «نعرف أن نطق هذا الحرف الأصلى ، كان كما هو الآن فى مصر ، وكما كان ويكون فى اللغات السامية الباقية . مثلا : كلمة : « جمل » فى العبرية : gāmāl وفى السريانية : gamlā وفى الحبشية : gamal . وتاريخ هذا النطق كما يأتى : فى الابتداء تغيرّ نطق : gīm فصار : gˇīm قبل حركة الكسرة فقط ، ثم لفظت عند أهل الحجاز gˇīm إذا

---

(١) الصحاح للجوهرى (شيأ) ٥٩/١

(٢) سر صناعة الإعراب ٢١٥/١

(٣) لحن العوام ٣٠٣ وانظر أمثلة أخرى لنطق الجيم شينا فى : الإبدال لأبى الطيب اللغوى ٢٢٦/١ – ٢٢٨ ولنطقها دالا فيه ٢١٦/٢ – ٢١٩

وقعت قبل كل الحركات ، أى الفتحة والضمة والكسرة ، وكان هذا النطق نطق القرشيين فى زمان النبى (ﷺ) فصار نطق القرآن الشريف [١] » .

أما صوت الياء :فإننا نعنى به هنا ، ضمن الأصوات الصامتة ، الياء التى فى مثل : « يقول » و « ينصر » وما أشبه ذلك ، وهو صوت مجهور ، بينه وبين صوت الكسرة الخالصة (وهو من أصوات العلة أو الحركات) فرق يسير جدا . وسنعرف العلاقة بينهما بالتفصيل ، عند حديثنا على أصوات العلة .

(٧) الأصوات الطبقية :

وهى فى العربية الفصحى : الكاف والغين والخاء . أما **الكاف** : فإنه صوت شديد مهموس مرقق ، يتم نطقه برفع مؤخرة اللسان فى اتجاه الطبق ، وإلصاقه به ، وإلصاق الطبق بالحائط الخلفى للحلق ، ليسد المجرى الأنفى ، مع إهمال الأوتار الصوتية وعدم اهتزازها .

وليس فى العربية الفصحى نظير مجهور لهذا الصوت ، وإنما نظيره المجهور هو الجيم القاهرية ، التى نرمز لها بالرمز : (گ) المستعار من الخط الفارسى ؛ لنفرق بينها وبين الجيم الفصيحة . وهذه الجيم القاهرية ، نسمعها كذلك فى بعض اللغات السامية ، كالعبرية والسريانية والحبشية ، فهو صوت سامى قديم ، وهو لايفترق عن الكاف فى شىء ، سوى أن الجيم القاهرية مجهورة والكاف مهموسة .

---

(١) بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى ، لإنو ليتمان ، بحث فى مجلة كلية الآداب – المجلد العاشر / الجزء الأول والثانى سنة ١٩٤٨ م

وأما الغين : فهو صوت رخو مجهور مرقق ،يتم نطقه برفع مؤخرة اللسان ، حتى يتصل بالطبق ، اتصالا يسمح للهواء بالمرور ، فيحتك باللسان والطبق ، فى نقطة تلاقيهما ، وفى نفس الوقت يرتفع الطبق ، ليسد المجرى الأنفى ، مع حدوث ذبذبات فى الأوتار الصوتية .

وقد عدّ سيبويه وغيره من القدماء ، صوت الغين من أصوات الحلق . ويقول فى ذلك الدكتور تمام : « يستطيع الباحث أن يقف منهم أحد موقفين ، ينبنى كل منهما على طريقة فهمهم للاصطلاح (حلق) ؛ فإذا كان مفهوم هذا الاصطلاح فى أذهانهم مطابقا لما نفهمه الآن ، فهم ولاشك مخطئون فى القول بأن صوت الغين يخرج من الحلق . أما إذا كان فهمهم للاصطلاح ، أوسع من فهمنا له ، حتى ليشمل مابين مؤخر اللسان والطبق ، فلا داعى للقول بخطئهم [1] » .

وأما الخاء : فإنها النظير المهموس للغين ، وهذا معناه أنها صوت رخو مهموس مرقق ، لايفترق فى طريقة نطقه عن الغين ، إلا فى أن الأوتار الصوتية ، لاتهتز معه، وتهتز مع الغين .

(٨) الأصوات اللهوية :

لايوجد منها فى العربية الفصحى ، إلا صوت القاف . وهو كما ينطق به مجيدو القراءات فى مصر ، صوت شديد مهموس ، ينطق برفع مؤخر الطبق ، حتى يلتصق بالجدار الخلفى للحلق ، ليسد المجرى الأنفى ، ورفع مؤخر اللسان حتى يتصل باللهاة والجدار الخلفى للحلق ، مع عدم حدوث

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ١٠١ .

ذبذبة فى الأوتار الصوتية ، فينحبس الهواء ثم ينفجر بعد انفصال العضوين المتصلين . وعلى ذلك فلا فرق بين القاف والكاف ، إلا فى أن القاف أعمق قليلا فى مخرجها .

(٩) الأصوات الحلقية :

وهى فى اللغة العربية : العين والحاء . **أما العين** فهى صوت رخو مجهور مرقق ، يتم نطقه بتضييق الحلق عند لسان المزمار ، ونتوء لسان المزمار إلى الخلف ، حتى ليكاد يتصل بالحائط الخلفى للحلق ، وفى الوقت نفسه يرتفع الطبق ، ليسد المجرى الأنفى ، وتهتز الأوتار الصوتية .

وأما الحاء : فهى النظير المهموس للعين . وهذا معناه أنه صوت رخو مهموس مرقق ، يفترق عن العين ، فى أن الأوتار الصوتية ، لاتتذبذب معه ، بخلافها مع العين .

وقد فطن ابن جنى إلى هذا الفرق بين الحاء والعين ؛ فقال : « ولولابحّة فى الحاء لكانت عينا ... ولأجل البحّة التى فى الحاء ، مايكررها الشارق فى تنحنحه . وحُكى أن رجلا من العرب ، بايع أن يشرب علبة لبن ولايتنحنح ، فشرب بعضه ، فلما كظّه الأمر قال : كبش أملح ، فقيل له : ماهذا ؟ تنحنحت ! فقال : من تنحنح فلا أفلح ، وكرّر الحاء مستروحا إليها ، لما فيها من البحّة ، التى يجرى معها النفس وليست كالعين التى تحصر النفس [١] » .

---

(١) سر صناعة الإعراب ٢/٢٤٦ .

الأصوات الحنجرية :

وهى فى اللغة العربية صوتا الهمزة والهاء . **أما الهمزة** فهى صوت شديد مهموس مرقق ، ينطق بإغلاق الأوتار الصوتية إغلاقا تاما ، يمنع مرور الهواء ، فيحتبس خلفهما ثم تفتح فجأة ، فينطلق الهواء متفجرا .

ويأتى حكمنا بهمس هذا الصوت ، من ناحية أن الأوتار الصوتية معه ، تغلق تماما ، فلا يحدث فيها ذلك الاهتزاز اللازم لصفة الجهر .

ومع ذلك نجد سيبويه وغيره من القدماء ، يعدّون هذا الصوت مجهورا ، وهو « أمر مستحيل استحالة مادية ، ما دامت الأوتار الصوتية مقفلة فى أثناء نطقه . ولكن هذا الصوت قد يأتى مسهلا ، أى أن إقفال الأوتار الصوتية ربما لايكون تاما حين النطق به ، بل قد يكون إقفاله تقريبيا .
وفى حالة التسهيل هذه يحدث الجهر ، ولكن المجهور حينئذ ليس وقفة حنجرية (همزة) ، بل تضييق حنجرى أشبه بأصوات العلة منه بهذا الصوت [(١)] » .

والهمزة عند الدكتور أنيس [(٢)] ، صوت لاهو بالمجهور ولا بالمهموس .
وهذا الرأى عند الدكتور كمال بشر [(٣)] هو الرأى الراجح ، إذ يقول : « والقول بأن الهمزة صوت لا بالمهموس ولا بالمجهور ، هو الرأى الراجح ؛ إذ إن وضع الأوتار الصوتية حال النطق بها ، لايسمح بالقول بوجود مايسمى بالجهر ، أو مايسمى بالهمس » .

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ٩٧ .

(٢) الأصوات اللغوية ٨٣ .

(٣) علم اللغة : الأصوات ١٤٣.

وهذا رأى غريب ، لم يرض عنه جمهرة الدارسين للأصوات ؛ يقول الدكتور أيوب : « يقرر الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه : الأصوات اللغوية ، أن الهمزة صوت لاهو بالمجهور ولا هو بالمهموس . وبالرجوع لتعريف الدكتور أنيس للجهر والهمس فى الكتاب نفسه ، نجد أنه يصف الجهر بأنه صوت موسيقى ، يحدث من اهتزاز الوترين الصوتيين ، اهتزازا منظما . ويصف الصوت المهموس ، بأنه الصوت الذى لايهتز معه الوتران الصوتيان . ومعنى هذا أن الأوتار الصوتية ، إما أن تتذبذب فيحدث الجهر ، أو لاتتذبذب فيحدث الهمس ، ولا ثالث لهاتين الإمكانيتين . ومن ثم فإن وصف الدكتور أنيس للهمزة ، بأنها ليست مجهورة ولا مهموسة ، وصف غير دقيق (١) » .

وقد كانت « قريش » وأهل الحجاز لايهمزون فى كلامهم ، وذلك على العكس من القبائل النجدية ، كقبيلة « تميم » ؛ فقد « قال أبو زيد : أهل الحجاز وهذيل ، وأهل مكة والمدينة لاينبرون . وقف عليها عيسى بن عمر ، فقال : ماآخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا . قال : وقال أبو عمر الهذلى : قد توضّيت ، فلم يهمز وحولها ياء ، وكذلك ماأشبه هذا من باب الهمز (٢) » .

والنبر هو الهمز فى اصطلاح القدماء ؛ قال ابن منظور : « والنبر همز الحرف . ولم تكن قريش تهمز فى كلامها . ولما حجّ المهدى قدم الكسائى يصلى بالمدينة ، فهمز فأنكر أهل المدينة عليه ، وقالوا : تنبر فى مسجد رسول الله ﷺ بالقرآن ؟! (٣) » .

---

(١) أصوات اللغة ١٨٣ هامش ٢ .

(٢) انظر مقدمة لسان العرب لابن منظور ١/١٤ .

(٣) لسان العرب (نبر) ٧/٤٠ وانظر الخبر فى كلام عن الهمز كذلك فى غريب الحديث لابن قتيبة ٢/٦٣٣ .

كما قال الفراء : « وقوله : (تأكل منسأته) ، همزها عاصم والأعمش ، ولم يهمزها أهل الحجاز ولا الحسن ، ولعلهم أرادوا لغة قريش ؛ فإنهم يتركون الهمز [١] » .

وقال ابن عبد البر فى التمهيد : قول من قال : نزل القرآن بلغة قريش ، معناه عندى : فى الأغلب ؛ لأن لغة غير قريش موجودة فى جميع القرآن ، من تحقيق الهمز ونحوه ، وقريش لاتهمز [٢] .

وقال صاحب كتاب : المبانى فى نظم المعانى : « فأما الهمز ، فإن من العرب من يستعمله ، وهم تميم ومن يوافقها فى ذلك ، ومنهم من يقلّ استعمالهم له ، وهم هذيل وأهل الحجاز [٣] » .

وهذا كله معناه أن لهجة الحجازيين الأصلية تسهيل الهمز . أما قول عيسى بن عمر الثقفى ــ فيما تقدم : « فإذا اضطروا نبروا » فيمكن أن يكون معناه أن الحجازيين ، إذا اصطنعوا اللغة المشتركة التى أخذت الهمز من تميم ، فإنهم يحققون الهمز فى هذه الحالة ، كما يمكن أن يكون عيسى بن عمر ، قد قصد بذلك الهمزة التى توجد فى أول الكلمة ، إذا كان الحجازيون يحققونها فعلا ، ولم تكن قد تحولت كذلك فى نطقهم إلى صوت من أصوات العلة ، أو تضييق حنجرى ، شبيه بأصوات العلة .

أما الهاء : فإنها صوت رخو مهموس مرقق ، يتم نطقه بأن يحتك الهواء الخارج من الرئتين ، بمنطقة الأوتار الصوتية دون أن تحدث ذبذبة لهذه

---

(١) معانى القرآن للفراء ٢/٣٥٦ .

(٢) انظر : البرهان للزركشى ١/٢٨٤ .

(٣) انظر : مقدمتان فى علوم القرآن ٢٢٦ .

الأوتار ، ويرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفى ، ويتخذ الفم عند النطق بالهاء نفس الوضع ، الذى يتخذه عند النطق بالحركات (وسنتحدث عن ذلك فيما بعد) . ولولا هذا الحفيف الذى يحدث بمنطقة الأوتار الصوتية ، لما سمع غير صوت الزفير العادى ، كما أن انعدام الذبذبات هنا ، هو الذى يميز الهاء عن الحركات .

ويرى الدكتور تمام أن صوت الهاء مجهور « يتم النطق به بتضييق الأوتار الصوتية ، إلى مرحلة فى منتصف الطريق بين الهمس والجهر ، حتى إذا مرّ هواء الرئتين بينهما ، كان لاحتكاكه بهما أثر صوتى لاهو بالحسّ (يقصد جرس الصوت الذى يتردد صداه فى حجرات الرنين فى الجهاز النطقى ، وهى حالة الجهر) ، ولا هو بالتنفس .. هذا الأثر الصوتى فيه بعض الذبذبة ، وهو مايجعلنا ننظر إلى هذا الصوت باعتباره مجهورا [١] » .

كما يرى الدكتور أنيس ، أن « الهاء عادة صوت مهموس يجهر به فى بعض الظروف اللغوية الخاصة [٢] » .

ويظهر أنه التبس عليهما صوت الهاء بصوت الحركات ، فى الأمثلة التى استنبطا منها هذا الحكم . والحركات مجهورة دائما ، كما سنرى فيما بعد .

وبوصفنا لصوت الهاء ، ننتهى من وصف الأصوات الصامتة فى العربية الفصحى . ويهمنا هنا أن نقول مع « ماريوباى » إن « عدد الأصوات التى يمكن لجهاز النطق الإنسانى أن ينتجها ، لم يمكن حصرها أو تقديرها على وجه الدقة حتى الآن . وهذا يرجع إلى أن أقل انحراف فى المخرج ، يمكن

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ١٠٣ .

(٢) الأصوات اللغوية ٨٢ .

أن يعطى نتائج مختلفة ، تدركها الأجهزة الحساسة ، مثل السبكتروجراف أو مسجل تردد الموجات الصوتية ، إن لم تدركها الأذن . وأيضا فإن كثيرا من الأصوات الإنسانية ، التى لا تعدّ أصواتا كلامية فى بعض اللغات ، تعدّ بكل تأكيد أصواتا كلامية فى بعضها الآخر [١] » .

وفيما يلى جدول لمخارج الأصوات وصفاتها ، على النحو الذى شرحناه :

(١) أسس علم اللغة ٤٥ .

مخارج الأصوات	صفات الأصوات												
	شديد				رخو				مزدوج	متوسط			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مجهور			
	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم		جانبي	تكراري	أنفي	شبه الحركة
شفوي	ب		(پ)									م	و
شفوي أسناني					(ڤ)		ف						
أسناني					ذ	ظ	ث						
أسناني لثوي	د	ض	ت	ط	ز	(ژ)	س	ص					
لثوي										ل	ر	ن	
غاري					(چ)		ش		ج				ي
طبقي	(گ)		ك		غ		خ						
لهوي			ق										
حلقي					ع		ح						
حنجري			ء				هـ						

بيننا وبين القدماء
فى وصف بعض الأصوات

حين نطالع كتب القدماء من علماء العربية فى وصف أصوات اللغة الفصحى ، نجد خلافا بيننا وبينهم فى وصف بعض هذه الأصوات .

ويرجع ذلك فى نظرنا إلى أحد أمرين ، أولهما: أن نطق العربية الفصحى أصابه التطور فاختلف نطق بعض الأصوات فى زماننا على مستوى النطق الفصيح ، عنه فى زمان أولئك القدماء ، الذين وصفوا ماسمعوه ، وأصابوا فى هذا الوصف .

والثانى أن يكون نطق الفصحى فى زماننا ،هو بعينه نطق العرب القدماء ، لم يصبه تطور ، ولم يحدث فيه تغيير ، غير أن القدماء وهموا فى وصف هذا النطق .

ونحن نميل فى الأعم الأغلب ، إلى تصديق القدماء فى أوصافهم ، ونؤمن بالتطور اللغوى الذى أصاب بعض أصوات الفصحى ، ولا نلجأ إلى تخطئة القدماء فى وصفهم إلا إذا أعيتنا الحيل فى القول بتطور هذا الصوت أو ذاك .

وينحصر الخلاف بيننا وبين القدماء فى وصف خمسة أصوات وهى : الضاد والطاء والجيم والقاف والعين . وفيما يلى تفصيل القول فى ذلك :

(١) الضاد

عرفنا من قبل أن الضاد حسب نطقنا لها الآن ، تعدّ المقابل المفخم للدال ، أى أنها صوت شديد مجهور مفخم ، ينطق بنفس الطريقة ، التى تنطق بها الدال ، مع فارق واحد ، هو ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق ، فى النطق بصوت الضاد . وعلى هذا فالضاد العربية هى المقابل المطبق للدال .

غير أننا إذا نظرنا إلى وصف القدماء لها ، من النحويين واللغويين وعلماء القراءات ، عرفنا أن الضاد القديمة ، تختلف عن الضاد التى ننطقها الآن ، فى أمرين جوهريين :

أولهما : أن الضاد القديمة ليس مخرجها الأسنان واللثة ، بل حافة اللسان أو جانبه .

وثانيهما : أنها لم تكن انفجارية (شديدة) ، بل كانت صوتا احتكاكيا (رخوا) .

فقد عدّها الخليل بن أحمد ، فى حيز الجيم والشين ، وهما من الأصوات الغارية ، فقال وهو يذكر أحياز الحروف : « ثم الجيم والشين والضاد فى حيز واحد [١] » .

كما يقول سيبويه : « ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد [٢] » . ويوضح ذلك « المبرد » فيقول : « الضاد ومخرجها من الشدق ، فبعض الناس تجرى له فى الأيمن ، وبعضهم تجرى له فى الأيسر [٣] » . كما يقول ابن جنى : « ومن أول حافة اللسان ومايليها من الأضراس ، مخرج الضاد ، إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن ، وإن شئت من الجانب الأيسر [٤] » .

يتضح من هذه النصوص ، الفرق الأول بين الضاد القديمة والضاد

---

(١) كتاب العين للخليل بن أحمد ٦٤/١ .
(٢) كتاب سيبويه ٤٠٥/٢ .
(٣) المقتضب للمبرد ١٩٣/١ .
(٤) سر صناعة الإعراب ٥٢/١ .

التى ننطقها الآن ، وأنها كانت جانبية ، وليست أسنانية لثوية . أما الفرق الثانى ، وهو أنها لم تكن انفجارية ، بل احتكاكية أو رخوة ، فيتضح من قول سيبويه فى تقسيم الحروف : « ومنها الرخوة وهى : الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاى والسين والظاء والثاء والذال والفاء [١] » .

وقد عرفنا من قبل أن الضاد التى ننطقها اليوم فى مصر ، هى المقابل المطبق أو المفخم للدال ؛ فالدال صوت ينطق بنفس الطريقة التى ينطق بها صوت الضاد ، مع فارق واحد ، وهو أن مؤخرة اللسان ، ترتفع قليلا فى اتجاه الطبق عند نطق الضاد ، ولايحدث مثل ذلك مع الدال . أما الضاد القديمة ، فلا يقابلها شىء من الأصوات ؛ إذ يقول سيبويه : « ولولا الإطباق ... لخرجت الضاد من الكلام ؛ لأنه ليس شىء من موضعها غيرها [٢] » .

وعلى هذا فالضاد التى ننطقها اليوم ، ليست هى الضاد القديمة ، التى كانت عند العرب القدماء ، وإنما هى تطور عنها . ولنسمع فى هذه الضاد القديمة آراء بعض العلماء :

يقول المستشرق « شادِه » عن سيبويه إنه « عدّ من الرخوة حرفا خرج منها بعده ، فى كثير من اللهجات العربية ، وهو الضاد ؛ فإنها ليست الآن من الرخاوة ، إلا فى لفظ من قال : ضرب مثلا ، بضاد جانبية المخرج . وأما فى النطق المعتاد فى مصر ، يعنى بضاد مقدمة المخرج ، فقد لحقت فيه الشديدة [٣] » .

---

(١) كتاب سيبويه ٢/٤٠٦ .

(٢) كتاب سيبويه ٢/٤٠٦ .

(٣) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص ٩ .

ويقول المستشرق « برجشتراسر » : « أما الضاد فهى الآن شديدة عند أكثر أهل المدن ، وهى رخوة (عند القدماء) كما هى الآن عند أكثر البدو ، ومع ذلك فليس لفظها البدوى الحاضر نفس لفظها العتيق ؛ لأن مخرج الضاد (عند القدماء) من حافة اللسان . ومن القدماء من يقول : من جانبه الأيسر ، ومنهم من يقول : من الأيمن ، ومنهم من يقول : من كليهما ؛ فمخرجها قريب من مخرج اللام من بعض الوجوه . والفرق بينهما هو أن الضاد من الحروف المطبقة كالصاد ، وأنها من ذوات الدوىّ (الاحتكاك) ، واللام غير مطبقة ، صوتية محضة ؛ فالضاد العتيقة حرف غريب جدا ، غير موجود ـــ حسبما أعرف ـــ فى لغة من اللغات إلا العربية ؛ ولذلك كانوا يكنون عن العرب ،بالناطقين بالضاد . ويغلب على ظنى أن النطق العتيق للضاد ، لايوجد الآن عند أحد من العرب ، غير أن للضاد نطقا قريبا منه جدا عند أهل حضرموت ، وهو كاللام المطبقة . ويظهر أن الأندلسيين ، كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك ؛ ولذلك استبدلها الأسبان بصوت (ld) فى الكلمات العربية المستعارة فى لغتهم ؛ مثال ذلك أن كلمة : (القاضى) صارت فى الأسبانية alcalde . ومما يدل أيضا على أن الضاد كانت فى نطقها قريبة من اللام ، أن الزمخشرى ذكر فى كتابه : (المفصل) أن بعض العرب ، كانت تقول : (الطجع) بدل : (اضطجع) . ونشأ نطق الضاد عند البدو ، من نطقها العتيق بتغيير مخرجها من حافة اللسان إلى طرفه ، ونطقها عند أهل المدن ، نشأ من هذا النطق البدوى ، بإعماد طرف اللسان على الفك الأعلى ، بدل تقريبه منه فقط ، فصار الحرف بذلك فى نطقه شديدا ، بعد أن كان رخوا [١] » .

---

(١) التطور النحوى ١٨

ويبدو أن ماحدث للكلمة العربية ذات الضاد فى الأسبانية ، حدث مثله لتلك الكلمات فى اللغة الأندونيسية ، مثل قولهم : hail = حيض ؛ lalalat = ضلالة ؛ loha = ضحى (١) .

ويرى « كانتينو » أن « النطق القديم كان (ظْ لْ) ، أى ظاء ذات زائدة انحرافية ، أى بتقريب طرف اللسان ، من الثنايا كما فى النطق بالظاء ، وبأن يجرى النفس لا من طرف اللسان فقط ، بل من جانبيه أيضا (٢) » .

كما يقول المستشرق « هنرى فليش » : « ولقد كان العرب يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد ، وهو عبارة عن صوت مفخم ، يحتمل أنه كان ظاء جانبية أى أنه كان يجمع الظاء واللام فى ظاهرة واحدة . وقد اختفى هذا الصوت ، فلم يعد يسمع فى العالم العربى ، وأصبح بصفة عامة إما صوتا انفجاريا ، هو مطبق الدال ، وإما صوتا أسنانيا هو الظاء (٣) » .

وأخيرا يرى الدكتور إبراهيم أنيس أنه « يستدل من وصف القدماء لهذا الصوت ، على أن الضاد كما وصفها الخليل ومن نحوا نحوه ، تخالف تلك الضاد التى ننطق بها الآن ؛ إذمعها ينفصل العضوان المكونان للنطق انفصالا بطيئا نسبياً ، ترتب عليه أن حل محل الانفجار الفجائى انفجار بطىء ، نلحظ معه مرحلة انتقال بين هذا النوع من الأصوات ، ومايليه من صوت لين ؛ فإذا نطق بالضاد القديمة ، وقد وليتها فتحة مثلا ، أحسسنا بمرحلة انتقال بين الصوتين ، تميز فيها كل منهما تميزا كاملا هذا إلى أن

---

(١) انظر : Kamus Lengkap .

(٢) دروس فى علم أصوات العربية ٨٦

(٣) العربية الفصحى ٣٧

الضاد ، كما وصفها القدماء ، كانت تتكون بمرور الهواء بالحنجرة ، فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم ، غير أن مجراه فى الفم جانبى — عن يسار الفم عند أكثر الرواة ، أو عن يمينه عند بعضهم ، أو من كلا الجانبين ، كما يستفاد من كلام سيبويه ...

والذى نستطيع تأكيده هنا ، هو أن الضاد القديمة ، قد أصابها بعض التطور ، حتى صارت إلى مانعهده لها من نطق فى مصر ... ولايزال العراقيون حتى الآن ، وبعض البدو ينطقون بنوع من الضاد ، يشبه إلى حد ما الظاء ، كما يشبه إلى حد كبير ذلك الوصف ، الذى روى لنا عن الضاد القديمة . والذين مارسوا التعليم فى بلاد العراق يذكرون ، كيف يخلط التلاميذ هناك بين الظاء والضاد . والضاد القديمة — كما أتخيلها — يمكن النطق بها ، بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة ، ثم ينتهى نطقه بالظاء ، فهى إذن مرحلة وسطى ، فيها شىء من شدة الضاد الحديثة ، وشىء من رخاوة الظاء العربية ؛ ولذلك كان يعدّها القدماء من الأصوات الرخوة (١) » .

هذه هى بعض الآراء ، التى قيلت فى الضاد العربية القديمة . ويبدو من وصف القدماء لها ، ومن تطورها فى بعض اللهجات واللغات ، أنها كانت لاما مطبقة ، كما يقول « برجشتراسر » ، كما يبدو أنها كان فيها بعض الشبه بالظاء والضاد ، وإلا ماتطورت فى اتجاه كل واحد من هذين الصوتين ، فى اللهجات العربية الحديثة .

وأما ماذهب إليه الدكتور كمال بشر ، من احتمال أن يكون القدماء قد « وصفوا الضاد المولّدة ، لا الضاد العربية الأصلية (٢) » ، وترجيحه هذا

---

(١) الأصوات اللغوية ، للدكتور إبراهيم أنيس ٤٩

(٢) علم اللغة العام : الأصوات ١٣٧

الاحتمال بقوله : « ربما لكثرة استعمال هذا الصوت المولّد ، وشيوعه على الألسنة ، عند قيام حركة التأليف اللغوى » — فقد بنى مذهبه هذا على نص مصحّف ، فى ترجمة المرحوم النجار لكتاب « العربية » للمستشرق « يوهان فك » ، وهو : « كما يتعلق بهذا أيضا تغيير حرف الضاد . وهذا الصوت الذى هو فى أصله ، الحرف المطبق القسيم **للدال** ، خاص بالعربية (١) » . هذا النص بهذه الصورة ، يفهم منه أن الضاد فى الأصل ، هى النظير المفخم للدال ، أى أنها حينئذ — كما يقول الدكتور بشر « كانت تشبه ضادنا الحالية ، أو هى هى » . غير أن ترجمة النجار بها تصحيف فى هذا الموضع للأسف ، وصوابه كما فى الأصل الألمانى (٢) : « الحرف المطبق القسيم **للذال** » . وقد حدث مثل هذا التصحيف مرة أخرى ، فى تلك الترجمة : « **كالدال**المفخمة (٣) » ، وصوابه كما فى الأصل الألمانى (٤) : « **كالذال** المفخمة » .

وإذا نظرنا إلى اللغات السامية ، وجدنا أن الضاد العربية تقابل **صادا** فى اللغة الأكادية والأوجاريتية والعبرية ، فكلمة « أرض » فى العربية ، تقابل كلمة erṣetu' فى الأكادية وكلمة arṣ' فى الأوجاريتية (٥) ، وكلمة éreṣ' فى العبرية . كما تقابل الضاد **عينا** فى السريانية مثل ar'ā' بمعنى « أرض »

(١) العربية ليوهان فك ، بترجمة النجار ١٠٢/٩

(٢) Arabiya, S.58,20 وانظر ترجمتنا للعربية ١١١/٩

(٣) العربية ، بترجمة النجار ١٠٣/٢

(٤) Arabiya, S.58, 35 وانظر ترجمتنا ١١٢/٢

(٥) أحيانا تقابل الضاد ظاء فى الأوجاريتية كذلك . انظر كتاب : «جوردون» C.H. Gordon, Ugaritic Manuel, p. 23

كذلك . ولم تبق ضاداً إلا فى العربية الشمالية ، والعربية الجنوبية (السبئية والمعينية) والحبشية ، مثل كلمة ʾrḍ فى العربية الجنوبية ، بمعنى « أرض » كذلك (١) ، وكلمة ḍaḥāy بمعنى : « الشمس — الضحى » فى الحبشية (٢) .

وتقول « مارية هفنر » : إن « هذه الضاد احتكاكية فى الحبشية ، ولابد أنها كانت كذلك فى العربية الجنوبية . والدليل على صحة ذلك ، ورود بعض الكلمات ، التى كتبت بالضاد فى بعض النقوش ، وبالزاى فى بعضها الآخر ، فلو كانت هذه الضاد انفجارية ، لما التبست على الكاتب إطلاقا ، فدلت كتابته إياها بصورة الزاى على أنها كانت احتكاكية (٣) » .

وإذا كانت الضاد بهذه الصورة ، توجد فى بعض اللغات السامية كما رأينا ، كان من التجوز قول ابن جنى : « واعلم أن الضاد للعرب خاصة ، ولايوجد فى كلام العجم إلا فى القليل (٤) » .

أما السرّ فى إطلاق « لغة الضاد » على اللغة العربية ، فإنه يكمن فى أن هذه الضاد ، كانت مشكلة عويصة بالنسبة لمن يريد أن يتعلم العربية من الأعاجم . ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : « يظهر أن الضاد القديمة ، كانت عصية النطق على أهالى الأقطار التى فتحها العرب ، أو حتى على بعض

---

(١) انظر كتاب « موسكاتى » Moscati, An Introduction, 28 وكتاب « بروكلمان » C.Brokelmann, Grundriss, I 128 .

(٢) انظر كتاب « بريتوريوس » Praetorius, Äthiop . Grammatik, 8 .

(٣) انظر M. Höfner, Altsüdarabische Grammatik, 18 .

(٤) سر صناعة الإعراب ٢٢٢/١

القبائل العربية فى شبه الجزيرة ، مما يفسر تلك التسمية القديمة (لغة الضاد) ، كما يظهر أن النطق القديم بالضاد ، كان إحدى خصائص لهجة قريش [١] » .

ويقول ابن الجزرى : « والضاد انفرد بالاستطالة ، وليس فى الحروف مايعسر على اللسان مثله ؛ فإن ألسنة الناس فيه مختلفة ، وقل من يحسنه ؛ فمنهم من يخرجه ظاء ، ومنهم من يمزجه بالذال ، ومنهم من يجعله لاما مفخمة ، ومنهم من يشمه الزاى . كل ذلك لايجوز [٢] » .

وكل هذا الذى حكاه ابن الجزرى ، روت لنا كتب الإبدال طرفا منه ؛ فمن أمثلة الضاد والظاء ، ماحكاه أبو الطيب اللغوى من قوله : « الحَضَل والحَظَل : فساد يلحق أصول سَعَف النخل [٣] » .

ومن أمثلة الضاد والذال : « ماينبِض له عِرْقٌ نَبْضاً ، وماينبِذ له عِرْق نبذاً . وقد نَبَض العرق ينبِض ، ونَبَذ ينبِذ إذا ضرب [٤] » . ومن أمثلة الضاد واللام : « تَقَيَّض فلان أباَه وتقيّله ، تقيُّضاً ، وتقيُّلاً : إذا نزع إليه فى الشبه [٥] » . ومن أمثلة الضاد والزاى : « أنا على أَوْفازٍ ، وعلى أَوْفاضٍ ، أى على عجلة [٦] » .

---

(١) الأصوات اللغوية ص ٥٠

(٢) النشر فى القراءات العشر ٢١٩/١

(٣) الإبدال لأبى الطيب ٢٧٠/٢

(٤) الإبدال لأبى الطيب ١٦/٢

(٥) الإبدال لأبى الطيب ٢٧٧/٢

(٦) الإبدال لأبى الطيب ١٣٨/٢

ويحدثنا اللغويون عما سموه « بالضاد الضعيفة » ، وهو مظهر من مظاهر عدم تمكن بعض العرب القدماء ، من نطق الضاد التى عرفنا وصفها من قبل ؛ يقول ابن يعيش : « والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم ، فربما أخرجوها طاء ، وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا ، وربما راموا إخراجها من مخرجها ، فلم يتأت لهم ، فخرجت بين الضاد والظاء [١] » .

وقد وصلت إلينا بعض الأخبار ، التى تؤكد لنا أن الناس كانوا يخلطون الضاد بالظاء فى بعض الأحيان ؛ فقد روى أبو على القالى أن رجلا « قال لعمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : ياأمير المؤمنين ، أيضحى بضبى ؟ قال : وماعليك لو قلت : بظبى ؟! قال : إنها لغة . قال : انقطع العتاب ، ولا يضحى بشىء من الوحش [٢] » . كما سجل الجاحظ مثل هذا الخلط بين الضاد والظاء فقال : « وزعم يزيد مولى ابن عون ، قال : كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء ، فكان إذا دعاها ، قال : ياضمياء ، بالضاد ؛ فقال ابن المقفع : قل : ياظمياء ! فناداها : ياضمياء ، فلما غيّر عليه ابن المقفع ، مرتين أو ثلاثا ، قال له : هى جاريتى أو جاريتك ؟! [٣] » .

ويذهب المستشرق « برجشتراسر » إلى أن « نطق الظاء ، كان قريبا من نطق الضاد ، وكثيرا ماتطابقتا وتبادلتا ، فى تاريخ العربية . وأقدم مثال لذلك ،

---

(١) شرح المفصل ١٠/١٢٧ وانظر كلاما غير مفهوم عن هذه الضاد الضعيفة ، فى كتاب سيبويه ٢/٤٠٤

(٢) ذيل الأمالى والنوادر للقالى ١٤٣ وانظر الخبر برواية أخرى ، فى المزهر للسيوطى ١/٥٦٢ – ٥٦٣

(٣) البيان والتبيين ٢/٢١١

مأخوذ من القرآن الكريم ، وهو : (الضنين) فى سورة التكوير ٨١ / ٢٤ ؛ فقد قرأها كثيرون بالظاء مكان الضاد ، التى رسمت بها فى كل المصاحف . وممن قرأها بالظاء : ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائى ، وكذلك النبى (ﷺ) كما قال مكى فى كتاب الكشف » (١) .

ومما لاشك فيه ، أن العرب القدامى فى البيئة القرشية ، كانوا يفرقون بين الضاد والظاء ؛ بدليل أن الكتابة العربية ، التى شاعت أول ماشاعت فى قريش ، فرقت بين الصوتين فى الصورة الموضوعة لكل واحد منهما . ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : « لايخالجنا الآن أدنى شك فى أن العرب القدماء كانوا فى نطقهم يميزون هذين الصوتين ، تمييزا واضحا ، ولكنهم فيما يبدو ، كانوا فريقين : فريق يمثل الكثرة الغالبة ، وهؤلاء هم الذين كانوا ينطقون بهما ذلك النطق ، الذى وصفه سيبويه . أما الفريق الآخر ، فكان يخلط بين الصورتين ... وهذا الخلط الذى وقع فى بعض اللهجات المغمورة ، إنما كان سببه أن هذين الصوتين ـــ على حسب وصف سيبويه لهما ـــ يشتركان فى بعض النواحى الصوتية ، أو بعبارة أخرى ، كان وقعهما فى الآذان متشابها . ولعل مما يسأتنس به لهذا التشابه بين الصوتين فى النطق القديم ، وقوعهما فى فاصلتين متواليتين من فواصل القرآن الكريم (٢) ، مثل ماجاء فى قوله تعالى :

---

(١) التطور النحوى ١١ وانظر الكشف لمكى ٣٦٤/٢ ويرى المفسرون أن المعنى مختلف على القراءتين ؛ فهى بالضاد بمعنى : « بخيل » ، وبالظاء بمعنى : « متهم » . انظر الكشف فى الموضع السابق ، وتفسير القرطبى ٢٤٢/١٩ وزينة الفضلاء ٩٧

(٢) يرى الدكتور إبراهيم أنيس ، أن الانسجام الموسيقى بين فواصل كثير من الآيات القرآنية ، يهدينا إلى النطق الأصلى لبعض أصوات اللغة وقت نزول القرآن . انظر مقاله : « على هدى الفواصل القرآنية » فى مجموعة البحوث والمحاضرات لمجمع اللغة العربية (١٩٦١/١٩٦٢) ص ١٠٧ - ١١٨

﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب **غليظ** . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسّه الشرّ فذو دعاء **عريض** [(١)] ﴾ .

ولعل هذا الخلط بين صوتى الضاد والظاء ، كان قد شاع فى القرن الثالث الهجرى ، وكان هذا هو السر فيما ذهب إليه أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابى ، اللغوى المشهور (المتوفى سنة ٢٣١ هـ) من أنه يجوز عند العرب ، أن يعاقبوا بين الضاد والظاء ؛ فقد روى ابن خلكان [(٢)] ، أن ابن الأعرابى كان يقول : « جائز فى كلام العرب أن يعاقبوا بين الضاد والظاء ، فلا يخطىء من يجعل هذه فى موضع هذه ، وينشد :

إلى الله أشكو من خليل أودّه ثلاث خصال كلها لى غائض

بالضاد (بدل غائظ) ، ويقول : هكذا سمعته من فصحاء العرب » .

ويزعم ابن جنى أن ذلك ليس من باب المعاقبة ، وإنما هى مادة أخرى ؛ فيقول : « ويجوز عندى أن يكون غائض غير بدل ، ولكنه من غاضه ، أى نقصه ، فيكون معناه : ينقصنى ويتهضّمنى [(٣)] » .

والدليل على أن الخلط بين الضاد والظاء قديم فى العربية ، تلك المؤلفات الكثيرة ، التى تعالج هذه المشكلة من قديم [(٤)] . ولقد كانت محاولات بعض من ألف فى هذا الموضوع من اللغويين العرب ، منحصرة

---

(١) سورة فصلت ٤١/٥٠ – ٥١ وانظر : معنى القول المأثور لغة الضاد ١١٨ – ١١٩ .

(٢) وفيات الأعيان ٤٣٣/٣ وانظر كذلك : طبقات الزبيدى ٢١٥ .

(٣) سر صناعة الإعراب ٢٢٢/١ .

(٤) انظر الإحصاء الذى عملناه لهذه المؤلفات فى مقالتنا : « مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء » فى مجلة المجمع العلمى العراقى (المجلد ٢١ سنة ١٩٧١) ومقدمة زينة الفضلاء لابن الأنبارى بتحقيقنا .

أحيانا فى تنبيه الكتّاب ، حتى لايخلطوا الضاد بالظاء فى خطوطهم ، متأثرين فى ذلك بنطقهم ، الذى كان من العسير إصلاحه .

ونحن نرى أثر هذا الخلط بين الضاد والظاء ، فى بعض البلاد العربية ، فى أيامنا هذه ؛ فقد سبق أن أوردنا ماحكاه الدكتور أنيس عن نطق العراقيين للضاد نطقا مشابها للظاء . وليس هذا الأمر خاصا بالعراقيين فحسب ، بل إن أهل تونس يخلطون فى أيامنا هذه بين الضاد والظاء ، فينطقونهما قريبين من الظاء .

وكان لنا زميل تونسى بجامعة ميونخ ، يسألنا إن كانت هذه الكلمة أو تلك ، تكتب بالظاء المشالة أو غير المشالة [١] ؟ وهو يقصد بالمشالة ، التى فوقها ألف ، وهى الظاء المعروفة ، وبغير المشالة : الخالية من هذه الألف فى الخط ، وهى الضاد المعروفة .

أما الضاد القديمة ، فقد عرفنا من قبل أن هناك نطقا يشبهه ، عند أهل حضرموت ، وهو كاللام المطبقة فيما ذكره المستشرق « برجشتراسر » . ويضيف الدكتور خليل نامى إلى ذلك أن « هذا النطق موجود أيضا فى لهجات منطقة ظَفارِ كالمهرية والشحرية ، كما هو موجود أيضا فى منطقة دثينة ، بجنوب بلاد العرب ، وهو موجود أيضا فى لهجات الجزيرة بالسودان [٢] » .

---

(١) تعبير « الظاء المشالة » تعبير قديم ، كما يطلق على الطاء كذلك انظر : شرح القاموس لابن الطيب الفاسى ١/١١٢ — ١١٣ .

(٢) انظر مقالة الدكتور خليل نامى : « حرف الضاد وكثرة مخارجه » فى مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة (العدد الأول من المجلد ٢١) مايو ١٩٥٩ ص ٦٢ وانظر كذلك : « دروس فى علم أصوات العربية » لكانتينو ٨٧ .

(٢) الطاء

عرفنا من قبل أن الطاء ، كما ينطق بها اليوم ، تقابل التاء فى الترقيق والتفخيم ، أى أنها صوت شديد مهموس مفخم ، ولا فرق بينهما إلا فى أن مؤخرة اللسان ترتفع تجاه الطبق عند نطق الطاء ، ولاترتفع نحوه فى نطق التاء .

أما الطاء عند القدماء ، فهى صوت شديد مجهور مفخم ، عدّها سيبويه من الأصوات المجهورة ، كما قال عنها : « ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا [١] » . أى أنها نظير الدال المفخم ، عند سيبويه ، فى حين أنها فى نطقنا اليوم ، نظير التاء المفخم ، كما سبق أن ذكرنا ذلك .

وقد مال معظم المحدثين ، من دارسى الأصوات اللغوية ، إلى تصديق رواية القدماء ، عن الطاء العربية القديمة ، من أنها كانت صوتا مجهوراً ، يشبه الضاد الحديثة ، التى تطورت فضاع منها الجهر ، وأصبحت تلك الطاء الحديثة ، التى لم يكن لها وجود أصلا فى العربية القديمة ؛ فيذكر برجشتراسر أن « الطاء مهموسة اليوم ، مجهورة (عند القدماء) ونطق الطاء العتيق قد انمحى وتلاشى تماما [٢] » .

أما « شادِه » فيرى على العكس من ذلك أن نطق الطاء العتيق ، يوجد فى جنوب جزيرة العرب ؛ فيقول : « سيبويه يعد من المجهورة الطاء والقاف . وفى لفظ عصرنا لانصيب للأوتار الصوتية فى إنتاجهما ، ولكن ذلك لايصح إلا عن لفظ المدارس (يقصد الفصحى الحالية) . وأما اللهجات فتخالفها مخالفة شديدة ، فإن سكان جنوب جزيرة العرب مثلا ،

---

(١) كتاب سيبويه ٤٦٠/٢ .

(٢) التطور النحوى ٩ .

يلفظون الطاء ، كأنها ضاد المصريين ، والقاف كأنها جيم المصريين بإطباق ، فيقولون مثلا : (وَجَع فَوْجَنَا مَضَر) يعنى : وقع فوقنا مطر ، أو (قَضَعْت وَرَجَة) يعنى : قطعت ورقة . ومثل ذلك يصح عن غير لهجة جنوب جزيرة العرب ، من اللهجات العصرية (١) » .

وأما الدكتور إبراهيم أنيس ، فيعترف كذلك بالتطور الذى أصاب نطق هذا الصوت ، فأبعده عن حالته القديمة ؛ فيقول : « وقد أجمع الرواة فى وصفهم للطاء القديمة ، على أنها صوت مجهور ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن الطاء القديمة ، تخالف التى ننطق بها الآن ؛ على أن وصف الطاء فى كتب الأقدمين ، لايمكن الباحث المدقق من تحديد كل صفات ذلك الصوت ، ولا كيف كان ينطق به على وجه الدقة ، غير أنه من الممكن أن نستنتج من وصفهم أنها كانت صوتا يشبه الضاد ، التى نعرفها الآن . وهنا يتضح معنى قول ابن الجزرى : إن المصريين ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة . وليس من المحتمل أن يكون القدماء قد خلطوا فى وصفهم بين صفتى الجهر والهمس ، فيما يتعلق بهذا الصوت ، ولكن الذى أرجحه أن صوت الطاء ، كما وصفها القدماء كان يشبه الضاد الحديثة . ولعل الضاد القديمة كانت تشبه مانسمعه الآن من العراقيين فى نطقها . ثم تطور الصوتان فهمست الأولى ، وأصبحت الطاء التى نعرفها الآن ، كما اختلف مخرج الثانية وصفتها ، فأصبحت تلك الضاد الحديثة . أى أن ماكان يسمى بالطاء ، كان فى الحقيقة ذلك الصوت الذى ننطق به الآن ونسميه ضادا ؛ فلما همست أصبحت الطاء الحديثة ، التى ــ فيما يظهر ــ لم تكن معروفة فى

---

(١) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ١٣ .

النطق العربى القديم . أما الضاد القديمة العصية النطق ، فقد تطور مخرجها وصفتها ، حتى أصبحت على الصورة التى نعهدها فى مصر [١] » .

أما الدكتور تمام حسان ، فيرى أن « الطاء القديمة كانت مهموسة ، غير أنها كانت ذات نطق مهموز ، وهذا هو ماأوقع اللغويين القدامى فى الخطأ ـــ فى نظره ـــ حين عدّوا هذه الطاء مجهورة ؛ فيقول : « أما الطاء التى وصفها لنا القراء القدماء فمجهورة على مارأوا ، وهذا يحتاج إلى قليل من المناقشة ، ففى بعض اللهجات العامية المعاصرة ، صوت من أصوات الطاء ، يمكن وصفه بأنه مهموز ، ولإيضاح ذلك نقول : إن طرف اللسان ومقدمته ، يتصلان فى نطقه بالثنايا واللثة وتعلو مؤخرة اللسان وتتراجع إلى الخلف فى اتجاه الجدار الخلفى للحلق ، ويقفل المجرى الأنفى للهواء الخارج من الرئتين ، بخلق اتصال بين الطبق والجدار الخلفى للحلق . وفى نفس الوقت تقفل الأوتار الصوتية ، فلا تسمح بمرور الهواء إلى خارج الرئتين ؛ وبذلك تتكوّن منطقة فى داخل الفم والحلق ، يختلف ضغط الهواء فيها عنه فى الرئتين وفى الخارج . وفجأة يتم انفصال الأعضاء المتحركة ، التى وصفنا اتصالها فى وقت ما ، فيندفع هواء الرئتين إلى الخارج ، ويندفع الهواء الخارجى إلى الداخل ، فيحدثان بالتقائهما أثرا صوتيا ، هو صوت الطاء ، كالتى تنطق فى بعض لهجات الصعيد مثلا .

« ومعنى كون الطاء مهموزة هنا ، أنه صحبها إقفال الأوتار الصوتية حين النطق ، فأصبح عنصر الهمز جزءاً لايتجزأ من نطقها . هذه الطاء مهموسة قطعا ؛ لأن إقفال الأوتار الصوتية لايسمح بوجود الجهر ... ويرجح

---

(١) الأصوات اللغوية ٥٨

عندى أن الطاء العربية الفصحى القديمة ، التى وصفها القراء كانت فى صوتها وفى نطقها بهذا الوصف ، ثم لغرابة صوتها على السمع ، أخطأ النحاة والقراء ، فجعلوها مجهورة فى دراستهم ، وجعلوا الدال مقابلا مرققا لها [١]» .

(٣) الجيم

سبق أن عرفنا أن الجيم كما نسمعها الآن من مجيدى القراء ، صوت غارى مجهور يجمع بين الشدة والرخاوة ، وهو ماسبق أن سميناه بالصوت المزدوج .

أما سيبويه فقد عدها من الأصوات الشديدة ، وإن كان قد وضعها بين الشين والياء فى مخرج واحد ، وتابعه على ذلك غيره من علماء الأصوات العرب [٢] .

ويبدو أن الازدواج فى نطق بعض الأصوات العربية ، لم يكن واضحا فى تصور العلماء العرب ، بدليل وهمهم فى وصف ظاهرتى الكشكشة والكسكسة ، فى نطق بعض القبائل العربية للكاف المكسورة [٣] .

(٤) القاف

عرفنا من قبل أن القاف ، كما ينطق بها مجيدو القراءات فى مصر ، صوت لهوى شديد مهموس .

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ٩٤ .

(٢) سيبويه ١/٤٠٥ – ٤٠٦ وسر صناعة الإعراب ١/٦٩ وانظر كذلك فقرة بعنوان : « قضية الجيم » للدكتور إبراهيم أنيس ، فى مقال له بعنوان : « على هدى الفواصل القرآنية » فى مجموعة البحوث والمحاضرات بمجمع اللغة العربية (١٩٦١ – ١٩٦٢ م) .

(٣) انظر كتابنا : فصول فى فقه العربية ١٤٠ – ١٥٠ .

أما سيبويه ومن جاء بعده من النحويين والقراء ، فإنهم يصفون القاف بأنها مجهورة ، ونستنتج « من وصف القدماء لهذا الصوت أنه كان يشبه إلى حد كبير ، تلك القاف المجهورة التى نسمعها الآن بين القبائل العربية فى السودان ، وجنوب العراق ، فهم ينطقون بها نطقا ، يخالف نطقها فى معظم اللهجات العربية الحديثة ؛ إذ نسمعها منهم نوعا من الغين (١) » .

ويقول « كانتينو » : « وبما أن قسما كبيرا من الألسن الدارجة العربية ، ينطق بقاف مجهورة ، أمكننا الاعتقاد على سبيل الاحتمال والترجيح ، بأن القاف كان بالفعل حرفا مجهورا فى العربية القديمة . ويمكن أن يكون نطقه مهموسا فى العربية الفصحى اليوم ، ناتجاً عن كونه أصبح مهموسا فى اللهجات الحضرية المدنية ؛ لأن أغلبية المثقفين اليوم ، هم من أصل مدنى (٢) » .

ويبدو أن القبائل العربية ، لم تكن تنطق القاف بصورة موحدة ؛ فها هو ابن دريد اللغوى يقول : « فأما بنو تميم ، فإنهم يلحقون القاف بالكاف ، فتغلظ جدا ؛ فيقول : الكَوم ، يريدون : القوم ؛ فتكون القاف بين الكاف والقاف . وهذه لغة معروفة فى بنى تميم قال الشاعر :

ولاأكَول لكِدْر الكوم كَدْ نَضِجت ... ولا أكَول لباب الدار مَكْفول (٣)» .

وقد تطورت القاف فى اللهجات العربية الحديثة ، تطوّراً كبيرا ، فهى فى كلام أهل مصر والشام همزة ، كما تنطق غينا فى بعض مستويات النطق فى

---

(١) الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ٧٧ .

(٢) دروس فى علم أصوات العربية ١٠٧ .

(٣) جمهرة اللغة ١/٥ وعلق كرنكو فى الهامش بقوله : « معنى تغليظ القاف التلفظ بالكاف الفارسى ... وهذا الشعر لأبى الأسود الدؤلى ، ويروى لحاتم الطائى ولغيره » . وانظر النص كذلك فى الصاحبى لابن فارس ٣٦ .

السودان وجنوبى العراق ، وفى بعض الكلمات فى مصر ؛ مثل : يقدر > يغْدَر . وتسمع جيما كالجيم القاهرية ، فى بعض البيئات بصعيد مصر ، وبين كثير من قبائل البدو فى الصحراء .

وكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة للتطور ، له أمثلته فى العربية القديمة ؛ فمن الأمثلة التى وردت بالقاف والهمزة ، مارواه أبو الطيب اللغوى ، من قول العرب : قَشَبه وأَشَبه ، أى لامه وعابه . والقوم زُهاق مائة وزهاء مائة ، أى قريب من مائة . والقَفْز والأَفْز ، أى الوثب (١).

ومن الأمثلة التى وردت بالقاف والغين قولهم : غلام أقلف وأغلف ، أى لم يختن . والقمز من الناس والغمز ، أى الرذال ومن لاخير فيه . وقلقل فى الأرض وغلغل ، أى ذهب فى الأرض (٢).

ومن أمثلة القاف والجيم قولهم : بائقة وبائجة للداهية . وحبق وحبج ، أى ضرط . وأحنق وأحنج ، أى ضمر الفرس . وتلقّفت البئر وتلجّفت ، أى أكل الماء جوانبها.وزلّقت الموضع وزلّجته ، أى ملّسته (٣) .

والملاحظ أن التطور الذى أصاب القاف هنا بأنواعه كان بتغيير مخرجها ، وتطور الصوت بتغيير مخرجه يكون « بأحد طريقين : إما بانتقال المخرج إلى الوراء ، أو إلى الأمام ، باحثا الصوت فى انتقاله ، عن أقرب الأصوات شبها به ، من الناحية الصوتية . فتعمق القاف فى الحلق عند المصريين لايصادف من أصوات الحلق ، مايشبه القاف إلا الهمزة ؛ لوجود

---

(١) الإبدال لأبى الطيب ٥٦١/٢ – ٥٦٢ .

(٢) الإبدال لأبى الطيب ٣٢٨/٢ – ٣٢٩ .

(٣) الإبدال لأبى الطيب ٢٣٩/١ – ٢٤٥ .

صفة الشدّة فى كل منهما . فليس غريبا إذن أن تطورت القاف فى لغة الكلام عندنا إلى الهمزة ، فليس بين أصوات الحلق صوت شديد إلا الهمزة . أما الانتقال بمخرج القاف إلى الأمام ، فنجد أن أقرب المخارج لها ، هو مخرج الجيم القاهرية والكاف ، فلا غرابة أن تتطور القاف إلى أحدهما . وقد رجّح تطور القاف فى لغة البدو ، وبعض أهالى صعيد مصر ، إلى الجيم القاهرية ، أن القاف فى الأصل صوت مجهور ، فحين تتطور تنتقل إلى صوت مجهور أيضا ، يشبهها صفة ؛ لهذا اختارت القاف فى تطورها الأمامى ، الجيم دون الكاف ؛ لأن كلا من القاف الأصلية ، والجيم القاهرية ، صوت شديد مجهور [١] » .

هذا ، ويلاحظ « كانتينو » أن اللهجات الحديثة ، التى صار القاف القديم فيها حرفا مهموسا (أى القاف التى ننطقها اليوم ، أو الكاف ، أو الهمزة) هى لهجات حضرية [٢] .

(٥) العين

عرفنا من قبل أن العين صوت حلقى رخو مجهور مرقق بحسب الوصف المؤسس على التجارب المعملية الصوتية فى العصر الحديث .

وقد عد سيبويه وغيره من القدماء [٣] ، صوت العين من الأصوات المتوسطة ، « وربما كان ذلك ، لعدم وضوح الاحتكاك فى نطقه وضوحا

---

(١) الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ٧٩

(٢) دروس فى علم أصوات العربية ١٠٨

(٣) سيبويه ٤٠٦/١ وسر صناعة الإعراب ٦٩/١

سمعيا . ولكن الأصوات المتوسطة تشترك جميعها فى خصائص ، ليست موجودة فى نطق العين ، وأوضح هذه الخصائص ، حرية مرور الهواء فى المجرى الأنفى ، أو المجرى الفمى ، دون سدّ طريقه ، أو عرقلة سيره ، بالتضييق عند نقطة ما . وقد اتضح بصورة الأشعة ، أن فى نطق العين تضيقا كبيراً للحلق . وهذا مايدعونا ومادعا غيرنا من المحدثين قبل ذلك ، إلى اعتبار صوت العين رخوا لا متوسطا [١] » .

★ ★ ★

(١) مناهج البحث فى اللغة ١٠٢

نظرية الفونيم والكتابة

من الملاحظ فى دراسة أية لغة من اللغات ، أن مجموعة من الأصوات ، التى قد تختلف فيما بينها ، من ناحية المخرج أو الصفة ، ينظر إليها من ناحية الكتابة والمعنى المعجمى ، كما لو كانت صوتا واحداً ؛ وذلك مثل صوت « النون » فى اللغة العربية مثلا ؛ فقد لاحظنا من قبل أن مايسمى بصوت النون فى لغتنا العربية يندرج تحته عدد من الأصوات ، يختلف فيما بينه فى المخرج إلى حد ما ؛ فالنون الموجودة فى كلمة : « نقول » مثلا ، غيرها فى « إن ثار » أو « إن ظهر » و « إن شرق » أو « إن قام » وغير ذلك . وهذه الأصوات المختلفة المخارج ، نطلق عليها جميعا اسم « صوت النون » .

ومثال ذلك أيضا ، أن السين فى كلمة : « سماء » تختلف من ناحية الصفة ، عنها فى كلمة : « سطاء » مثلا ؛ فهى فى الثانية ذات قيمة تفخيمية ، ليست فى الأولى ؛ ومع ذلك فإننا نسمى كل واحدة منهما سينا ، ونرمز لهما فى الكتابة برمز واحد ، كما نرمز لأصوات النون المختلفة فيما مضى ، برمز واحد فى الكتابة كذلك .

هذه الأصوات المختلفة ، التى يُعبرَّ عنها فى الكتابة برمز واحد ، ولاتستخدم فى اللغة للتفريق بين المعانى المختلفة ، هى مايطلق عليه الغربيون اسم : « فونيم [1] Phoneme » = وحدة صوتية / عائلة صوتية . وفى إمكاننا نحن أن نطلق عليه اسم : « حرف » مقصودا به الرمز الكتابى ، ونعمل بذلك على التفريق بين الاصطلاحين : « صوت » و « حرف ». فالصوت هو ذلك

---

(١) انظر لنظرية « الفونيم » أسس علم اللغة لما ريوباى ٤٨ ؛ ٨٧

الذى نسمعه ونحسّه ، أما الحرف فهو ذلك الرمز الكتابى ، الذى يتخذ وسيلة منظورة ، للتعبير عن صوت معين ، أو مجموعة من الأصوات لايؤدى تبادلها فى الكلمة ، إلى اختلاف المعنى .

فالفرق بين الصوت والحرف « هو فرق مابين العمل والنظر ، أو بين المثال والباب ، أو بين أحد المفردات والقسم الذى يقع فيه ؛ فالصوت عملية نطقية تدخل فى تجارب الحواس ، وعلى الأخص السمع والبصر ، يؤديه الجهاز النطقى حركة ، وتسمعه الأذن ، وترى العين بعض حركات الجهاز النطقى حين أدائه . أما الحرف فهو عنوان مجموعة من الأصوات ، يجمعها نسب معين ، فهو فكرة عقلية لا عملية عضلية . وإذا كان الصوت مما يوجده المتكلم ، فإن الحرف مما يوجده الباحث (١) » .

ويقول « ڤندريس »: « لسنا فى حاجة إلى القول بأننا لا نستطيع إحصاء الأصوات فى لغة ما ، بعدد الحروف الموجودة فى أبجديتها . فكل لغة فيها من الأصوات ، أكثر مما فى كتابتها من العلامات . تلك حال الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية ، ومع ذلك فإن عدد الأصوات فى أية لغة ، لايكاد يتعدى الستين عادة ، بل يمكن أن ينزل عن ذلك ، نزولا محسوسا (٢) » .

وهذه التفرقة بين « الصوت » و « الحرف » على هذا النحو نتوصل بها إلى جعل « الحرف » مساويا للاصطلاح الغربى : « فونيم » . أما القدماء من علماء العربية ، فإنهم كانوا يستخدمون الكلمتين بمعنى واحد أحيانا ، أو يفرقون بينهما تفرقة تختلف عما نعنيه نحن بهما هنا .

---

(١) انظر : اللغة بين الوصفية والمعيارية ١٣٠

(٢) اللغة لفندريس ٦٢

فابن جنى مثلا يفرق بينهما ؛ فيقول : « اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا ، حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين ، مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له **حرفا** . وتختلف أجراس الحروف ، بحسب اختلاف مقاطعها ، وإذا تفطنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك ، ألا ترى أنك تبتدىء الصوت من أقصى حلقك ، ثم تبلغ به أى المقاطع شئت ، فتجد له جرساً ما ، فإن انتقلت عنه راجعا منه ، أو متجاوزاً له ، ثم قطعت ، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول ؛ وذلك نحو الكاف ، فإنك إذا قطعت بها ، سمعت هنا صدى ما ، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره ، وإن جزت إلى الجيم ، سمعت غير ذينك الأولين [١] » .

فابن جنى يفهم الصوت هنا ــ فيما يبدو ــ على أنه صوت ذبذبة الأوتار الصوتية ، وإن لم يصرح بذلك . أما الحرف فإنه يرادف فى كلامه ، ماسبق أن سميناه بمخرج الصوت ، و ذلك واضح من قوله بعد ذلك : « الحرف حد منقطع الصوت وغايته [٢] » . ومثل هذا الفهم للصوت والحرف عند ابن جنى ، يوجد كذلك عند ابن سينا ؛ إذ يقول : « والحرف هيئة للصوت عارضة له ، يتميز بها عن صوت آخر مثله فى الحدة والثقل تميزا فى المسموع [٣] » .

وتصور « الفونيم » أو « الحرف » بالمعنى الذى قدمناه تصور حديث جدا فى علم اللغة ، وفى علم الأصوات اللغوية ، وكان الذى دعا العلماء

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/٦

(٢) سر صناعة الإعراب ١/١٦

(٣) أسباب حدوث الحروف ٦

المحدثين للقول به ، أنهم لاحظوا أن أصوات أى لغة من اللغات ، لاحد لها فى واقع الأمر ، وأن مانسميه صوتا واحدا ، قد يتردد هو نفسه فى كلمة من الكلمات ، أكثر من مرة ، ولكنه لاينطق بنفس الصورة فى كل مرة ، فإننا إذا نطقنا كلمة مثل : « بَطَرَ » ، فإننا نجد أن صوت الفتحة الأولى فى هذه الكلمة ، غير الفتحة الثانية ، من الناحية الصوتية ، وغير الفتحة الثالثة . ومع أن هذه الفتحات الثلاث متغايرة فيما بينها ، فإن هذا التغاير لايؤدى إلى تغير فى وظيفة أى منها ، فلا يكون للكلمة معنى معين إذا استخدمنا فيها فتحة من هذه الفتحات ، ثم يتغير المعنى إذا غيرنا هذه الفتحة بفتحة أخرى .

والوظيفة اللغوية هى التى تجعلنا نتغاضى عن أمثال هذه التنوعات ، التى يقضى بها سياق صوتى معين ، فنسوّى بين الفتحات الثلاث ، فى كلمة: « بَطَرَ » مثلا ، ونرى فيها شيئا واحدا ، فإن هذه الفتحات ـــ وهى مختلفة من حيث تكوينها ـــ متطابقة من حيث الوظيفة اللغوية ، التى تؤديها ، فهى تنوعات أو أفراد لنفس « الفونيم » ، فإن أى واحدة منها لو وضعت مكان واحدة أخرى فى أى كلمة من الكلمات العربية ، لم يتغير معناها .

ويشرح الدكتور السعران هذه الفكرة بقوله : « إن النونات المختلفة صوتيا فى اللغة العربية ، لاتعارض أو لاتقابل بينها ؛ لأننا لانستطيع أن نغير معنى كلمة ، بإحلال إحداها محلّ سواها ، ولكن ثمة تقابل فى العربية بين التاء والدال مثلا ؛ لأننا نقول : (تاء) ثم نحل محل التاء دالا ، ولاندخل أى تغيير آخر على الكلمة ، فنقول : (داء) ، وهى من كلمات العربية ، فالتاء فونيم والدال فونيم [١] » .

---

(١) علم اللغة ٢١٥

وتقابل الأصوات ، يختلف من لغة إلى أخرى فى العدد والنوع ؛ فالسين تقابل الزاى فى اللغة العربية ، من ناحية الهمس والجهر ، وكل واحد منهما « فونيم » أو « حرف » ؛ لأن معنى الكلمة يتغير بإحلال إحداها محل الأخرى فيها ؛ مثل : « سار » و « زار » . وهذا بعكس اللغة الألمانية مثلا ؛ فإن « الفونيم » أو الحرف S فيها ينطق زايا ، قبل الحركة ؛ مثل : Sehen = يرى ، وسينا بعد الحركة ؛ مثل : bis = إلى ؛ فصوت الزاى موجود فى اللغة الألمانية ، غير أنه ليس فونيما مستقلا ، وإنما هو فرع من فونيم آخر ، لأنه لاتوجد كلمة ألمانية ، يختلف فيها المعنى بإحلال السين محل الزاى ، أو العكس ، كما هى الحال فى « سار » و « زار » فى اللغة العربية .

وفى اللغة العربية تتقابل السين والصاد ، فى الترقيق والتفخيم ؛ فكل صوت منهما « فونيم » . ومع أن صوت الصاد يوجد فى اللغة الإنجليزية فى مثل : Sun = شمس ، فإنه لايعد من فونيمات اللغة الإنجليزية ؛ لأنه لايستخدم فيها للتفريق بين المعانى ، أى أنه ليس فيها كلمتان ، لكل منهما معنى مستقل ، وتطابق أصوات إحداهما أصوات الأخرى ، إلا أنه يقابل السين فى إحداهما الصاد فى الأخرى كما هو الحال فى اللغة العربية ، فى مثل : « سار » و « صار » . فالسين العربية فونيم ، أما صوت الصاد المسموع فى الإنجليزية ، فهو فرع من فونيم السين S .

تلك هى نظرية « الفونيم » ، وإذا تدبرناها عرفنا أن الكتابة وسيلة ناقصة ، لتسجيل أصوات اللغة ، فقد قامت الأبجديات المختلفة ــ على الأقل فى أذهان واضعيها الأوائل ــ على أساس الرمز لكل « فونيم » برمز كتابى معين ، يدل على جميع أفراد عائلة هذا الفونيم ، ولم تخصص هذه الأبجديات رموزا معينة ، لفروع الفونيمات المتعددة . وهذه إحدى عيوب تسجيل اللغة

بالكتابة ، فإن الأجنبى الذى يتعلم اللغة العربية بواسطة الكتاب ، لايستطيع أن يدرك فروع « فونيم » النون ، فى تلك اللغة مثلا ؛ ولذلك فإنه سينطقها أو يحاول نطقها كلها بطريقة واحدة .

وكذلك العربى الذى يتعلم الألمانية من الكتاب ، لاشك أنه سيلغى كذلك الفروق الموجودة بين فروع عائلة السين ، وستظهر فى نطقه سينا ، لا أثر فيها لصوت الزاى فى أية كلمة من الكلمات .

ويشرح لنا « ماريو باى » تضليل الكتابة ، وعدم دلالتها على فروع الفونيم الواحد ، فى كثير من اللغات ، فيقول : « الراء فى معظم اللغات مكررة أو ترددية ، نطقها فى مقدمة اللسان ، مع حدوث ذبذبة فى الأوتار الصوتية . والصوت الممثل كتابة فى الفرنسية ب (R) مجهور نتيجة ذبذبة اللهاة معه . وفى الإنجليزية الأمريكية ، يتم إنتاجه غالبا بتقعير اللسان ، والسماح لتيار الهواء بالمرور على امتداد حوافه . هذه التنوعات الثلاثة ، لصوت تمثله الأبجديات الإملائية فى كل اللغات برمز واحد ، أوضح مثال على وجوب عدم الثقة فى نظام الكتابة العادى ، لتمثيل الصوت المنطوق . ولو أن أمريكيا أراد أن يتعلم الفرنسية عن طريق الصورة المكتوبة ، فإنه ولاشك سينطق ما يراه ممثلا على شكل (R) تماما بنفس قيمته فى الإنجليزية الأمريكية [١]» .

وهكذا يؤدى اشتراك بعض الأمم ، فى استخدام أبجدية ذات أصل واحد للدلالة على أصواتها المختلفة ــ إلى وقوع كثير من الأخطاء ، عند تعلم أحد الأفراد لغة أمة من تلك الأمم الأخرى ، عن طريق تلك الأبجدية لاغير .

ومن أمثلة ذلك أن الحروف اللاتينية ، تستعملها بلاد مختلفة من

---

(١) أسس علم اللغة ٨٦ — ٨٧

شعوب أوربا ذات اللغات المتعددة ، كالإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم . وقد عرفنا من قبل أن السين والزاى فرعان لفونيم واحد فى اللغة الألمانية . وذلك على العكس من الإنجليزية ، فكل واحد منهما فونيم مستقل فيها ، ويرمز للأول بالرمز S والثانى بالرمز Z ، وهذا الرمز الأخير فى الألمانية ، يدل على فونيم مختلف عن ذلك كل الاختلاف ، هو الصوت المزدوج (تْسْ) الذى سبق أن تحدثنا عنه ؛ ولهذا فإننا نجد أن الألمانى الذى لايعرف الإنجليزية ، ويقرأ كلمة إنجليزية فيها هذا الرمز Z ، فإنه ينطقه : (تْسْ) . ومثل ذلك يحدث للإنجليزى الذى لايعرف الألمانية ، ويقرأ كلمة ألمانية فيها هذا الصوت Z ، فإنه ينطقه زايا .

وهذا هو السر ، فى أن من يعرف الإنجليزية من المصريين ، ولايعرف الألمانية ، ينطق اسم المدينة الألمانية : Leipzig ليبزج ، وصوابها : « ليبتسج » . كما ينطقون اسم المستشرق الألمانى : Goldziher جولدزيهر ، وصوابه : « جولدتسيهر » ...وهكذا .

ويقول « ماريو باى » فى ذلك : « يحدث الخطأ بسبب وقوع المحلل اللغوى ، تحت تأثير عاداته اللغوية الخاصة وإنّ محللا يتكلم اللغة الإنجليزية ، ربما غررت به طبيعته ، وجعلته يخلط الكاف والقاف العربيتين ، ويضعها تحت فونيم واحد ، مماثل للأصوات الطبقية ، الموجودة فى الانجليزية فى : kin و cool ولكن الاختلاف الدلالى بين كلمتى : كلب ، وقلب العربيتين ، كافٍ لإثبات خطئه . ومن ناحية أخرى فإن المحلل العربى ، ربما ظن خطأ وجودَ خلاف فونيمى ، بين الألوفونين الإنجليزيين للصوت المهموس الطبقى الانفجارى ، اللذين يقع أحدهما قبل العلة الأمامية والآخر قبل العلة الخلفية (cool , kill) فيتصور خطأ أنهما فونيمان اثنان ، إلى أن يلاحظ اختفاء

الأساس فى التقسيم الفونيمى ، وهو تغير المعنى مع تغير الفونيم ، ويعجز عن العثور على أى ثنائيات صغرى [١]» .

ومن أجل هذا العيب فى دلالة الكتابة على النطق الصحيح ، حاول علماء الأصوات ، وضع أبجديات صوتية ، تمثل النطق تمثيلا صحيحا ، وبذلوا فى ذلك جهودا كبيرة ، وتشعبت بهم السبل فى ذلك . وأشهر تلك الأبجديات الصوتية ، أبجدية « الجمعية الصوتية الدولية » التى كانت نتيجة لجهود كثير من علماء الأصوات المختلفين .

★ ★ ★

(١) أسس علم اللغة ١٢٤

أصوات العلة (الحركات)

تحدثنا فيما مضى ، عن الأصوات الصامتة ، فعرفنا مخارجها وصفاتها وكيفية حدوثها ، وعرفنا الموجود منها فى العربية الفصحى ، ومأأصابه التطور من هذه الأصوات . ونتحدث الآن عن أصوات العلة أو الحركات ، وقد سبق لنا أن عرّفناها من قبل ، فقلنا : إنها هى الأصوات المجهورة ، التى يحدث فى تكوينها ، أن يندفع الهواء فى مجرى مستمر ، خلال الحلق والفم ، وخلال الأنف ، معهما أحيانا ، دون أن يكون هناك عائق يعترض مجرى الهواء اعتراضا تاما ، أو تضييق لمجرى الهواء ، من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا .

ويعرفها « دانيال جونز » بأنها : « أصوات مجهورة يخرج الهواء عند النطق بها ، على شكل مستمر من البلعوم والفم ، دون أن يتعرض لتدخل الأعضاء الصوتية، تدخلا يمنع خروجه ، أو يسبب فيه احتكاكا مسموعا (١) » .

فأصوات العلة على هذا أصوات مجهورة كلها ؛ بمعنى أن الأوتار الصوتية تهتز عند حدوث أى صوت منها ؛ وإن كان الدكتور أيوب ، يزعم أن هناك حركات مهموسة؛ فيقول : « اشترط جونز فى تعريف الحركة أن تكون مجهورة . وسبب هذا الشرط ، أن الحركة صوت لاتتدخل عند النطق به ، أعضاء النطق العليا على الإطلاق ، أو تتدخل تدخلا لا يحدث احتكاكا مسموعا . وعلى ذلك فلولا الجهر الذى هو تدخل الأوتار الصوتية ، لمر الهواء

---

(١) انظر كتابه : D. Jones, An Outline 97

من الرئتين إلى الخارج ، دون تدخّل يذكر ، تماما كما يحدث عند الزفير . وقد قال بضرورة الجهر فى الحركات ، حتى تكون الحركة صوتا مسموعا ، ولا تكون مجرد زفير . ولكن شرط جونز هذا لامبرر له ، فنحن فى دراسة الأصوات دراسة وصفية نَصِف الواقع ، فلو أن هناك حركة مهموسة ، تقوم بوظيفة فى الكلمة ، فإنه يجب أن ندخلها فى حسابنا ، سواء أشبهت الزفير أو لم تشبهه . وفى اللهجة المصرية مثلا ، يمكن مقارنة الكلمة : (سَك) بمعنى أقفل ، والكلمة : (مقاسَك) ، وسنلاحظ أن فتحة السين فى : (مقاسك) مهموسة ، بينما هى فى : (سك) مجهورة ، ومادام هذا الفرق واقعيا ، فلابد للواصف من اعتباره ، والقول حينئذ بوجود فتحة مهموسة [١] » .

وتتحدد أنواع الحركات ، بحركة مقدمة اللسان نحو سقف الحنك ، أو حركة مؤخرة اللسان نحو سقف الحنك كذلك ؛ فإن كان اللسان مستويا فى قاع الفم ، مع انحراف قليل فى أقصاه نحو أقصى الحنك ، وتركت الهواء ينطلق من الرئتين ، ويهز الأوتار الصوتية وهو مارّ بها ، نتج عن ذلك صوت الفتحة (a) فإذا تركت مقدمة اللسان تصعد نحو وسط الحنك الأعلى بحيث يكون الفراغ بينهما كافيا لمرور الهواء ، دون أن يحدث فى مروره بهذا الموضع أى نحو من الاحتكاك والحفيف ، وجعلت الأوتار الصوتية تهتز مع ذلك ، نتج صوت الكسرة الخالصة (i) ، ولو صعدت مقدمة اللسان أكثر من ذلك ، نحو وسط الحنك ، بحيث يحدث احتكاك للهواء المار بهذا الموضع،نتج عن ذلك صوت « الياء » ؛ ولذلك يعد علماء الأصوات « الياء » صوتا شبيها بالحركة (Semivowel) ؛ وذلك لأن وضع مقدمة اللسان مع « الياء » أقرب إلى سقف الحنك ، من وضعها مع الكسرة ، والفراغ بينهما أقل ، بحيث يسمح

---

(١) أصوات اللغة ١٧٦

للهواء المار بالاحتكاك ، فيحدث الحفيف الذى يسمع مع صوت « الياء » ولا يسمع مع صوت الكسرة .

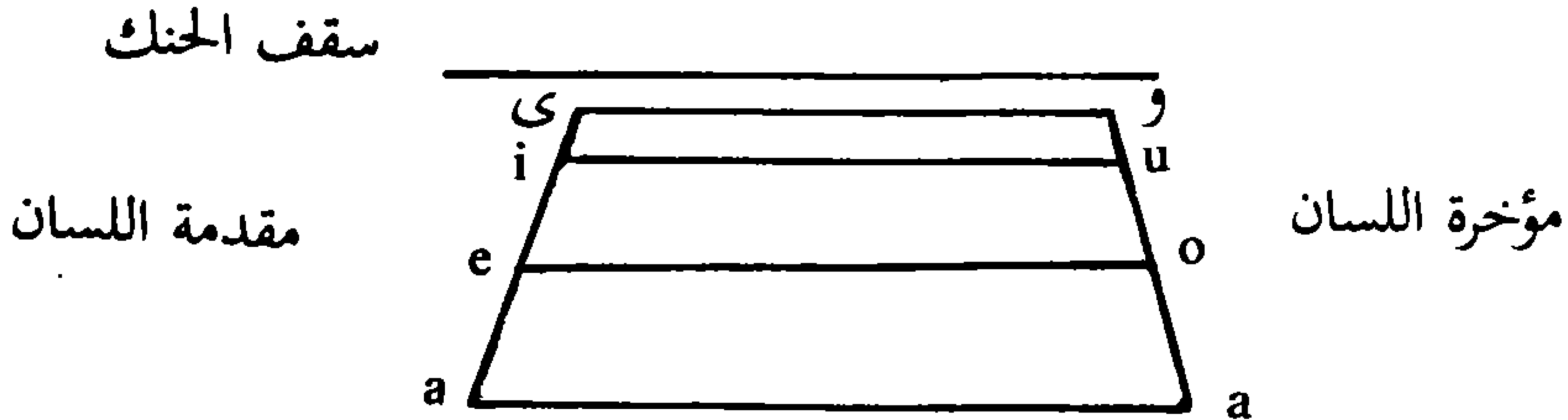
وبين وضعى اللسان فى صوتى الفتحة والكسرة ، أو بمعنى آخر بين وضعه فى قاع الفم ، وارتفاع مقدمته نحو وسط الحنك بحيث تحدث الكسرة الخالصة ــ أوضاع كثيرة ، تحدث بسببها أنواع متعددة من الحركات ، أبرزها فى أذهاننا صوت الكسرة الممالة : (e) .

أما إذا ارتفع أقصى اللسان نحو سقف الحنك ، بحيث لا يحدث للهواء المار بهذه المنطقة ، أى نوع من الحفيف ، مع حدوث ذبذبة فى الأوتار الصوتية ، فإن الصوت الذى ينتج عن ذلك هو صوت الضمة الخالصة : (u) ، فإذا ارتفع أقصى اللسان نحو سقف الحنك ، أكثر من هذا ، بحيث يسمح للهواء الخارج بالاحتكاك ، وإحداث نوع من الحفيف ، نتج عن ذلك صوت : « الواو » ؛ ولذلك يعد علماء الأصوات صوت « الواو » من الأصوات الشبيهة بالحركات (Semivowel) كذلك ؛ لأن الفرق بينه وبين الضمة الخالصة ، فى قرب أقصى اللسان من سقف الحنك مع الواو ، أكثر منه مع الضمة .

وبين وضع اللسان فى صوت الفتحة ، ووضعه فى صوت الضمة ، أو بعبارة أخرى بين وضع اللسان فى قاع الفم وارتفاع مؤخرته نحو سقف الحنك ، بحيث تحدث الضمة الخالصة ، أوضاع كثيرة تحدث عنها حركات متعددة ، أبرزها فى أذهاننا صوت الضمة الممالة : (o) .

ولاشك أن الشفتين لهما أثر فى إحداث كل حركة من هذه الحركات جميعها ، لايمكن إغفاله ، فهما منفرجتان مع بعض هذه الحركات ، ومستديرتان مع بعضها الآخر . وتختلف درجة الانفراج والاستدارة فى صوت عن الآخر .

وفيما يلى تخطيط يبين وضع اللسان مع الحركات المختلفة :



ويطلق علماء الأصوات على صوت الفتحة اسم : « صوت العلة المتسع » ، كما يطلقون على صوتى الضمة والكسرة ، اسم : « أصوات العلة الضيقة » . وهذا التقسيم له أهميته فيما يصيب هذه الأصوات كلها من تطور أو تغيير ؛ إذ إنه من الملاحظ أن مايصيب الضمة يجرى مثله فى الغالب على صوت الكسرة ؛ لأن كلا منهما من أصوات العلة الضيقة .

وعلى ذلك ليست الضمة عدوّة للكسرة ، كما يتردد فى بعض كتب العربية ، بل هما من فصيلة واحدة ، وذلك على العكس من صوت الفتحة ، الذى يعدّ قسيما للضمة والكسرة ، له ظواهره وأحكامه الخاصة .

وقد فطن بعض علماء العربية ، إلى علاقة القربى بين الكسرة والضمة من جهة،وبين ياء المدّ وواوه (وهما تطويل للكسرة والضمة) من جهة أخرى ؛ قال ابن درستويه : « كل ماكان ماضيه من الأفعال الثلاثية ، على فَعَلْت ، بفتح العين ولم يكن ثانيه ولا ثالثة من حروف اللين ولا حروف الحلق ، فإنه يجوز فى مستقبله : يفعُل ، بضم العين ، ويفعِل بكسرها ؛ كقولنا : ضَرَبَ يَضْرِب ، وشَكَرَ يَشْكُر . وليس أحدهما أولى به من الآخر ، ولا فيه عند العرب إلا الاستحسان والاستخفاف . فمما جاء وقد استعمل فيه

الوجهان ، قولهم : ينفرُ وينفِر ، ويشتُم ويشتِم ؛ فهذا يدلكم على جواز الوجهين فيه ، وأنهما شيء واحد ؛ لأن الضمة أخت الكسرة (١) » .

وهكذا نرى القرابة بين الضمة والكسرة ، هى السبب فى جواز وقوع إحداهما مكان الأخرى ، فى عين المضارع ؛ ولذلك كانت القبائل العربية القديمة ، لاتثبت على حال واحدة ، فى ضبط عين المضارع بواحدة منهما « قال أبو زيد : طفت فى عليا قيس وتميم مدة طويلة ، أسأل عن هذا الباب صغيرهم وكبيرهم ، لأعرف ماكان منه بالضم أولى ، وماكان منه بالكسر أولى ، فلم أعرف لذلك قياسا ، وإنما يتكلم به كل امرىء منهم على مايستحسن (٢) » .

وقد نص ابن جنى صراحة على علاقة القربى ، بين ياء المد وواوه ؛ فقال : « إن بين الياء والواو قربا ونسبا ، ليس بينهما وبين الألف ؛ ألا تراها تثبت فى الوقف ، فى المكان الذى تحذفان فيه ؛ وذلك قولك : هذا زيد ، ومررت بزيد ، ثم تقول : ضربت زيدا . وتراهما تجتمعان فى القصيدة الواحدة ردفين ، فى نحو قول امرىء القيس :

قد أشهد الغارة الشَّعواء تحملنى
جَرداءُ مَعْرُوقة اللَّحيين سُرْحُوبُ

ثم قال فيها :

كالدَّلو بُتَّتْ عُراها وهى مُثْقَلة
وخانها وَذَمٌ منها وتكْريبُ (٣)

---

(١) تصحيح الفصيح لابن درستويه ١٠٥ وانظر المزهر ١/٢٠٧

(٢) تصحيح الفصيح لابن درستويه ١١٠ وانظر المزهر ١/٢٠٧

(٣) سر صناعة الإعراب ١/٢٣ وانظر ديوان امرىء القيس ٢٢٥ – ٢٢٧

ولهذه العلاقة القوية بين هاتين الحركتين : الضمة والكسرة ، تطورت كل واحدة منهما فى الجعزية ، وهى الحبشية القديمة إلى الكسرة الممالة (e) ، مما يدل على أنهما كانتا فى أذن الحبشى شيئا واحداً ، أو كالشىء الواحد .

والفرق بين الحركات القصيرة والطويلة ، فرق فى الكمية لا فى الكيفية ، بمعنى أن وضع اللسان فى كليهما واحد ، ولكن الزمن يقصر ويطول فى كل صوت ، فإذا قصر كان الصوت قصيرا وإذا طال كان الصوت طويلا . والذى يحدد الطول والقصر هنا ، هو العرف اللغوى عند أصحاب اللغة .

ويقول « كانتينو » فى المدى الذى يستغرقه طول الحركة : « يطلق اسم حركات طويلة ، على الحركات التى يمتد فيها إخراج النفس امتدادا ، يصير معه مدى النطق بها ، مساويا لمدى النطق بحركتين بسيطتين ، وقد يتعدى ذلك [١] » .

ولقدكانت هذه العلاقة بين الطويل والقصير ، من الحركات ، معروفة عند بعض القدماء ؛ يقول الخوارزمى : « الرفع عند أصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة ، وكذلك الضم وأخواته . والكسر وأخواته عندهم ياء ناقصة . والفتح وأخواته عندهم ألف ناقصة . وإن شئت قلت : الواو الممدودة اللينة ضمة مشبعة ، والياء الممدودة اللينة كسرة مشبعة ، والألف الممدودة فتحة مشبعة . وعلى هذا القياس الروم والإشمام نسبتهما إلى هذه الحركات ، كنسبة الحركات إلى حروف المدّ واللين ، أعنى الألف والواو والياء [٢] » .

---

(١) دروس فى علم أصوات العربية ١٤٥ .

(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمى ٣١ .

وطول الحركة أو قصرها ، ليس محدوداً بزمن معين فى أية لغةمن اللغات ، وإنما هو أمر نسبى مرهون بسرعة الأداء وبطئه « ومن الطبيعى أن يقل طول الأصوات عندما تزيد سرعة الأداء ، وأن تزيد طول الأصوات القصيرة عندما تقل ، ومع ذلك لابد من الاحتفاظ بالفرق بين الأصوات الطويلة والقصيرة ، مهما زادت السرعة أو قلّت . وبهذا المعنى يمكن أن نقول : إن طول الصوت أمر نسبى ، لا أمر مطلق فالصوت الطويل هو الذى يكون أطول من غيره فى نفس اللغة ، ولو كان هذا الصوت الطويل ، ينطق أقصر منه أحيانا أخرى [١]» .

وعلى ذلك فكل صوت من أصوات الحركة السابقة ، يمكن أن يطول معه الزمن ، فيصير طويلا ، فإذا طال الزمن مع صوت الفتحة مثلا ، نتج عنه مايسمى بألف المدّ (ā) وإذا طال مع الكسرة الخالصة ،نتج عن ذلك مايسمى بياء المدّ (ī) وإذا طال مع الضمة الخالصة ، نتج عنها مايسمى بواو المدّ (ū) وكذلك الحال مع الكسرة الممالة (ē) والضمة الممالة (ō) .

وليس أمر الطول والقصر خاصا بالأصوات المتحركة وحدها ، بل إن الصوامت تطول وتقصر كذلك ؛ وإن مانعرفه باسم الحرف المشدّد ، أو الصوت المضعف ، ليس فى الحقيقة صوتين من جنس واحد ، الأول ساكن والثانى متحرك ــ كما يقول نحاة العربية ، وإنما هو فى الواقع صوت واحد طويل ، يساوى زمنه زمن صوتين اثنين .

ولذلك يرى « ماريو پاى » أن « اصطلاح الصامت المضعف (double consonant) هو اصطلاح مضلل حقا ؛ لأنه قد استعير من طريقة الكتابة ؛

---

(١) أصوات اللغة للدكتور أيوب ١٤٩ .

ففى النطق ، يمدّ الصوت الصامت ، بتطويل مدة النطق به ، إذا كان هذا المدّ ممكنا . ويكون هذا ممكنا إذا لم يكن الصوت الصامت انفجاريا وبما أن الانفجارى لايمكن مدّه عند نقطة مخرجه ، فإن مايسمى تطويلا بالنسبة له ؛ يكون عن طريق إطالة مدة قفل الطريق أمام الصوت قبل تفجيره [(١)] » .

ويعرّف « كانتينو » الحروف المضعفة بأنها « هى التى يمتد النطق بها، فيضاهى مداها مدى حرفين بسيطين تقريبا . وترسم هذه الحروف عادة فى الأبجدية الأوربية بحرفين متتابعين (bb) أو (mm) وهكذا [(٢)]» .

وقد شرح « ڤندريس » فكرة الصوت المضعف ، وأنه ليس إلا صامتا واحدا طويلا ؛ فقال : « ففى كل صامت انفجارى ثلاث خطوات متميزة : الإغلاق أو الحبس ، والإمساك الذى قد يكون طويل المدى أو قصيره ، والفتح أو الانفجار عند إصدار صامت بسيط مثل التاء ، فإن الانفجار يتبع الحبس مباشرة ، والإمساك يضؤل إلى مدىً لايكاد يُحَسّ .

« وعلى العكس من ذلك تظهر الخطوات الثلاث بوضوح ، فيما يسمى **بالصوامت المضعّفة** ، وهى ليست إلا صوامت طويلة ، كما أنها تنطق بقوة أشد مما فى حالة القصيرة . فإذا تركنا مسألة الشدة جانبا ، وجدنا أن مجموعة مثل (atta أتَّ) تتميز عن المجموعة (ata أتَ) بوجود مسافة بين الحبس والانفجار ، يمكن للأذن أن تقدّرها . ومن الخطأ أن يقال بأنه يوجد ساكنان فى atta وساكن (صامت) واحد فى ata ؛ فالعناصر المحصورة بين الحركتين فى كلتا المجموعتين واحدة : عنصر انحباسى ، يتبعه عنصر انفجارى . ولكن بينما نجد

---

(١) أسس علم اللغة ١٤٦

(٢) دروس فى علم أصوات العربية ٢٥

العنصر الانحباسى فى ata يتبعه العنصر الانفجارى مباشرة ، نجده فى atta ينفصل عنه بإمساك ، يطيل مدى الإغلاق [١] » .

ولم تكن هذه الفكرة خافية على بعض قدامى اللغويين العرب ؛ فهذا ابن جنى يقول : « الحرف لما كان مدغما ، خَفِىَ **فنبا اللسان عنه وعن الآخر بعد نبوة واحدة** ، فجريا لذلك مجرى الحرف الواحد [٢] » . كما يقول أيضا : « إدغام الحرف فى الحرف ، أخف عليهم من إظهار الحرفين ، ألا ترى أن اللسان ينبو عنهما معاً نبوة واحدة [٣] » .

كما يقول صاحب مراح الأرواح : «**الإدغام إلباث الحرف فى مخرجه مقدار إلباث الحرفين** [٤] » ، كما يقول أيضا : « المشدّد زمانه أطول من زمان الحرف الواحد ، وأقصر من زمان الحرفين [٥]» .

ولعل الذى دعا النحاة العرب ، إلى اعتبار المشدد حرفين ، أنه يقوم فى اللغة أحيانا ، بوظيفة صوتين ؛ فقول العرب مثلا : « يذّكر » ، الذال الطويلة فيه تنوب مناب التاء والذال فى : يتذكر .

* * *

---

(١) اللغة لفندريس ٤٨

(٢) الخصائص ١/٩٢

(٣) الخصائص ٢/٢٢٧ وانظر كذلك : المقتضب للمبرد ١/١٩٧

(٤) مراح الأرواح ٨٢

(٥) مراح الأرواح ٨٣

هذا ، وليست كل الأصوات الإنسانية على السواء فى نسبة الوضوح السمعى ، فبعضها أوضح من بعض . ويمكن أن تقسم إلى الأقسام التالية ، متدرجة من الانخفاض إلى الارتفاع :

١ ـــ المهموسة الانفجارية ؛ مثل : ت / ك / ب .

٢ ـــ المهموسة الاحتكاكية ؛ مثل : ش / س / ث / ف .

٣ ـــ المهموسة المزدوجة ؛ مثل : تْش .

٤ ـــ المجهورة الانفجارية ؛ مثل : ب / د / الجيم القاهرية .

٥ ـــ المجهورة الاحتكاكية ؛ مثل : ف / ذ / ز / الجيم الشامية .

٦ ـــ المجهورة المزدوجة ؛ مثل : الجيم الفصيحة .

٧ ـــ الأصوات الأنفية ؛ مثل : م / ن .

٨ ـــ الأصوات التكرارية والجانبية ؛ مثل : ر / ل .

٩ ـــ الحركات الضيقة ؛ مثل : الضمة والكسرة .

١٠ ـــ وأوضح الأصوات جميعا هى الحركات المتسعة كالفتحة المفخمة .

ومعرفة ذلك كله يفيد فى النواحى التطبيقية ؛ ففى الحديث التليفونى ، وفى التسجيل الإذاعى ، لايكاد المرء يميز الأصوات المهموسة الانفجارية ، كالتاء والكاف ، ولكنه عن طريق السياق أو المعنى العام يفترض وجودها . ويتم هذا الفرض دون شعور متعمد منه ، أى أنه يعوض فقدانها فى الحقيقة بوجودها فى خياله .

ولهذا يجدر بالمغنين ومؤلفى الأغانى ، أن يتحاشوا مثل هذه الأصوات فى أغانيهم ، كلما أمكن ذلك ، فهى أصوات لاتكاد تصلح للغناء ، وهى فى نفس الوقت معرضة للسقوط أو الاختفاء فى التسجيل الصوتى (١) .

★ ★ ★

---

(١) انظر : اللغة بين القومية والعالمية ٢٨ – ٢٩ .

المقاطع الصوتية

المقطع الصوتى ، هو كمية من الأصوات ، تحتوى على حركة واحدة ، ويمكن الابتداء بها والوقوف عليها ، من وجهة نظر اللغة موضوع الدراسة ؛ ففى العربية الفصحى مثلا ، لايجوز الابتداء بحركة ، ولذلك يبدأ كل مقطع فيها بصوت من الأصوات الصامتة .

فالمقطع على هذا عبارة عن « قمة إسماع ، غالبا ماتكون حركة ، مضافا إليها أصواتا أخرى عادة ـــ ولكن ليس حتما ـــ تسبق القمة أو تلحقها ، أو تسبقها وتلحقها ؛ ففى : ah قمة الإسماع ، كما هو واضح ، هى : a . وفى it هى : i . وفى do هى : o . وفى get هى : e [1] » .

ويقول « كانتينو » فى تحديده للمقطع الصوتى : « إن الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز التصويت ، سواء أكان الغلق كاملا أو جزئيا ، هى التى تمثل المقطع [2]» .

وتنقسم المقاطع الصوتية عموما إلى قسمين : قصير وطويل ؛ فالقصير هو مابدأ بصوت صامت وجاءت بعده حركة قصيرة ؛ ففى كلمة مثل : « كَتَبَ » مقاطع ثلاثة قصيرة (Ka + ta + ba) والمقطع القصير بهذا المعنى لايكون إلا مفتوحا ، أى أنه يقبل الزيادة عليه ، فإذا زاد عليه شيء ، بأن طالت الحركة ، أو أضيف إليه صامت آخر ، لم يعد المقطع قصيرا ، بل يتحول فى هذه الحالة إلى مقطع طويل .

---

(١) أسس علم اللغة لماريوباى ٩٦ .

(٢) دروس فى علم أصوات العربية ١٩١ .

فالمقطع الطويل إذن ، هو مابدأ بصامت ثم تلته حركة طويلة ؛ مثل كلمة : « فى » فى اللغة العربية ، وهو فى هذه الحالة مفتوح ؛ لأنه يقبل الزيادة عليه .

أما المقطع الطويل المغلق ، فهو مابدأ بصامت تليه حركة ثم صامت آخر ؛ مثل كلمة : « مِنْ » و « عَنْ » وكذلك ما بدأ بصامت تليه حركة طويلة ثم صامت آخر ؛ مثل كلمة : « بابْ » فى الوقف .

وهناك فى العربية الفصحى إلى جانب ذلك ، مقاطع زائدة فى الطول ، وهى مابدأت بصامت ، تليه حركة قصيرة ، بعدها صامتان آخران متتابعان ؛ مثل كلمة : « بِنْتْ » فى الوقف .

وخلاصة هذا القول ، أن فى العربية الفصحى ، خمسة مقاطع هى :

١ ــ مقطع قصير مفتوح = صامت + حركة قصيرة .

٢ ــ مقطع طويل مفتوح = صامت + حركة طويلة .

٣ ــ مقطع طويل مغلق بحركة قصيرة = صامت + حركة قصيرة + صامت .

٤ ــ مقطع طويل مغلق بحركة طويلة = صامت + حركة طويلة + صامت .

٥ ــ مقطع زائد فى الطول = صامت + حركة قصيرة + صامت + صامت .

ودراسة نظام المقاطع فى أية لغة من اللغات ، مما يعين على معرفة الصيغ الجائزة فيها ، كما يعين على معرفة موسيقى الشعر وموازينه .

النبر والتنغيم

حين يتحدث الإنسان بلغته ، يميل فى العادة إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ؛ ليجعله بارزاً أوضح فى السمع مما عداه من مقاطع الكلمة . وهذا الضغط هو الذى يسميه المحدثون من اللغويين « بالنبر » : Stress (Accent) .

ويعرفه الدكتور تمام بأنه « وضوح نسبى لصوت أو مقطع ، إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع فى الكلام [1] . ويقول الدكتور بشر : « معنى هذا أن المقاطع تتفاوت فيما بينها فى النطق قوة وضعفا ، فالصوت أو المقطع المنبور ، ينطق ببذل طاقة أكثر نسبيا ، ويتطلب من أعضاء النطق مجهودا أشد . لاحظ الفرق مثلا فى قوة النطق وضعفه ، بين المقطع الأول فى : (ضَرَبَ) والمقطعين الأخيرين (ضَ / رَ / بَ) ، تجد (ضَ) ينطق بارتكاز أكبر من زميله فى الكلمة نفسها [2] » .

وقد اختلفت آراء العلماء ، حول وجود النبر فى العربية الفصحى ، ومكانه فى الكلمة ، فبينما يقول بروكلمان : « فى اللغة العربية القديمة ، يدخل نوع من النبر ، تغلب عليه الموسيقية ، ويتوقف على كمية المقطع ، فإنه يسير من مؤخرة الكلمة نحو مقدمتها ، حتى يقابل مقطعا طويلا ، فيقف عنده ، فإذا لم يكن فى الكلمة مقطع طويل ، فإن النبر يقع على المقطع الأول منها [3] » — يرى برجشتراسر « أنه لانص نستند عليه فى إجابة مسألة ،

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ١٦٠

(٢) علم اللغة العام : الأصوات ٢١٠

(٣) فقه اللغات السامية ٤٥

كيف كان حال العربية الفصيحة فى هذا الشأن . ومما يتضح من اللغة نفسها ، ومن وزن شعرها ، أن الضغط لم يوجد فيها ، أو لم يكد يوجد ، وذلك أن اللغة الضاغطة ، يكثر فيها حذف الحركات غير المضغوطة ، وتقصيرها ، وتضعيفها ، ومد الحركات المضغوطة ، وقد رأينا أن كل ذلك نادر فى اللغة العربية . وإذا نظرنا إلى اللهجات العربية الدارجة ، وجدنا فيها كلها ــ فيما أعرف ــ الضغط ، وهو فى بعضها قوى ، وفى بعضها متوسط ، غير أنها تتخالف فى موضعه من الكلمة فى كثير من الحالات ؛ فمن المعلوم أن المصريين يضغطون فى مثل : (مطبعة) المقطع الثانى ، وغيرهم يضغطون الأول ، فلو أن الضغط كان قويا فى الزمان العتيق ، لكانت اللهجات ــ على أغلب الاحتمال ــ حافظت على موضعه من الكلمة ، ولم تنقله إلى مقطع آخر (١) » .

هذا هو رأى « برجشتراسر » . أما أنه ليس لدينا نص ، نستند إليه فى معرفة حالة النبر فى العربية القديمة ، فهذا صحيح ، وأما أن العربية لم تكن تنبر ، فإننا نشك فى ذلك الذى قاله برجشتراسر ، وهو يغفل فى كلامه التطور اللغوى ، وتأثير الشعوب المختلفة ، التى غزتها العربية ، بعاداتها القديمة فى النبر ، وأثر ذلك فى اختلاف موضعه من الكلمة ، كما يبدو لنا الآن ، فى تعدد طرق النبر فى مثل كلمة : « مطبعة » .

أما الدكتور إبراهيم أنيس ، فإنه يسلّم بأنه « ليس لدينامن دليل يهدينا إلى موضع النبر فى اللغة العربية ، كما كان ينطق بها فى العصور الإسلامية الأولى ؛ إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين القدماء . أما كما ينطق بها قراء القرآن الآن فى مصر ، فلها قانون تخضع له ، ولا تكاد تشذ عنه (٢) » .

---

(١) التطور النحوى ٤٦ .

(٢) الأصوات اللغوية ١٠٤ .

وقد لخص الدكتور إبراهيم أنيس ، مواضع النبر فى الكلمة العربية فقال : « ينظر أولا إلى المقطع الأخير ، فإن كان من النوعين الرابع والخامس ، كان هو موضع النبر ، وإلا نظر إلى المقطع الذى قبل الأخير ، فإن كان من النوع الثانى أو الثالث ، حكمنا بأنه موضع النبر ، أما إذا كان من النوع الأول ، نظر إلى ما قبله ، فإن كان مثله ، أى من النوع الأول أيضا ، كان النبر على هذا المقطع الثالث ، حين نعدّ من آخر الكلمة ، ولايكون النبر على المقطع الرابع حين نعدّ من الآخر ، إلا فى حالة واحدة ، وهى أن تكون المقاطع الثلاثة التى قبل الأخير ، من النوع الأول (١) » .

فالنبر يقع على المقطع الأخير فى مثل : « نستعينْ » و « ذاكَرْتْ » ، وعلى المقطع قبل الأخير فى مثل : « تعلَّمْ » و « يُعادِى » و « قَاتَلَ » و « يكتُبُ » ، كما يقع على المقطع الثالث من الآخر ؛ فى مثل : « كَتَبَ » و « اجْتَمَعَ » ، وعلى المقطع الرابع من الآخر ؛ فى مثل : « بَلَحَةٌ » و « سَمَكَةٌ » .

وعلى الرغم من أن قدامى اللغويين العرب ، لم يدرسوا « النبر » بمعنى الضغط على بعض مقاطع الكلام ، فإن بعضهم قد لاحظ أثره فى تطويل بعض حركات الكلمة ، ويسميه ابن جنى : « مَطْل الحركات » ؛ فيقول مثلا : « وحكى الفراء عنهم : أكلت لحمَا شاة ، أراد : لَحْمَ شاة ، فمطل الفتحة ، فأنشأ عنها ألفا (٢) » .

كما يقول كذلك : « وكذلك الحركات عند التذكر يمطلن ... وذلك

---

(١) الأصوات اللغوية ١٦ وارجع إلى تقسيمنا السابق للمقاطع .

(٢) الخصائص ٣/١٢٣ .

قولهم عند التذكر مع الفتحة فى قمتَ : قمتا ، أى قمتَ يوم الجمعة ونحو ذلك . ومع الكسرة : أنتى ، أى : أنتِ عاقلة ونحو ذلك . ومع الضمة : قمتو ، فى : قمتُ إلى زيد ونحو ذلك [١]» .

أما التنغيم ، فهو رفع الصوت وخفضه فى أثناء الكلام ، للدلالة على المعانى المختلفة للجملة الواحدة ، كنطقنا لجملة مثل : « لا ياشيخ » للدلالة على النفى ، أو التهكم ، أو الاستفهام ، وغير ذلك . وهو الذى يفرق بين الجمل الاستفهامية والخبرية ، فى مثل : « شفت أخوك » فإنك تلاحظ نغمة الصوت تختلف فى نطقها للاستفهام ، عنها فى نطقها للإخبار .

ولم يعالج أحد من القدماء شيئا من التنغيم ، ولم يعرفوا كنهه . غير أننا لانعدم عند بعضهم ، الإشارة إلى بعض آثاره فى الكلام ، للدلالة على المعانى المختلفة ، وكان ابن جنى أحد الذين التفتوا إلى ذلك ، حين يقول [٢] : « وقد حُذفت الصفة ، ودلت الحال عليها ؛ وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سيرَ عليه ليل ، وهم يريدون : ليل طويل . وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة ، لما دل من الحال على موضعها . وذلك أنك تحسّ فى كلام القائل لذلك ، من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم مايقوم مقام قوله : طويل ، أو نحو ذلك .

« وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملته ؛ وذلك أن تكون فى مدح إنسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلا ! فتزيد فى قوة اللفظ ب (الله) هذه الكلمة ، وتتمكن فى تمطيط اللام ، وإطالة الصوت بها وعليها ، أى

---

(١) الخصائص ١٢٩/٣

(٢) الخصائص ٣٧٠/٢ - ٣٧١

رجلا فاضلا ، أو شجاعا ، أو كريما ، أو نحو ذلك . وكذلك تقول : سألناه فوجدناه إنسانا ! وتمكن الصوت بإنسان ، وتفخّمه ،فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك : إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك . وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان إنسانا ! وتزوى وجهك وتقطّبه ، فيغنى ذلك عن قولك : إنسانا لئيما ، أو لحِزاً ، أو مبخّلا ، أو نحو ذلك» .

* * *

الفصل الثانى
نشأة اللغة الإنسانية

نحب أن نؤكد فى بداية هذا الفصل ، أن العلماء والمفكرين ، لم يختلفوا فى شىء من مسائل علم اللغة ، كما اختلفوا حول موضوع نشأة اللغة . وقد تنوعت آراؤهم ، واختلفت مذاهبهم ، ومع ذلك لم يصلوا فى بحثهم إلى نتائج يقينية ، بل كان جلّ آرائهم يصطبغ بالصبغة الشخصية ، ولم يتجاوز مرحلة الفرض المبنى على الظن والحدس . وفى ذلك يقول « ماريوباى » : « فيما يختص بنشأة اللغة وطبيعتها ، لدينا مصادر تعتمد على الأساطير والحديث المنقول ، والمناقشات الفلسفية ، ولكن تنقصنا الحقائق العلمية فى هذا الصدد (١) » .

ومع ذلك نجد بعضهم ، يحاول أن يعرض نظرياته فى هذا الموضوع ، ملبسا إياها ثوبا علميا ، ومحاولا الدفاع عنها فى صلابة وإصرار . غير أن بعض المعتدلين من علماء اللغة ، سخروا حتى من مجرد التفكير فى إدراج هذا الموضوع ، ضمن بحوث علم اللغة .

وقد قررت الجمعية اللغوية فى باريس ، عدم مناقشة هذا الموضوع نهائيا ، أو قبول أى بحث فيه لعرضه فى جلساتها ، كما أن كثيرا من العلماء ، ذوى الشهرة الذائعة ، والقدم الثابتة فى علم اللغة ، أمثال : « بلومفيلد » Bloomfield و « فيرث » Firth لم يتعرضوا لدراسة هذا الموضوع بشكل علمى ، أو بصورة تنبىء عن أهمية البحث فيه . وقد تناوله « فيرث »

---

(١) لغات البشر ١٧ .

باختصار جدا ، على سبيل أن الكلام فيه ، نوع من الفلسفة اللغوية ، التى قد يكون من المفيد إلمام طالب علم اللغة بها (١) .

ولا بأس أن نلمّ هنا إلماما سريعا ببعض النظريات والآراء ، التى حاول بها العلماء تفسير نشأة اللغة الإنسانية (٢) .

المذهب الأول : مذهب الوحى والإلهام ، أو مذهب « التوقيف » كما يقول ابن فارس اللغوى (٣) . ويتلخص هذا المذهب ، فى أن الله سبحانه وتعالى ، لما خلق الأشياء ، ألهم آدم عليه السلام ، أن يضع لها أسماء فوضعها .

ويستند أصحاب هذا المذهب ، إلى أدلّة نقلية مقتبسة من الكتب المقدسة ، فاليهود والنصارى يستدلون بما ورد فى التوراة من قولها : « وجبل الربُّ الإلهُ من الأرض كل حيونات البريّة ، وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ، ليرى ماذا يدعوها ، وكل مادعا به آدم ذات نفس حية ، فهو اسمها ، فسمى آدم جميع البهائم ،وطيور السماء وجميع حيوانات البرّيّة (٤) » .

ويستدل أصحاب هذا المذهب ، من علماء العرب ، بقوله تعالى : ﴿ وعَلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها ، ثم عَرَضَهمُ على الملائكةِ (٥) ﴾ فكان ابن عباس يقول : « علّمه الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارفها الناس ، من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها (٦) » .

---

(١) انظر : قضايا لغوية ، للدكتور كمال بشر ١١٢

(٢) انظر فى ذلك : لغات البشر لماريوباى ١٧ – ٢٤ وعلم اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى ٧٤ – ٩٧ واللغة لفندريس ٢٩ – ٤٢ ومقالة لمحمد حسين آل ياسين ، بمجلة المورد (العدد الثالث من المجلد السابع) سنة ١٩٧٨ وانظر كذلك : Rosenkranz, Der Ursprung der Sprache, Heidelberg 1961 .

(٣) الصاحبى لابن فارس ٦

(٤) سفر التكوين ١٩/٢ – ٢٠

(٥) سورة البقرة ٣١/٢

(٦) انظر : الصاحبى لابن فارس ٦

وقد اختار ابن فارس اللغوى ، فى كتابه « الصاحبى فى فقه اللغة » هذا المذهب . أما ابن جنى ، فقد تصدى لشرحه والرد عليه ؛ فقال : « وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها (١) » .

المذهب الثانى : مذهب المواضعة والاصطلاح . وهذا المذهب ذكره ابن جنى ، فقال : « إن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة ، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل منها سمة ، ولفظا يدل عليه ، ويغنى عن إحضاره أمام البصر . وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلا على شخص ، ويومئوا إليه قائلين : إنسان ! فتصبح هذه الكلمة اسماًله ،وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه ، أشاروا إلى العضو وقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم ...إلخ .

ويسيرون على هذه الوتيرة ، فى أسماء بقية الأشياء ، وفى الأفعال والحروف ، وفى المعانى الكلية ، والأمور المعنوية نفسها ، وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلا . ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم كلمة : (مَرْد) بدل إنسان ، وكلمة : (سَرْ) بدل رأس ، وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية (٢) » .

وليس لهذا المذهب ، أى سند عقلى أو نقلى أو تاريخى ، بل إن مايقرره ليتعارض مع النواميس العامة ، التى تسير عليها النظمُ الاجتماعية ، فعهدنا بهذه النظم أنها لاترتجل ارتجالا ، ولاتخلق خلقا . بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن التواضع على التسمية ، يتوقف فى كثير من مظاهره ،

---

(١) الخصائص ١/٤٠ — ٤١ .

(٢) الخصائص ١/٤٤ .

على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون . فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن ؟ وهكذا نرى أن مايجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة ، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل .

المذهب الثالث : مذهب المحاكاة . وخلاصته أن الإنسان سمى الأشياء ، بأسماء مقتبسة من أصواتها ، أو بعبارة أخرى أن تكون أصوات الكلمة ، نتيجة تقليد مباشر ، لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء . وتسمى مثل هذه الكلمات عند علماء الغرب : Onomatopoeia .

وقد عرض لهذا الرأى من علماء المسلمين ابن جنى ، فقال : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها ، إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوىّ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونغيق الغراب ، وصهيل الفرس...ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد [(١)] » . وقد ارتضى ابن جنى هذا الرأى فقال معقبا عليه : « وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

وأول من دافع عن هذا المذهب ، من علماء الغرب بالتفصيل العالم الألمانى « هَرْدَر » Harder فى كتابه « بحوث فى نشأة اللغة » Abhandlungen über den Ursprung der Sprache الذى نشره سنة ١٧٧٢ م .

ومما قد يؤيد هذه النظرية ، مانجده فى بعض الأحيان ، من اشتراك فى بعض الأصوات ، فى الكلمات التى تحاكى الطبيعة فى عدة لغات ؛ فإن الكلمة التى تدل على الهمس ، هى فى العربية — كما نعرف : « همس » ، وفى

---

(١) الخصائص ١/٤٦ — ٤٧ .

الإنجليزية Whisper وفى الألمانية « فْلُوسْتِرْنْ » Flüstern وفى العبرية « صَفْصَفْ » ﺻﻔﺼﻒ وفى الحبشة « فَاصَىَ » ፈጸሐ وفى التركية « سُوسْمَكْ » Susmak . فالعامل المشترك بين هذه اللغات جميعها فى تلك الكلمة ، هو صوت الصفير : السين أو الصاد وهو الصوت المميّز لعملية الهمس فى الطبيعة .

غير أن اشتراك اللغات فى الكلمات المحاكية للطبيعة ، على هذا النحو ، أمر نادر . ولو كانت هذه النظرية صحيحة ، للاحظنا اشتراكا بين اللغات فى الكلمات التى تحاكى الطبيعة ؛ مثل : الشقّ ، والدقّ ، والقطع ، والصهيل ، والعواء ، والمواء ، ومإلى ذلك .

ولقد سمعت الديك العربى فى بلاد العرب ، والديك الألمانى فى بلاد الألمان ، يصيحان بطريقة واحدة دون أدنى فرق ، غير أننا نحاكى صوت الديك فنقول : كوكوكو ! ويقول الألمان « كيكيركى » Kikeriki !

ويرى بعض العلماء بناء على هذه النظرية ، أن مناسبة اللفظ للمعنى مناسبة حتمية ، بمعنى أن اللفظ يدل على معناه دلالة وجوب ، لانفكاك فيها . وممن نادى بهذا الرأى : « عبّاد بن سليمان الصيمرى » من المعتزلة ؛ فقد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية ، حاملة للواضع على أن يضع هذه اللفظة أو تلك ، بإزاء هذا المعنى أو ذاك ، ويروون عن بعض من تابعه على رأيه هذا ، أنه كان يقول : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل عن معنى كلمة : « إذغاغ » وهى بالفارسية : الحَجَر ــ كما يقولون ــ فقال : أجد فيه يبسا شديدا ، وأراه الحجر ! (١)

---

(١) انظر : المزهر للسيوطى ٤٧/١

وإننا نشك كثيرا فى صحة هذه الرواية ، وصدق نظرية الصيمرى ؛ فإنه لوصح ماقاله ، لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة على وجه الأرض .

ويمتاز مذهب المحاكاة ، بأنه يشرح لنا مبلغ تأثر الإنسان ، فى النطق بالألفاظ ، بالبيئة التى تحيط به ، غير أن أهم مايؤخذ عليه ، أنه يحصر أساس نشأة اللغة ، فى الملاحظة المبنية على الإحساس بما يحدث فى البيئة ، ويتجاهل الحاجة الطبيعية الماسة إلى التخاطب والتفاهم ، والتعبير عما فى النفس ، تلك الحاجة التى هى من أهم الدوافع إلى نشأة اللغة الإنسانية ؛ فإن الرغبة الذاتية فى التعبير ، والحاجة الماسة إلى التفاهم ، كلاهما من أهم الدوافع ، التى يجب أن يعتد بهافى نشأة اللغة واضطرار الإنسان الأول للنطق بالألفاظ .

هذا إلى أن هذا المذهب ، لايبين لنا كيف نشأت الكلمات الكثيرة ، التى نجدها فى اللغات المختلفة ، ولانرى فيها محاكاة لأصوات المسميات ، ويتضح ذلك بوجه خاص فى أسماء المعانى ؛ كالعدل ، والمروءة ، والكرم ، والشجاعة ، وغير ذلك .

وقد دعا هذا النقص ، العلامة « هردر » المدافع الأول عن هذه النظرية ، إلى العدول عنها فى أخريات حياته ، كما سخر منها « مَكْس موللر » Max Müller اللغوى الألمانى المشهور . ومع ذلك فإن لأصحاب هذه النظرية ، الفضل فى أنها فتحت للباحثين ، باب البحث الفلسفى فى نشأة اللغة ، كما أنها لاتبعد كثيرا فى إرجاعها نشأة اللغة ، فى بعض الأحيان ، إلى ملاحظة خاصة .

المذهب الرابع : نظرية التنفيس عن النفس ، وتتلخص فى أن مرحلة الألفاظ ، قد سبقتها مرحلة الأصوات الساذجة التلقائية الانبعاثية ، التى

صدرت عن الإنسان ، للتعبير عن ألمه أو سروره أو رضاه أو نفوره ، وما إلى ذلك من الأحاسيس المختلفة ؛ فهذه الأصوات الساذجة ، قد تطورت على مر الزمن ، حتى صارت ألفاظا .

ويشرح « ڤندريس » تصور أصحاب هذه النظرية ، لكيفية نشأة اللغة ، فيقول : « عند هذا السلف البعيد ، الذى لم يكن مخه صالحا للتفكير ، **بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة.** ولعلها كانت فى الأصل مجرد غناء ، ينظم بوزنه حركة المشى ، أو العمل اليدوى ، أو صيحة كصيحة الحيوان ، تعبر عن الألم ، أو الفرح ، وتكشف عن خوف أو رغبة فى الغذاء . بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت ، بعد أن زُوّدت بقيمة رمزية ، كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون . ولعل الإنسان وقد وجد فى متناول يده هذا المسلك المريح ، قد استعمله للاتصال ببنى جنسه ، أو لإثارتهم إلى عمل ما أو لمنعهم منه ... هذا الفرض تبدو عليه مخايل الصدق ، وإن لم يكن مما يمكن البرهان عليه (١) » .

وتمتاز هذه النظرية عن سابقتها بأنها تعزو نشأة اللغة الإنسانية إلى أمرذاتى ، أى أنها تعتد بالشعور الوجدانى الإنسانى ، وبالحاجة إلى التعبير عما يجيش بصدر الإنسان ، من انفعالات وأحاسيس . أما النظرية السابقة ، فترجع نشأة اللغة الإنسانية إلى ملاحظة خارجية موضوعية ، أى ملاحظة مظاهر الطبيعة ومحاكاتها فى ابتكار الأسماء الدالة عليها ؛ ولذلك كانت هذه النظرية ، خطوة أخرى فى اتجاه آخر ، نحو البحث عن حل للمشكلة ؛ فإنها تشرح لنا منشأ بعض الكلمات ، التى تعجز النظرية السابقة ، عن شرح منشئها .

---

(١) اللغة لڤندريس ٣٨ — ٣٩

ومع كل هذا فإنها نظرية ناقصة وغامضة . أما نقصها ، فلأنها لاتبين منشأ الكلمات الكثيرة ، التى لايمكن ردّها إلى أصوات انفعالية . وأما غموضها ، فلأنها لاتشرح لنا السرّ فى أن تلك الأصوات الساذجة الانفعالية ، تحولت إلى ألفاظ أو أصوات مقطعية ؛ فلهذين الأمرين انصرف عنها اللغويون ، وسخر منها « مكس موللر » كذلك .

المذهب الخامس : نظرية الاستعداد الفطرى . وهى النظرية التى أذاعها اللغوى الألمانى : « مكس موللر » ، ودعاها نظرية : « دِنج دُونج » Ding Dong . وخلاصتها أن الإنسان مزوّد بفطرته ، بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة ، كما أنه مطبوع على الرغبة فى التعبير عن أغراضه ، بأية وسيلة من الوسائل ، غير أن هذه القدرة على النطق بالألفاظ ، لاتظهر آثارها إلا عند الحاجة ، أو فى الوقت المناسب .

وحينما سمى « مكس موللر » نظريته هذه ، بنظرية « دنج دونج » إنما كان يريد أن يشبه هذه القوة الفطرية ، بلولب الساعة الملتف فى باطنها ، ويشبه حوادث الزمن ببندول الساعة ، الذى يتحرك ، فيخرج بتحركه القوة الكامَنة فى الساعة ، التى ينطوى عليها اللولب ؛ فالزمن ومقتضيات الأحوال ، هى التى تخرج هذه المقدرة من حيز القوة إلى حيز الفعل . وكأن النفس البشرية مخزن ممتلىء بالألفاظ ، ينفتح شيئا فشيئا بمفتاح الزمن ومقتضيات الحياة الواقعية .

ولعل الذى دعا « مكس موللر » إلى وضع هذه النظرية ، ملاحظة الأطفال ، فى حياتهم اليومية الحرّة ، التى تدل على أنهم تواقون إلى وضع أسماء للأشياء ، التى يرونها ولا يعرفون لها أسماء ، وأنهم يبتكرون أسماء لم يسمعوها

من قبل ، إرضاء لرغبتهم الفطرية فى التكلم والتعبير عن أغراضهم ، فاستنبط من ملاحظته هذه أن الإنسان مزود بتلك القوة ، التى تنشأ عنها الألفاظ .

وهذه النظرية لاتحل المشكلة ، فإن لنا أن نسأل صاحبها : كيف ومتى زُوّد الإنسان بهذه الذخيرة اللغوية ؟ وكيف انطوت نفسه على تلك الألفاظ الكاملة ؟ وإذا كان قد زوّد بفطرته بهذه الألفاظ ، فلم اختلفت اللغات وتعددت اللهجات ؟ فإننا نكاد نجزم بأن آثار القوى الفطرية ، لابدّ أن تكون متحدة إلى حدّ ما . ثم كيف تسنّى للإنسان أن يخرج تلك الألفاظ من مكامنها ، ويطلقها على المسميات المختلفة ؟

فهذه النظرية ، تنقل الباحث من مشكلة إلى مشكلات أعمق منها ، وأشد غموضا ولبسا . وربما كان من أبرز عيوبها أنها تفترض ظهور الكلمة أو الكلمات الأولى لدى الإنسان ، كاملة غير خاضعة لسنة التطور .

المذهب السادس : نظرية الملاحظة ، صاحبها هو العالم الألمانى : « جَيْجَر » Geiger ؛ فقد برهن هذا العالم على أن أقدم ماأمكنه الوصول إليه ، من الأصوات اللغوية الأولى ، يعبر عن أعمال أو إشارات إنسانية . ومن هذه الحقيقة ، استنبط أن تلك الأعمال والإشارات ، كانت لامحالة ، هى التى لفتت نظر الإنسان الأول ، وأثارت اهتمامه ، وأنها كانت أول ماعرف الإنسان عن أخيه الإنسان ؛ ولذا تمكنت من نفسه وحلّت منها مكانا حصينا ؛ فإن مشاهدة الإنسان لغيره ، وهو متلبس بعمل من الأعمال الهامة ، أو متأثر بحال انفعالية قاسية ، أثارت أقصى اهتمامه ، وجعلته يتأثر به تأثرا آليا ، بطريق المحاكاة العكسية ، فتظهر على وجهه علامات التأثر نفسها ، البادية على وجه زميله . وقد حمله هذا الانتباه إلى العمل ، وملاحظته أخاه وهو يعمل ،

على أن تصدر منه ، إشارة تلقائية ، أو صوت ساذج معبر عن هذه الملاحظة . وعلى مر الأيام ، وبتكرار التجارب المتشابهة ، تطورت الأصوات إلى كلمات ، واستغنى عن الإشارات كلها ، أو بعضها على الأقل .

وقد أقبل « جيجر » على كثير من الكلمات المستعملة فى اللغات الأوربية ، وأرجعها إلى أصول « إغريقية ــ سنسكريتية » ، تدل على عمل من أعمال الإنسان ؛ مثال ذلك : الأصل الإغريقى ، الذى معناه : « الكشط » أو « السلخ » ، اشتقت منه كلمات معانيها : الجلد والخشب والشجر . وهنا نرى العلاقة واضحة بين هذه الفروع وأصلها ؛ فإن الجلد هو مايسلخ ، والخشب شجر كشط لحاؤه ، والشجر مايكشط ليؤخذ منه الخشب .

وبالطريقة عينها انحدرت الكلمة الإنجليزية : Night بمعنى : « ليل » من أصل سنسكريتى هو : ang أو ungo بمعنى : « الصبغ باللون الأسود » .

ومما قد يؤيد هذا المذهب ، أن جميع أسماء الآلات تقريبا ، مشتقة من كلمات تدل على أعمال إنسانية . وإنك لترى هذه الحقيقة ماثلة فى لغتنا العربية ؛ فلدينا مثلا : المنشار ، والمفتاح ، والمقراض ، والمقصّ ، والمخرز ، وكلها مشتقات من أصول يدل كل واحد منها ، على عمل من أعمال الإنسان الهامة .

ومع أن وضع هذه النظرية ، يعدّ خطوة أخرى فى سبيل حل المشكلة ، فإنها لم تستطع أن توضح لنا ، بأسلوب مفهوم معقول ، كيف وضعت تلك الأصول العامة الأولى ، التى يقول صاحب النظرية ، إنها تتعلق بأعمال الإنسان أو إشاراته ، والتى يعدها الكلمات الأولى ، التى اشتقت منها غيرها من الكلمات . على أنه من المتعذر ، إرجاع جميع الكلمات التى تتكون منها اللغات كلها ، إلى تلك الأصول العامة .

المذهب السابع : نظرية التطور اللغوى . وقد تأثر واضعو هذه النظرية ، بنظرية التطور العام ، التى أذاعها « دارون » Darwin وحاول أن يبرهن على أثرها فى جميع النواحى بعامة ، وفى حياة الفرد والنوع الإنسانى بخاصة . وقد أدت دراسة النمو اللغوى عند الطفل ، إلى ادعاء أصحاب هذه النظرية ، بأن هذا النمو يشبه تطور لغة النوع الإنسانى . وهم يزعمون أن لغة الإنسان الأول ، سلكت مراحل فطرية متعددة ، متمشية مع مراحل نموه العقلى . وهذه المراحل هى :

١ ــ مرحلة الأصوات الساذجة الانبعاثية ، التى صدرت عن الإنسان فى العصور الأولى ، حين كانت أعضاء النطق لديه غير ناضجة ، وميوله ورغباته غير محددة . وإننا نلاحظ نظير هذه المرحلة فى الطفل ، حين تصدر عنه فى أول عهده بالنطق بعض أصوات مبهمة ، لايفهم منها فى كثير من الأحيان ، رغبة ولا غرض معين .

٢ ــ مرحلة الأصوات المكيَّفة المنبئة عن الأغراض والرغبات ، المصحوبة بالإشارات المتنوعة ، التى تساعد الأصوات ، مساعدة فطرية ، فى الإبانة عن الأغراض . وقد ساعد على هذا التطور فى الأصوات وتكيفها ، نموّ أعضاء النطق من جهة ، ونمو الإحساس والشعور الذاتى لدى الإنسان من جهة أخرى . والأصوات المكيّفة هى المتنوعة ، لاختلافها فى الشدة والرخاوة ، والجهر والهمس ، وغير ذلك .

وتناظر هذه المرحلة فى نمو الطفل اللغوى ، تلك المرحلة التى يصل إليها فى أواخر السنة الأولى من حياته ، وذلك حين تصدر عنه أصوات مكيفة ، مصحوبة بإشارات منبئة عن أغراضه . وفى هذه المرحلة من مراحل النمو اللغوى عند الإنسان لم يكن هناك فرق ، بين أصوات الإنسان وأصوات

الحيوان ، الدالة على شعوره بالخوف أو الحنين ، أو النفور أو الرضا ، أو القلق والاضطراب ، وعلى شعوره بالحاجة إلى المعونة ، فهو بهذه الأصوات يعبر عن شعوره ، ويستغيث بغيره من بنى جنسه .

٣ ـــ مرحلة المقاطع . وفيها انتقلت لغة الإنسان من أصوات غير محددة المعالم ، إلى أصوات محددة ، فى صورة مقاطع قصيرة ، مستنبطة من أصوات الأشياء أو الظواهر الطبيعية ، أو على الأقل متأثرة بها إلى حد بعيد .

ويبدأ الطفل مرحلة تناظر هذه المرحلة ، فى الشهور الأولى من السنة الثانية ، وذلك حين ينطق بمقاطع متكررة ، يطلب بها مايريد ، أو يدل بها على أشياء معينة ، متأثرا فى ذلك بما يسمعه مما حوله من الحيوانات ، أو ممن يرى فى محيطه من الناس . ولايزال يكرر هذه المقاطع ، حتى تنطبع فى نفسه ، وتتكون منها لغته البدائية .وكثير من الأطفال يطلقون فى هذه السن ، كلمة : « هَوْ هَوْ » على الكلب ، وكذلك « نَوْ نَوْ » على القط ، و «تِكْ تِكْ» على الساعة ، وغير ذلك .

٤ ـــ مرحلة الكلمات المكونة من المقاطع . وفى هذه المرحلة تتكون من المقاطع التى سبق الحديث عنها ، الكلمات أو الأصول العامة ، التى استعملها الإنسان الأول لقضاء حاجاته ، والتعبير عن أغراضه ورغباته . ومن هذه الأصول الأولى اشتق الإنسان كثيرا من الفروع ، وبالتأليف بين هذه الفروع وتلك الأصول ، اكتمل تكوين اللغة الفطرية .

وقد وصل الإنسان إلى هذه المرحلة ، حين اكتمل عقله ، ونضجت أعضاؤه الصوتية ، واتسع نطاق حياته الاجتماعية ، وكثرت رغباته ، واشتدت حاجته إلى التفاهم مع غيره .

ويوازى هذه المرحلة عند الطفل ، تلك المرحلة التى يستطيع فيها التكلم ، كما يتكلم غيره ممن يحيطون به . ويتألف معجمه اللغوى من الكلمات الشائعة فى بيئته ، واللازمة للتعبير عن أغراضه .

٥ ـــ مرحلة الوضع والاصطلاح . وهذه آخر مرحلة من مراحل النمو اللغوى . وهى وإن لم تكن مرحلة فطرية، فإنها تقوم على أساس فطرى ؛ ذلك هو حاجة الإنسان الملحّة ، إلى الاحتكاك ببيئته ، والقبض على ناصيتها ، ومسايرة اللغة التى يستخدمها لتفكيره وعقله ، ومشاهداته التى يتسع نطاقها على مر الأيام ، وكثرة التجارب ، وتشعب دروب الحياة .

وفى هذه المرحلة ، وضعت المصطلحات العلمية ، وابتكرت الأسماء الدالة على المسميات المستحدثة . ولاتزال اللغة تنمو باطراد ، ولايزال عدد مفرداتها يزداد ، كلما أوغل الإنسان فى التحضّر ، وازداد نموّه الفكرى ازدياداً ، لايظهر أنه سيقف عند حد .

ويوازى هذه المرحلة ، مرحلة النمو اللغوى ، عند الطفل ، عندما يذهب إلى المدرسة ، ويدرس العلوم والفنون ، ويتعلم بعض المصطلحات العلمية والفنية المختلفة .

هذا هو مذهب التطور اللغوى ، فى نشأة اللغة الإنسانية . ويمتاز بعدّة أمور :

الأول : أنه يخضع نشأة اللغة وتطورها ، إلى سنّة التطور العام ، شأنها فى ذلك شأن كل كائن حى ، ينشأ صغيرا ساذجا ، ثم ينمو شيئا فشيئا ، بحكم طبيعته ، والبيئة التى ينشأ فيها . وما اللغة إلا ظاهرة اجتماعية ، تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل التطور .

الثانى : أنه يشرح لنا السر فى نمو اللغة ، من حيث متنها وأساليبها . ويعزو ذلك إلى سلوك الإنسان مسلك التقدم والرقى ، فى جميع مقومات حياته الخاصة ، وظروفه الاجتماعية ، وإلى حاجته الماسة إلى تنمية لغته ، لتساير حياته ، ولتسعفه حين يريد التعبير عن أفكاره أو رغباته المتزايدة على الدوام .

الثالث : أنه لايمنع أن يكون هناك أكثر من عامل واحد فى نشأة اللغة وتطورها ؛ فمن الجائز ، بل يكاد يكون من المحقق — فى نظر أصحاب هذا المذهب — أن يكون الإنسان ، قد تأثر فى إصدار الأصوات الساذجة أو المكيفة ، بما سمع من أصوات الحيوان ، أو الظواهر الطبيعية ، وأن بعض تلك الأصوات ، كان تعبيرا تلقائيا عن آلامه ورغباته وانفعالاته وعواطفه . هذا إلى أن هذا المذهب ، لاينكر أثر الاشتقاق والوضع ، فى تنمية متن اللغة ، وتوسيع نطاقها .

تلك هى أشهر المذاهب ، التى ابتكرت لتفسير نشأة اللغة الإنسانية . وهناك بعض المذاهب الأخرى ، التى ضربنا صفحا عن ذكرها ، لتفاهتها ، أو لتضمنها فيما تقدم من المذاهب .

ولكن .. هل وصلت هذه النظريات المختلفة ، إلى حل واضح لهذا الموضوع الشائك ، موضوع نشأة اللغة الإنسانية ؟ بالطبع لا ...! وإن هذا المذهب الأخير ، على الرغم مما يبدو فيه من ثوب علمى ، فإن فيه كذلك عيبا خطيرا ، وهو أنه يتخذ الطفل أساسا ، لتطبيق مراحل نمو اللغة عند الإنسان الأول ، مع أن هناك فارقا مهما بين لغة الطفل ، ولغة هذا الإنسان الأول ؛ ذلك لأن الطفل يكتسب هذه اللغة من أبويه ، والمحيطين به ، وهم لايملّون من ترديد المقاطع التى يتفوه بها الطفل ، ويصلحون له أخطاءه ، حتى يصل إلى مرحلة النضج اللغوى ، ولم يكن هذا أمرا متيسرا

للإنسان الأول ، الذى كان يسير على غير هدى فى لغته ، لايجد أمامه من يردد مقاطعه وجمله ، ليحاكيها ويصل بها إلى مراحل النضج والإحكام .

وفى ذلك يقول « ماريو پاى » : كان من الطبيعى أن يلجأ الباحثون إلى دراسة تطور مهارة الكلام عند الطفل منذ مولده ، إبان محاولتهم إلقاء الضوء على نشأة اللغة وتطورها . وعندما أجريت هذه التجارب على أطفال أسوياء ، فى ظروف طبيعية ، انتهت — فيما يتعلق بنشأة اللغة وتطورها — إلى نتائج غير مقنعة ، فكل مادلت عليه هذه التجارب ، هو أن الطفل يحاكى حديث الكبار فى المجتمع الذى يعيش فيه .

« ويحدثنا التاريخ عن ثلاثة رجال على الأقل ، حاولوا أن يعزلوا الأطفال منذ مولدهم ، حتى يثبتوا ما إذا كان الطفل يستطيع أن يتحدث بلغة ، ليست فى أصلها مبنية على محاكاة للكبار ؛ فيروى (هيرودوت) أن الفرعون المصرى (پسماتيك) قد أجرى هذه التجربة على طفلين ، وأن أول كلمة نطقا بها ، هى كلمة : (بيكوس) Bekos ومعناها : (خبز) باللغة الفِريجِيَّة [1] . عندئذ ثبت للفرعون المصرى ، أن هذه اللغة ، هى أصل اللغات فى العالم .

« وقام (فريدرك الثانى) فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى ، بتجربة مماثلة ؛ ويقال إن الطفلين ماتا قبل أن يصل الباحثون إلى نتائج حاسمة . ويدّعى (جيمس الرابع) ملك اسكتلندا (حوالى سنة ١٥٠٠ م) أن الأطفال الذين أجرى عليهم تجربته ، قد استطاعوا أن يتحدثوا باللغة العبرية بطريقة مفهومة . ولما كانت الضوابط العلمية تنقص هذه التجارب

---

(١) فريجيا Phrygia دولة قديمة فى آسيا الصغرى .

الثلاث ، فلا يمكننا أن نصل إلى نتائج مقنعة على أساسها ، خاصة فيما يتعلق بنشأة اللغات [١]» .

وهكذا نرى أن موضوع نشأة اللغة ، لايزال الخوض فيه ، من الأمور الفلسفية الميتافيزيقية ، التي تخرج الباحث فيها ، عن نطاق الحقائق العلمية ، إلى البحث فيما وراء الطبيعة ، وفى أمور لانملك منها اليوم أية وثائق أو مستندات ، والله أعلم .

★ ★ ★

---

(١) لغات البشر ١٩ وانظر اللغة لفندريس ٣٤ ودلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس ٩ - ١١ وانظر كذلك حديثا مطولا عن طفلتين من الهند ، خطفتهما الذئاب وربتهما ، فى كتاب « البلاغة العصرية » لسلامة موسى ٧ - ١٠

الفصل الثالث
علم اللغة والمجتمع الإنسانى

ليست اللغة بمعزل عن العلوم الأخرى ، فلها « ارتباط وثيق بعلوم الطبيعة ، فإن أصوات لغة الكلام ، تنتج وتستقبل عن طريق أجهزة الجسم الإنسانى . وتركيب هذه الأجهزة ووظائفها جزء من علم وظائف الأعضاء . وكذلك فإن انتقال الصوت على شكل موجات صوتية عبر الهواء ، يدخل فى اختصاص علم الطبيعة ، وبخاصة ذلك الفرع ، المعروف بعلم الصوت . ولكن اللغة ، من ناحية أخرى ، لها علاقة وثيقة بعلم الإنسان ، وعلم الاجتماع ، باعتبارها نتاج علاقة اجتماعية ، ووسيلة نقل الثقافة ، التى تعدّ من وجهة نظر علم الإنسان ، مجموعة تقاليد الشعب ، وأوجه استعمالاته للغته . وبالنظر إلى وظيفة اللغة ، كتعبير عن الفكر ، يمكن اعتبار اللغة جزءا من علم النفس [1] » .

ونتناول فى هذا الفصل ، علاقة اللغة بالمجتمع الإنسانى ، وقد ذكرنا من قبل ، أن اللغة نشاط اجتماعى ، من حيث إنها استجابة ضرورية ، لحاجة الاتصال بين الناس جميعا ؛ ولهذا السبب يتصل علم اللغة اتصالا شديدا ، بالعلوم الاجتماعية ، وأصبحت بعض بحوثه تدرس فى علم الاجتماع ؛ فنشأ لذلك فرع منه يسمى : « علم الاجتماع اللغوى » ، يحاول الكشف عن العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية ، وبين أثر ذلك تلك الحياة الاجتماعية فى الظواهر اللغوية المختلفة .

---

(١) انظر : أسس علم اللغة لماريوباى ٤٢

وقد تنبه اللغويون إلى مثل هذه البحوث ، بعد أن رأوا الدراسات ، التى تقوم بها المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، التى أنشأها « دوركايم » Durkheim فى أوائل القرن العشرين ، وانضم إليها كثير من علماء اللغة فى فرنسا وألمانيا وانجلترا وسويسرا والدانيمارك ، وكثير من أساتذة الجامعات فى أوربا وأمريكا .

ومن العلماء من لم ينضم انضماما إيجابيا إلى هذه المدرسة غير أنهم تأثروا بعقلية « دوركايم » الجبارة ؛ وبذلك أصبحت بحوث المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، أساسا للبحوث اللغوية فى كثير من الأحيان ؛ إذ طبقت نظريات علم الاجتماع العام على اللغة ، وحاول الباحثون أن يبينوا لنا أثر المجتمع ونظمه وحضاراته المختلفة ، على الظواهر اللغوية ، باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعى أولا وقبل كل شيء ؛ ولذلك كانت اللغة كائنا حيا كالإنسان سواء بسواء ؛ لأنها ألصق الظواهر الاجتماعية به .

ويقول ڤندريس : « فى أحضان المجتمع تكونت اللغة ، ووجدت يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم بينهم ، وتنشأ من احتكاك بعض الأشخاص ، الذين يملكون أعضاء الحواس ، ويستعملون فى علاقاتهم ، الوسائل التى وضعتها الطبيعة تحت تصرفاتهم ، الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة ، والنظرة إذا لم تكف الإشارة [1]» .

وهكذا يرى « ڤندريس » أن اللغة تنتج من الاحتكاك الاجتماعى ، ثم تصبح عاملا من أقوى العوامل ، التى تربط أفراد المجتمع الإنسانى ، ويرى علماء الاجتماع أن الظواهر الاجتماعية لها قوة قاهرة آمرة ، تفرض بها على أفراد

---

(١) اللغة لڤندريس ٣٥

المجتمع ، ألوانا من السلوك والتفكير والعواطف ، وتحتم عليهم أن يصبوا سلوكهم وتفكيرهم وعواطفهم ، فى قوالب محددة مرسومة ـــ على حد تعبيرهم .

ويدل على وجود القهر فى الظواهر الاجتماعية ـــ عند علماء الاجتماع ـــ أن الفرد إذا حاول الخروج على إحدى هذه الظواهر الاجتماعية ، فإنه سرعان مايشعر برد فعل مضاد من المجتمع الذى يعيش فيه ؛ ذلك لأن المجتمع يشرف على سلوك أفراده ، ويستطيع توقيع العقاب ، على كل من تسوّل له نفسه الخروج عليه . وأهون صور هذا العقاب ، هو التهكم الشديد ، أو السخرية المرّة .

والأمثلة على وجود هذا القهر ، أن المجتمع لايسمح لنا مثلا أن نتحدث باللغة العربية لمن لايفهمها ، ولا أن نحدث العامة مثلا باللغة الفصحى ، التى لاتسمو إليها مداركهم ؛ فإن كل من يحاول الخروج على السلوك اللغوى لجماعته ، يعدّ خارجا على الظواهر الاجتماعية نفسها.

وقصة أبى علقمة الثقفى ، الذى اشتهر باستعمال الغريب والوحشى من الألفاظ ، فى حواره مع طبيب جاءه يشكو إليه من مرض ألمّ به ، خير مثال لهذه القضية ، من تراثنا العربى ؛ فقد « دخل أبو علقمة على أَعْيَن الطبيب ، فقال له : أَمْتَعَ اللهُ بك ! إنى أكلت من لحوم هذه الجوازل ، فطسئت طسأة ، فأصابنى وجع مابين الوابلة إلى دَأية العنق ، فلم يزل يَرْبُو ويَنْمِى حتى خالط الخِلْب والشراسيف ، فهل عندك دواء ؟ فقال أعين : نعم ، خذ خَرْبَقاً وشَلْفَقاً وشِبْرَقاً ، فزهرقه وزقزقه ، واغسله بماء رَوْث واشربه . فقال أبو علقمة : لم أفهم عنك ! فقال أعين : أفهمتك كما أفهمتنى (١) » .

---

(١) انظر عيون الأخبار ١٦٢/٢

ويروى أن الشيخ « حمزة فتح الله » رحمه الله ، وكان مفتشا بالمدارس المصرية ، قدم ذات يوم من رحلة تفتيشية له بمدارس الريف ، وعندما وصل به القطار إلى محطة القاهرة نظر حوله ، لعله يجد رجلا يحمله على حماره إلى بيته ــ أيام كانت الحمير هى الوسيلة الوحيدة للنقل ــ فبصر برجل يجر خلفه حمارا ، فناداه : « أيها المكارى! » ، فقال الرجل : « نعم » فقال الشيخ حمزة : « إيتنى بأتان جَمَزَى ! » ، فظن الرجل أنه يتكلم لغة أجنبية ، فقرب منه ، وجعل يستطلع جلية مايريد ، حتى أخذ منه الجهد ، ولم يحظ منه بطائل . وهنا حلت العقوبة بالشيخ حمزة ؛ إذ تركه صاحب الحمار ، وذهب لحال سبيله ، وهرول الشيخ إلى بيته ، وهو يقول :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها [١]

وهذا القهر الذى يفرضه المجتمع على أفراده ، يختلف بالطبع شدة وضعفا ، إلا أنه موجود دائما ، حتى ولو لم نشعر به حين نستسلم له . ويرى علماء الاجتماع ، أن ضروب السلوك والتفكير ، لاتوجد خارج شعور الفرد فحسب ، بل تمتاز كذلك بقوة قاهرة آمرة ، هى السبب فى أنها تستطيع أن تفرض نفسها على الفرد ، شاء أم أبى . حقا إن الإنسان ربما لايشعر بهذا القهر ، أو لايكاد يشعر به ، حين يستسلم له بمحض اختياره ؛ لأن الشعور بالقهر فى مثل هذه الحالة ليس مجديا ، ولكن ذلك لايحول دون أن يكون القهر من خصائص الظواهر الاجتماعية .

ويهمنا هنا بالطبع اللغة ، من بين الظواهر الاجتماعية ، وهى أداة للتعبير عما يدور فى المجتمع ، فهى تسجل لنا فى دقة ووضوح الصور المختلفة المتعددة الوجوه ، لهذا المجتمع ، من حضارة ونظم وعقائد ، واتجاهات فكرية وثقافية ، وعلمية وفنية واقتصادية وغير ذلك .

---

(١) انظر اللغة بين المعيارية والوصفية ٦٥ .

واللغة بدورها تتأثر بكل هذه الظواهر الاجتماعية ، تأثرا كبيرا ، فهى بدوية فى المجتمع البدوى غير المتحضّر ؛ ولذلك نجدها فيه محدودة الألفاظ والتراكيب والخيال ، ليست مرنة ولا تتسع لكثير من فنون القول . أما إذا كانت اللغة فى مجتمع قد أخذ قسطا من الحضارة ، فإننا نجدها متحضرة الألفاظ ، مطردة القواعد ، يسيرة فى نطقها ، خفيفة الوقع على السمع .

واللغة فى المجتمع البدائى كثيرة المفردات ، فيما يتعلق بالأشياء المحسوسة ، والأمور الجزئية ، قليلة الألفاظ التى تدل على المعانى الكلية ؛ فالرجل البدائى « قد توجد لديه كلمات خاصة للدلالة على المعانى الجزئية ، كغسل نفسه ، وغسل رأسه ، وغسل شخص آخر ، وغسل رأس شخص آخر ، وغسل وجهه ، وغسل وجه شخص آخر .. الخ ، فى حين أنه لاتوجد لديه كلمة واحدة ، للدلالة على العملية العامة البسيطة ، وهى : مجرد الغسل [1]» .

وكثيرا ماتخلو مدلولات الكلمات ، فى هذا المجتمع البدائى ، من الدقة ، ويكثر فيها اللبس والإبهام ، وهى غالبا لاتعبرّ إلا عن ضرورات الحياة اليومية ؛ ولذلك كانت جملها قصيرة ، وروابطها قليلة . ولايزال بعض هذه اللغات البدائية ، يعتمد حتى الآن اعتمادا كبيرا ، على الإشارات اليدوية والجسمية ، لإعطاء المعنى المقصود ، من الألفاظ التى ينطقونها ، إلى درجة أن الأهالى يوقدون النيران ليلا ، لكى يتمكنوا من فهم مايقال ؛ لأن الإشارات التى تصحب الكلام ، تكمل الناقص من المفردات ، وتحدد مدلول الكلمات .

---

(١) دور الكلمة فى اللغة لأولمان ١١٦ .

ولاتزال فى اللغات الراقية ، بقايا هذه البدائية ، فى بعض الإشارات الجسمية الموضحة للمراد من الكلام ، فى بعض الأحيان . وهذا هو السرّ فى غموض بعض كلمات الحديث التليفونى ، أو أحاديث الظلام . وقد روى لنا ذلك « ابن جنى » فقال : « وقال لى بعض مشايخنا رحمه الله : أنا لاأحسن أن أكلم إنسانا فى الظلمة [١] » . كما يقول ابن جنى أيضا : « وكذلك إن ذممت إنسانا ، ووصفته بالضيق ، قلت : سألناه وكان إنسانا ! وتزوى وجهك وتقطّبه ، فيغنى ذلك عن قولك : إنسانا لئيما أو لَحِزاً أو مبخّلا أو نحو ذلك [٢] » .

وتعكس اللغة أثر التفاوت بين طبقات المجتمع . وفى ذلك يقول « ماريو باى » : « من المسلّم به أن اللغة تتغير ، تبعاً للطبقة التى تتحدث بها . وقد صرح بعض هواة اللغويات فى بريطانيا ، بأن هناك نوعين من اللغة ، أحدهما وقف على الطبقة الراقية ، ولايمتد استعماله إلى الطبقة الدنيا ، والآخر لايستخدمه إلا أفراد الطبقة الدنيا .. وهناك لغات تصل الفوارق الطبقية فيها إلى أبعد من ذلك ؛ فهناك مثلا ثلاثة أنواع للغة (جاوا) ، أحدها يتحدث به أهل الطبقة الدنيا ويسمى : نجوكو Ngoko والآخر تستخدمه الطبقة الراقية ،ويسمى كراما Krama وثالث لتسهيل عملية التفاهم بين الطبقتين ، ويسمى : ماديا Madya . ويتحدث أفراد الطبقة الراقية فى بعض التمثيليات الهندية القديمة : اللغة السنسكريتية ، على حين يتحدث أفراد الطبقة الدنيا : اللغة البراكريتية [٣] » .

---

(١) الخصائص ١/٢٤٧ .
(٢) الخصائص ٢/٣٧١ .
(٣) لغات البشر ٨٢ — ٨٣ .

ولاشك أن التغير الاجتماعى ، فى بيئة من البيئات ، يتبعه تغيّر فى شىء من اللغة المستعملة فى تلك البيئة . ويكفى أن نذكّر بأن قيام ثورة ٢٣ يولية فى مصر ، أدّى إلى تغير فى النظام الاجتماعى ، تبعه اختفاء كلمات مثل : بك ، وباشا ،وصاحب العزة ، وصاحب السعادة ، وصاحب الدولة ، وصاحب المعالى ، وصاحب الرفعة ، وصاحبة العصمة ، والبرنس ، وسمو الأمير ، وصاحب الجلالة ، والذات الملكية . كما شاعت ألفاظ مثل : ثورة التحرير ، والعزة والكرامة ، والتأميم ، والاشتراكية ، والتحول الاشتراكى ، والمكاسب الاشتراكية ، والتقدمية ، والرجعية ، والتطلع الطبقى ، والصراع الحتمى ، وتذويب الفوارق الطبقية ، ونضال الجماهير ، والنقاء الثورى ، والقيادة الجماعية ، والجماهير الكادحة ، والعناصر الانتهازية ، والمصير المشترك ، والسلام القائم على العدل ، وفك الاشتباك . وغير ذلك كثير .

وكثيرا مايؤدى التفاوت بين طبقات المجتمع ، إلى نشوء لغات سرية عامية ، هى بنوع خاص لغة الأشقياء والخارجين على القانون ، ممن يعيشون فى خوف دائم من سطوته ؛ لأنهم يحيون حياة على هامش المجتمع .

ويقول ڤندريس : « كان عندنا ، حتى بداية القرن التاسع عشر ، هيئة منظمة حقا للأشقياء ، وكانت لها لغتها الخاصة المتفق عليها ، والتى كان يعمل كل عضو من أعضاء الهيئة ، على المحافظة عليها [١] » .

ونحن نعرف عن هذه اللغة الخاصة فى كل البلاد ، غناها بالتعبيرات التى تشبع الغرائز المادية ، والصفات المذمومة التى تنطوى على الجريمة ، كالسرقة والزنا والسكر ، وماإليها من أنواع الانحلال الخلقى ؛ ففى لغة هذه

---

(١) اللغة لفندريس ٣١٦ .

الطبقات من أهل فرنسا مثلا ، نجد ثمانى عشرة كلمة تعبر عن الأكل ، وعشرين عن معاقرة الخمر ، وعشرين أخرى للتعبير عن الخمر نفسها ، وأربعين لفظا تعبر عن السكر . ولخشيتهم دائما من سطوة القانون ، جعلوا للشرطى اثنتى عشرة كلمة ، وللفرار منه خمسة عشر لفظا ، كما سموا السجن معهدا ومدرسة ، والبؤس فلسفة وسموا الحذاء البالى فيلسوفا . أما المال الذى يستحوذ على أفكارهم وقلوبهم ، فقد وضعوا له ستين كلمة ، والبغايا اللاتى يعشن معهم دائما ، وضعوا لهن ثمانين كلمة ، تعدّ كلها وابلا من السباب بأحط الألفاظ . أما السيدة الفاضلة ، فليس لها كلمة واحدة فى لغتهم . والرجل المستقيم ، يعبرون عنه بالبساطة ، ومعناها فى عرفهم الغفلة والغباء .

وكثيرا ماتوجد فى هذه اللغات العامية الخاصة نشاط وحيوية ؛ إذ نجدها مليئة بالاصطلاحات المجازية والاستعارية المتجددة « فالاستعمال الاستعارى من الوسائل المحببة إلى العامية الخاصة [١] » . ويقول فى ذلك ماريو باى : « الصوتيات وأصول الكلمات ملك مشاع لكل الطبقات الاجتماعية ، على حين تظهر الاختلافات الطبقية ، فى اختيار المفردات اللغوية ، وطريقة استعمالها [٢] » .

ولايطلق اصطلاح « اللغات الخاصة » على هذه اللغات السرّية فحسب ، وليست كل ألفاظها فحشا ، وليست كل تراكيبها تعبيرا عن الرذيلة والجريمة ؛ إذ إنه « يوجد من العاميات الخاصة بقدر مايوجد من جماعات متخصصة . والعاميات الخاصة تتميز بتنوعها الذى لايحد ، وأنها

---

(١) اللغة لفندريس ٣١٧ .

(٢) لغات البشر ٨٣ .

فى تغير دائم تبعا للظروف والأمكنة ؛ فكل جماعة خاصة ، وكل هيئة من أرباب المهن ، لها عاميتها الخاصة ؛ فهناك عامية التلاميذ الخاصة ، وهى غير واحدة فى كل المدارس ،بل تختلف أحيانا باختلاف الفصول فى المدرسة الواحدة . وهناك عامية الثكنات الخاصة ، التى تختلف باختلاف الأسلحة ، بل تختلف باختلاف الثكنات أيضا . وهناك عامية الخياطات الخاصة ، وعامية الغسالات ، وعامية عمال المناجم ، وعامية البحارين [١] » .

« فكل مجموعة إنسانية ، مهما صغرت ، لها لغتها الخاصة بها . فهناك فى دائرة الأسرة والمكتب والمصنع ومطاعم الجنود ، تتوالد الكلمات والعبارات والمعانى الهامشية والألغاز ، وطرق التعبير الأخرى ، التى تختص بهذه البيئات ، والتى يصعب إدراكها على من لم ينتم إليها . وهذا هو الحال كذلك فى المجموعات الكبرى ، التى يربطها رباط المصالح المشتركة ، كالمهنة ، والحرفة ، والتجارة ، والانتماء إلى مختلف فروع العلم والفن والصحافة ،والقوات المسلحة ، والهيئات الأكاديمية والرياضية وغيرها .

فلكل من هذه المجموعات ثروتها اللفظية الخاصة بها ، وهى ثروة تعكس خصائص الموضوعات والمناقشات ، التى يتناولها الأعضاء فيما بينهم ، وتسهل اتصالهم بعضهم ببعض ، ولكنها فى الوقت نفسه ، تزيد فى الهوة التى تفصلهم عن غيرهم ، ممن لاينتمون إليهم . هذا الاتجاه نفسه موجود فى اللهجات الطبقية الخاصة ، كلهجات السوقة واللصوص . ويقوى هذا الاتجاه فى هذه اللهجات النزعة إلى خلق مصطلحات صادقة التعبير ، وحاوية لعناصر الفكاهة والدعابة ، وكاشفة عن الروح البيئية الخاصة [٢]» .

---

(١) اللغة لفندريس ٣١٥ .

(٢) انظر : دور الكلمة فى اللغة لأولمان ١٥٣ .

وقد تتسرب بعض ألفاظ هذه العاميات ، إلى اللغة الأدبية ، حينما يستخدم أحد الكتاب أو الشعراء لفظه من ألفاظ العاميات الخاصة فى كلامه ؛ فيقابل بالإعراض واللوم من الغيورين على اللغة الأدبية . وقد حدث مثل ذلك فى فرنسا نفسها ؛ فلم يكن الاعتراف بهذه التراكيب العامية أمرا ميسورا ، إذ نشبت معركة شديدة بين القدماء والمحدثين ، بين من يرون أن اللغة الفرنسية الحقة ، هى لغة كبار الكتاب والشعراء ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هى لغة : موليير ، وراسين ، ولامرتين ، وفولتير وغيرهم ، وأن من الخطر الشديد أن ندنس هذه اللغة الأدبية الفصيحة ، بلغة عامية مبتذلة ـــ وبين أولئك الذين كانوا ينظرون إلى اللغة على أنها كائن حىّ يتطور على مر الزمن .

وقد اضطرت الأكاديمية الفرنسية أخيرا إلى الاعتراف بكثير من الألفاظ الفرنسية العامية ، التى ردّ لها الأدباء والشعراء اعتبارها ، فأدخلتها فى معاجمها ، وبذلك انتصر المحدثون ، فأصبحنا نرى كثيرا من الألفاظ العامية ، التى كانت مستعملة فى القرن الثامن عشر ، وقد صارت ضمن مواد معجم الأكاديمية الفرنسية الذى يعدّ فى فرنسا ، المعجم اللغوى الرسمى . وستصبح الكثرة الغالبة من الألفاظ والتراكيب المستعملة فى القرن العشرين ، بدورها ألفاظا وتراكيب رسمية يوماً ما .

هذه التفاعلات الشديدة بين المجتمع واللغة ، قد وجدت يوم تكونت المجتمعات البشرية ، ويوم خلقت اللغات الإنسانية . وستظل هذه الصلة وثيقة دائما ، فتنقل لنا اللغات ، ما يدور فى هذه المجتمعات من نظم مختلفة ، ومايتصف به الأفراد فى هذه المجتمعات ، من علم وثقافة ، ونظم اجتماعية مختلفة .

ومن البديهى أن لكل مجتمع طرقه فى التفكير ، ونظرته الخاصة إلى الحياة ؛ فهناك مجتمع يتصف بصراحة شديدة مثلا ، يراها مجتمع آخر خشنة جافة ، لاتتلاءم وقواعد السلوك العامة ، وعندئذ نجد فرقا واضحا فى لغة كل مجتمع ، من هذين المجتمعين ؛ فلغة المجتمع الأول تعبر بصراحة مباشرة ، عن الأمور المشينة والعورات ، والأعمال التى لاينبغى أن تذكر فى عبارات مكشوفة . أما لغة المجتمع الثانى ، فتتلمسّ دائما حسن الحيلة وأدب التعبير ، مستعملة المجاز فى الألفاظ ، والكناية بدلا من صريح القول ، وكلما شاع معنى لفظ واستهجن ، استبدلت به سريعا لفظا آخر ، ولو كان مستعارا من لغة أجنبية .

والخلاصة أن علم اللغة أصبح يعدّ الآن ، ضمن طائفة العلوم الاجتماعية ، ويتصل اتصالا وثيقا بغيره من هذه العلوم ، كالأديان ، والتاريخ ، والآداب ،والسياسة ، والاقتصاد وغيرها ، وأن الظواهر اللغوية متأثرة تأثرا مباشراً بالظواهر الاجتماعية . وفى بعض الأحيان ، لاتفهم الظواهر الأولى إلا بمساعدة الثانية ؛ فنشأة اللغات ، وتكونها ، وانقسامها إلى أسر مختلفة ، وانتشارها ، ومايطرأ عليها فى حياتها من قوة أو ضعف ، وماتدخل فيه لغة من صراع مع غيرها ، وانتصارها أو هزيمتها فى هذا الصراع اللغوى ، ومايستتبع هذا من تطورات فى أصواتها ، أو تغير فى مدلولات ألفاظها ، واستعارة الألفاظ وتبادلها بين اللغات ، وإخضاعها لقوانين الأصوات فى اللغة المستعيرة ، وغير ذلك ـــ كل هذه الظواهر التى ذكرناها وغيرها ، لايمكن أن تعرف على حقيقتها ، إلا إذا ألقت عليها الظواهر الاجتماعية ، ضوءا يكشف ماقد يخفى علينا من غزوات وحروب ، ومايستتبع هذا من تغلب أمة على أخرى ، ومن هجرات ترجع إلى طبيعة قاسية ، أو أرض مجدبة ، ومن انتشار

دين جديد ينتزع ماسبقه من ديانات ، أو يعيش بجوارها متغلبا عليها ، ومن حضارات تندثر وأخرى تنتشر ، وما إلى ذلك من المظاهر المختلفة ، للحياة البشرية الاجتماعية المعقدة .

★ ★ ★

الفصل الرابع
علم اللغة والنفس الإنسانية

أدت بحوث علماء الاجتماع فى اللغة ، ومبالغتهم فى الربط بين اللغة والمجتمع ، وإنكارهم أن يكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر فى اللغة — كل هذا أدى إلى هجوم بعض العلماء عليهم ، ولا سيما علماء النفس ، الذين كتبوا عن العلاقة بين اللغة والفكر . ويقول فى ذلك « فُون دِرْ جابلنتس G. von der Gabelentz » : « الإنسان لايستخدم اللغة ، للتعبير عن شيء فحسب ، بل للتعبير عن نفسه أيضا [1] » .

ويذهب بعض العلماء إلى أن الألفاظ ، ليست إلا رموزا تعبر عن المعانى الكامنة فى النفس ، وهى ضرورية للتقدم العقلى لأنها هى التى تثبت كل خطوة يخطوها الذهن البشرى ، وهم يشبهون ذلك بجيش يغزو بقعة من الأرض ، وينتصر على أهلها ، وينتشر فى أرجائها ، ولكنه لايستطيع أن يملكها إلا حين ينشيء فوقها الحصون ، التى يضع بها حاميته ، وهم يرون أن الألفاظ حصون الفكر ، وأنه لا وجود للفكر بدون اللغة ، ولذلك يرى هؤلاء أن علماء النفس ، لا علماء الاجتماع ، هم الذين يستطيعون أن يبينوا لنا ، كيف يظل المعنى حائرا فى الذهن ، حتى يستقر فى الكلمة المناسبة ، وحينئذ يتحدد المراد منه ، ويثبت ويتضح .

ويذهب هؤلاء العلماء ، إلى أن اللغة ضرورية للفكر ، حتى فى رحلات التفكير الشخصية ، ويقولون إن الإنسان يفكر بينه وبين نفسه فى

---

(١) انظر : اللغة لفندريس ١٨٣

أثواب من اللغة ، ويذهبون إلى أن « أحدا لايستطيع أن ينكر الأهمية العظمى للكلمات ، فى أى نوع من التفكير ، حتى ذلك التفكير الذى يطلق عليه اسم « الكلام الداخلى » inner speech . ومما لاشك فيه أننا مررنا جميعا بالتجربة العامة للأحلام ، وعرفنا أن أحلامنا تتبخر من أذهاننا بسرعة ، إذا لم نبادر بتسجيلها فى كلمات . وكثيرا مايظل الإنسان عاجزا عن تحديد خطة البحث ، الذى ينوى القيام به ، أو الطريقة التى يسلكها فى مناقشته إلى أن يوضحهما ويبلورهما ، بوضعهما فى تعبير لفظى . وقد برهنت تجارب التحليل النفسى ، على أن مخاوف اللاشعور ، سوف تنتهى تلقائيا إلى مجرد تخيلات ، ويزول أثرها ، فلا تكوّن عقدا ، أو تسبب كبتا ، فى اللحظة التى تصاغ فيها هذه المخاوف فى عبارات واضحة . فإذا جاوزنا ذلك إلى مستوى أعلى ، وجدنا أن التفكير المجرد لايمكن إدراكه ، إذا لم يتحول المضمون الذهنى الغامض المتميع ، إلى شيء مادى ، بطريق الصياغة اللفظية (١) » .

ولكل هذا يرى هؤلاء ، أن علماء النفس هم الذين يفسرون لنا ، كيف ينقل الإنسان فكره إلى غيره ، متخذا وجهة نظر الآخرين ، ملقيا من تفكيره المدركات الشخصية البحتة ، مستبقيا المدركات العامة ، التى يفهمها هو ويفهمها غيره .

ونحن لاننكر هنا أن تكون للنفس البشرية ، أثر فى الظواهر اللغوية ، كما سبق أن قررنا أن العلاقة وثيقة ، بين هذه الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية . وقد لاحظ علماء النفس بحق ، أن مسائل كثيرة من علمهم تساعد مساعدة جدية ،على فهم الظواهر اللغوية ؛ فالتذكر والاسترجاع ،

---

(١) دور الكلمة فى اللغة لأولمان ٢٠٢ .

والتخيّل ، وتداعى المعانى ، والإدراك ، والانتباه ، والحالات الوجدانية المختلفة ، وغير ذلك من مسائل علم النفس ، هى التى تفسر لنا كيف يتعلم الطفل اللغة كلاما ثم كتابة ، وكيف يصوغ الإنسان عباراته ويكون جمله ، ليعبر عن أفكاره ، وكيف يفهم السامع مايسمع ، ويدرك القارىء مايقرأ ، من تلك الرموز الكتابية .

ولكى تدرك مقدار أثر الخبرات السابقة ، فى فهم الكلام لدى السامع ، ضع أمامك ماتقول به الإحصاءات اللغوية ، من أن « مايحدث فى الغالب خلال المكالمات التليفونية ، هو وصول ٥٠ ٪ فقط من المحتوى الصوتى ، ولكن يحدث تعويض عن طريق معرفة السامع بالمحتوى الدلالى ، وعن طريق استنتاجه شبه الطبيعى ، المؤسس على خبراته وعاداته السابقة .

ويلاحظ فى مثل هذه الحالة ، أنه إذا ورد ذكر كلمة غير مشهورة ، كاسم أسرة مثلا ، فإن الحديث يتوقف طلبا لنطق الاسم بوضوح أو تهجيه [١]» .

ولكل ذلك ، لاينبغى أن ندخل فى اعتبارنا الصورة التى تصاغ عليها الأفكار فحسب ، بل كذلك العلاقات التى توجد بين هذه الأفكار وحساسية المتكلم .

وعلى ذلك ، فإن اللغة لايصح أن تدرس على أنها أداة عقلية فحسب ؛ لأن الإنسان كما يتكلم ليصوغ أفكاره ، فإنه يتكلم ليؤثر فى غيره من الناس ، وليعبر عن إحساسه وشعوره وعواطفه ، فهو يعبر باللغة عن

---

(١) انظر : أسس علم اللغة لماريوباى ٩١ .

نفسه ، كما يعبر عن آرائه . بل إنه يمكن القول بأن التعبير عن أية فكرة ، لايخلو مطلقا من لون عاطفى ، إلا إذا استثنينا التفكير العلمى ، أو اللغة العلمية ، التى يجب أن تكون معبرة عن الفكرة المحضة ، والحقيقة المجردة ، الخالية من الانفعالات النفسية .

ويدلل « ڤندريس » على ملازمة الانفعال للتعبير عن الأفكار ، بقوله : « فمن النادر جدا ـــ عندما تتسابق فى ذهننا ، ونحن بصدد التعبير عن فكرة ما ، عدة عبارات مختلفة ـــ أن تكون إحدى هذه العبارات عقلية محضة ، وأن تعبر عن استدلال منطقى بحت ،أو أن تصور حقيقة أو حادثا ما ، فى بساطته العارية من كل لباس؛ فإننى أرى حادثا يقع أمامى ، فأصيح راثيا لحال صاحبه : (آه ! المسكين !) ، وأقابل صديقا لم أكن أتوقع لقاءه ، فأقول له : (أنت ! هنا !) ، فهذه الجمل ذات قيمة انفعالية ، واضحة كل الوضوح ، فإذا صيغت فى لغة المنطق الجدلية ، صارت : (أرثى لهذا المسكين) أو : (يدهشنى أن أراك هنا) . تخيّل أنى استعملت فى الواقع هاتين الصورتين من صور الجملة ، أفتظن أنهما أيضا يخلوان من كل قيمة انفعالية ؟ قيمة تختلف بلاريب عما فى جملتى التعجب ، اللتين قيلتا فى تلهف ، وإن كانت لاتقل عنها قرعا للذهن . بل قد يحسّ الإنسان فيهما ، إما رغبة فى استخراج المغزى الأدبى من الحادثة ،وإما تفريعا للدهشة الناجمة من مقابلة صديق ، وإما كبتا لحركة من الحساسية شديدة العنف ، تحاول أن تنطلق من عقالها ، ولكن محاولة التخلص من إظهار العاطفة ، فى هذه الحال ، ليست إلا إظهاراً للعاطفة [1] » .

---

(١) انظر : اللغة لفندريس ١٨٣ .

ويذهب « ڤندريس » بعد هذا ، إلى أنه لاتكاد توجد جملة ــ مهما كانت شائعة الاستعمال أو مبتذلة ــ تخلو من العناصر الانفعالية ؛ فإننى إذا قلت « حامد يضرب عليا » بدا علىَّ أنى أعبر بكل بساطة ، عن علاقة بين شخصين ، يجمع بينهما حدث الضرب . وهذا على الأقل كل مايزودنى به التحليل المنطقى المزعوم . ولكن الواقع أن مثل هذه الجملة ، لا يمكن مطلقا أن تكون عبارة منطقية عن علاقة ما ؛ إذ إنى أضيف إليها دائما ألوانا انفعالية ؛ فضرب حامد لعلى ، لا يمكن أن يكون عديم الأثر بالنسبة إلىّ ؛ إذ لو لم يكن له مساس بنفسى لما قلته . إذن فالجملة التى أنطق بها ، ذات قيمة تختلف عن القيمة التى تكون لها ، لو كنت قد قرأتها فى كتاب من كتب التاريخ ، يدور فيه الكلام عن ملك مااسمه « حامد » وملك آخر اسمه « على » لايعنينى من أمرهما شىء .

ذلك لأن القصص التاريخى موضوعى دائما . وهذا هوما يجعل التلميذ الصغير ، الذى يحفظ دروسه فى التاريخ عن ظهر قلب ، يقبل دون تقزز على تعداد الفظائع التى ارتكبها بنو البشر فى تناحرهم بعضهم مع بعض ؛ فهى لا تحركه لأنه يراها تقع فى ماض سحيق ، تباعده عنه سنون طوال ؛ وإذن فهو يتسلى بها .

وعلى العكس من ذلك ، لانستطيع أن نقرأ دون أن نحس بقشعريرة تسرى فى أجسامنا ، خبرا لجريمة عادية وقعت أمام منزلنا ؛ فإنى فى المثال المتقدم ، أرانى لدى نطقى بالجملة ، أحس فى نفسى بعواطف مختلفة من الحنق ، أو العقاب ، أو التهديد ، أو الغضب ، أو الرضا ، أو التشجيع أو القبول ، أو الدهشة ؛ وذلك تبعا لما إذا كان حامد وعلىّ ابنىّ ، أو طفلين غريبين عنى ، وتبعا لسنهما وقوتهما ،وتبعا لميولى واتجاهاتى ، وتبعا لظروف أخرى كثيرة ، يمكن تصورها بسهولة .

هذه العواطف يمكن بطبيعة الحال ، التعبير عنها بواسطة التنغيم ، أو تغيير الصوت ، أو سرعة الحديث ، أو الشدة التى يركزها المتكلم على هذه الكلمة أو تلك ، أو بالإشارة التى تصحب الكلام .

فالجملة الواحدة ، تحتمل عند النطق بها ، مئات ومئات من وجوه الاختلاف ، التى تقابل أشد ألوان العاطفة خفاء .والفنان الدرامىّ ، الذى يقوم بدوره فى المسرح ، عليه أن يجد لكل جملة التعبير اللائق بها ، والنغمة الحقة التى تناسبها ، وذلك أوضح مايلاحظ على مواهبه ؛ فالجملة التى يقرؤها فى صحيفة ، تعدّ ميتة خالية من التعبير ، ولكنه ينعشها بنطقه ، وينفث فيها الحياة (١) . وإذن فمعرفة كلمات الجملة وتحليل عناصرها النحوية ، ليس معناه استخراج كل مكنوناتها بل يبقى بعد ذلك تقدير قيمتها الانفعالية .

ويذهب « ڤندريس » إلى أن تقدير هذه القيمة الانفعالية « واجب يفرض نفسه على العالم النفسى ، الذى يدرس طبيعة العواطف ، وبدرجة مساوية على الفنان ، الذى يسعى إلى إبرازها على المسرح ،وعلى العالم اللغوى ، ولكن بدرجة أقل ؛ فهذه العواطف لاتعنى هذا الأخير ، إلا عندما يعبر عنها بوسائل لغوية (٢)» .

كما يرى « ڤندريس » أن « الفرق الأساسى بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية ، ينحصر فى تكوين الجملة . وهذا الفرق ينبثق جليا ، عندما نقارن اللغة المكتوبة ، باللغة المتكلمة ، فاللغة المكتوبة واللغة المتكلمة ، تبتعدان فى

---

(١) انظر : فصل « اللغة الانفعالية » فى كتاب : علم النفس اللغوى ٣٧ – ٣٨.
(٢) اللغة لفندريس ١٨٥ .

الفرنسية ، إحداهما عن الأخرى إلى حدّ أنه لايتكلم إطلاقا كما يكتب ، ولايكتب كما يتكلم إلا نادرا . وفى كل حالة هناك اختلاف فى ترتيب الكلمات ، إلى جانب الاختلاف فى المفردات ؛ وذلك لأن الترتيب المنطقى ، الذى تسلك فيه الكلمات ، فى الجملة المكتوبة ، ينفصم دائما فى الجملة المتكلمة ، إن قليلا وإن كثيرا ؛ فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجملة : « يجب المجىء سريعا » و « أما أنا فلا وقت عندى للتفكير فى هذه المسألة » و « هذه الأم تكره طفلها » ، ولكنها فى اللغة المتكلمة تتخذ صيغة مختلفة كل الاختلاف ؛ فيقال مثلا : « تعال بالعجل ! » و « الوقت ، إيه دا ياأخى ! هوّ أنا عندى وقت ، أنا علشان أفكر فى المسألة دى ! » و « ابنها ! دى هىّ بتكرهه ، الأم دى ! » .

« ماذا يمكن أن يقال فى جمل اللغة المكتوبة ؟ تلك الجمل المنسقة ، بما فيها من جمل تابعة ، وحروف وصل ، وأسماء موصولة ، وكل ماتحتوى عليه من أدوات وأقسام ! إننا لا نقول إطلاقا فى اللغة المتكلمة : « بعد أن نخترق الغابة ، ونصل إلى بيت الحارس الذى تعرفه ، بجداره الذى تكسوه أغصان اللبلاب ، سندور إلى اليسار ، ونسير حتى نجد مكانا مناسبا ، فنتغدّى فيه فوق الأعشاب » ، بل يقال : « حنخترق الغابة ، وبعدين نمشى لحد البيت ، إنت عارفه .. بيت الحارس .. إنت واخد بالك منوّ كويّس .. البيت ده اللى جداره فارش عليه اللبلاب ، وبعدين نحوّد ع الشمال ونشوف مكان لطيف .. ونتغدّى هناك ع الحشيش » [١] .

فالعناصر التى تسعى اللغة المكتوبة ، فى أن تسلكها فى كل متماسك

---

(١) اللغة لفندريس ١٩١ – ١٩٢ .

تبدو فى اللغة المتكلمة ، منفصلة منفصمة مقطعة الأوصال ، بل إن الترتيب نفسه يختلف فيها عنه فى الأولى كل الاختلاف ؛ إذ ليس هنا ذلك الترتيب المنطقى ، الذى تمليه قواعد النحو ؛ بل ترتيب له منطقه أيضا ، ولكنه منطق انفعالى قبل كل شيء ، فيه ترصّ الأفكار ، لاوفقا للقواعد الموضوعية ، التى يفرضها التفكير المتصل ، بل وفقا للأهمية الذاتية ، التى يخلعها عليه المتكلم ، أو التى يريد أن يوحى بها إلى سامعه .

ويقول ڤندريس : « فكرة الجملة بالمعنى النحوى ، تتلاشى فى لغة الكلام ، فإنى عندما أقول : الرجل الذى تراه هنالك جالسا على الرمال ، هو ذلك الذى قابلته بالأمس عند المحطة . أرانى أستخدم طرائق اللغة المكتوبة ، فلا أصوغ غير جملة واحدة ، ولكنى لو تكلمت لقلت : شايف كويس الراجل ده .. عندك هناك .. قاعد قدّامك ع الرمل .. أهوَّ ده .. أنا شفته امبارح .. كان ع المحطة . فكم يوجد من الجمل هنا ! [١] » .

ومن أمثلة اللغة الانفعالية ، فى العربية الفصحى : قول العجاج الراجز :

حتى إذا جَنَّ الظلامُ واختلطْ
جاءوا بمَذْقٍ هل رأيتَ الذئب قَطْ

إننا هنا لسنا فى حاجة لتأويل النحاة ، وادعائهم حذف الوصف ، وأن الأصل : بمذق مقول فيه : هل رأيت الذئب قط ، وأن الجملة الطلبية معمولة لهذا القول المقدر [٢] ، فما قصد العجاج إلى شيء من هذا !

---

(١) اللغة لفندريس ١٩٢.

(٢) انظر : خزانة الأدب ٢٧٦/١ وشرح ابن عقيل للألفية ٢٠٤/٢ .

ويقول «برجشتراسر » معلقا على قول من يقول : « أميران هلك القوم ! » فى حالة غضب وهياج : « واستعمال شبه الجملة (الجملة ذات الطرف الواحد) ، والاستغناء عن ربط الجمل بعضها ببعض ، من خصائص مبادىء اللغات ، ومن بقايا حالها الأولية البسيطة . ولو لم تهج نفس القائل ، بل كان غافلا مطمئنا ، يؤدى فكراً لايمازجه شىء من الغضب أو مثله ، لقال : إنا نجد للقوم أميرين ، فنخاف أن نهلك ــ أو مثل ذلك .

« والكلام الخاص بهيجان النفس جنسان : أحدهما متكون من كثير مما يتكلم به بين الناس فى مساعيهم اليومية وتعاطيهم شئون الحياة ، وخصوصا عند أقوام البلاد الجنوبية والسامية من بينها ؛ فإنا نراها أكثر حدّة وتحركا من شعوب الشمال ؛ وإذا قرأنا الكتب ، كدنا أن ننسى حقيقة موقف اللسان فى حياة الإنسان ، فإن الكتب مملوءة بالكلام الساكن المستوى . والجنس الثانى من الهيجان ، هو إلهام الشعر ، فنرى الشعر يميل إلى مثل مايميل إليه الكلام الخاص بهيجان النفس ، من ترك الربط ، واستعمال أشباه الجمل ، وغير ذلك [١]» .

وخلاصة القول فى هذا الفصل ، أن النفس الإنسانية بما يعتورها من حالات الرضا والسرور ، والغضب والنفور ، والاستحسان والاشمئزاز ،وغير ذلك ، ينعكس أثرها على اللغة فى تطورها وحياتها ؛ إذ تقبل النفس ألفاظا فتحيا ، وتعاف ألفاظا أخرى فتموت ، ويؤدى النبر المعبّر عن الرضا أو الغضب ، إلى تغيير فى النطق ، فتطول بعض المقاطع الصوتية ، وتقصر الأخرى وتتلاشى .

---

(١) التطور النحوى ٨٣

وهكذا نرى أن دراسة العلاقة بين نفسية الشعوب المختلفة ولغاتها ، من واجبات اللغوى كذلك . ولاعجب بعد كل هذا ، إذا نشأ فى علم النفس فرع من فروعه يدرس اللغة ، وأثر النفس الإنسانية على الظواهر اللغوية ، وهو فرع : « علم النفس اللغوى » .

★ ★ ★

الفصل الخامس
علم اللغة والجغرافيا اللغوية
الأطلس اللغوى

عرفنا من قبل ، أن علم اللغة له صلة وثيقة بعلوم أخرى ؛ فقد درسنا من قبل شيئا من علم الاجتماع اللغوى ،وعلم النفس اللغوى ، كما عرفنا أن عالم اللغة ، لابدله من الإلمام بعلم الفسيولوجيا ، أو وظائف الأعضاء ، وعلم التشريح ، وعلم الطبيعة فى دراسة الأصوات اللغوية ، بأنواعها المختلفة .

ونتحدث هنا عن صلة علم اللغة ، بعلم آخر ، هو « علم الجغرافيا » ؛ فقد اقتبس علم اللغة ، منذ أكثر من نصف قرن مضى ، طرق علم الجغرافيا ، ليضع حدودا لغوية للهجات المختلفة فى خرائط تبين معالم كل لهجة ، وتفرق بين لهجة وأخرى ، ولا تختلف هذه الخرائط عن خرائط الجغرافيا ، إلا فى أن ما يدوّن عليها ظواهر لغوية ، تطلع القارىء على أدق الفروق فى الأصوات والمفردات ، بين اللغات المختلفة ، واللهجات المتباينة .

وتطلعنا هذه الخرائط ، على الاختلافات الصوتية ، بين المناطق المختلفة ؛ فقوم يجهرون أصواتا وقوم يهمسونها ، وطائفة تنطق الفتحة صريحة ، وأخرى تنطقها ممالة ، ولهجة تنبر الكلمة فى مقطعها الأول ، وأخرى تنبر المقطع الأخير منها ... وهكذا . كما يبرز فى هذه الخرائط الدرس الواسع للمفردات ، من حيث البنية والمترادفات المختلفة للمعنى الواحد واختلاف الألفاظ باختلاف المناطق اللغوية ، ومقدار انتشار الكلمات فى الأقطار والأقاليم ، وغير ذلك ، مما يتيح لنا معرفة الواقع اللغوى للغة من اللغات ، سواء أكانت لغات فصحى أم مشتركة أم خاصة ، أم لهجات اجتماعية ، أم إقليمية ، أم عاميات خاصة .

هذه الدراسة الجغرافية اللغوية ، تعدّ من أحدث وسائل البحث فى علم اللغة . ولها وظيفة ذات أثر بالغ فى الدراسات اللغوية فى العصر الحديث ؛ لأنها تسجل الواقع اللغوى للغات أو اللهجات ، على خرائط يجمعها آخر الأمر أطلس لغوى عام . وتختص كل خريطة بكلمة ، أو بظاهرة صوتية معينة ، يبدو فيها الاتفاق ، أو الاختلاف بين المناطق اللغوية المتعددة . ومما لاشك فيه أن هناك تشابها بين لهجة إقليمية وأخرى ، أو بين لهجتين اجتماعيتين أو بين عاميات خاصة ، مادامت هذه جميعا ترجع إلى أصل لغوى واحد .

ولقد « كان إعداد الأطالس اللغوية ، أسبق فى الوجود من معظم الإنجازات الوصفية الحديثة . وهو يعتمد إلى حد كبير ، على مفردات اللغة التى تعد فى نظر الوصفيين ، فى الدرجة الثانية من الأهمية ، ولكنه مع ذلك اتبع منهجا يمكن أن يوصف على الأقل بأنه وصفى ، وبأنه خير مثل للعمل اللغوى تحت ظروف البيئة المعينة . وعلى الرغم من أن هذا العمل قد بدأ أساسا على يد اللغويين التاريخيين ، لأغراض تاريخية فى معظمها ، فإنه قد وضع الأساس لنموذج الدراسة الوصفية العملية فى مجال البحث اللغوى »(1) .

وعلى الرغم من تقدم هذا الفرع من فروع الدراسة اللغوية فى أوربا وأمريكا ، فإنه لايزال غضّ الإهاب فى بلادنا . وليس لدينا فى لغتنا العربية ، إلا محاولة قام بها المستشرق الألمانى : « برجشتراسر » G. Bergsträsser لعمل أطلس لغوى لبلاد سوريا وفلسطين Sprachatlas von Syrien und Palästina نشره فى ليبزج سنة ١٩١٥ م . وسنتحدث عنه بالتفصيل بعد ذلك .

---

(١) انظر : أسس علم اللغة لماريوباى ١٣١

ولاشك فى أن المسح الجغرافى للهجات العربية المختلفة ، فى البلاد العربية ، له فوائد جليلة ، أهمها :

١ ــ دراسة هذه اللهجات لذاتها ، دراسة علمية عميقة ، لاكتشاف مافيها من خصائص الصوت والبنية والدلالة والتركيب ، ولمعرفة التغييرات المختلفة ، التى تطرأ عليها من وقت لآخر .

٢ ــ إثراء الدراسات فى العربية الفصحى نفسها ، إذ يتيح لنا ذلك المسح الجغرافى ، كتابة تاريخ هذه اللغة ، فى عصورها المختلفة ، ويمدنا بوسائل علمية لمعرفة أقرب اللهجات العربية ، صلة باللغة الفصحى ، وأبعدها عنها .

٣ ــ يمدنا هذا المسح الجغرافى بالمعلومات اللازمة ، لمعرفة مدى امتداد اللهجات العربية القديمة ، فى الوطن العربى ، ويفسر لنا النصوص المبتورة عن هذه اللهجات ، فى تراثنا العربى .

٤ ــ يتيح لنا هذا العمل ، فرص الدراسة المقارنة ، لابين اللهجات واللغة الفصحى فحسب ، ولكن بين اللغات السامية المختلفة كذلك ؛ ويقفنا على مصادر الكلمات الأجنبية هنا وهناك .

وقد أبان الأستاذ « شْتَيْجَر » Steiger العالم اللغوى السويسرى ، الذى له بهذا الموضوع عناية خاصة ، عن قيمة الأطلس اللغوى ، وأهميته للغة العربية ، بقوله فى تقرير له : « وبالنسبة للغة العربية ، نقول : إن القيام بعمل أطلس لغوى لها ، سيحدث ثورة فى كل الدراسات الخاصة بفقه اللغات السامية ؛ لأنه سيكمل من غير شك ، الدراسات التى تعتمد على النصوص القديمة ، بكشفه عن التطورات المتعلقة باللهجات ، وباللغات الشعبية العصرية . وسيكون لهذا الأطلس الفضل فى إطلاعنا على تاريخ الأصوات ،

والتغيّرات التى أصابت اللغة العربية ، فى الأماكن المختلفة التى غزتها ، وعن مدى انتشارها وتأثرها بالمراكز الثقافية ، وتنوع مفرداتها ، إلى غير ذلك من المكتشفات ، التى لا يمكن أن تتم ، إلا إذا جمعت هذه المواد . إنه سيكون عملا ثقافيا من الطراز الأول ، وسيكون تحقيقه عنوان مجد وفخار فى تاريخ الثقافة العالمية [١]» .

ولاتنطوى دراسة اللهجات على فوائد لغوية فحسب ، بل إنها تفيد المؤرخين وعلماء النفس والاجتماع ، على حد سواء ؛ ويمكن لذلك أن يستعان بالأطالس اللغوية ، على هذه الدراسات التاريخية ، والنفسية ، والاجتماعية ، على أساس أمتن وأشمل . وفى هذا يقول « يود » Jud وهو أستاذ سويسرى متخصص فى اللغات الرومانية وهى : الفرنسية والإسبانية والإيطالية : « من المستحيل أن يكتب تاريخ صحيح للشعب الفرنسى أو الإيطالى أو الأسبانى ، إلا إذا عرفت اللغات المحلية فى تلك البلاد ، ودرست دراسة عميقة . تلك حقيقة خطيرة ، أصبحت مقررة معروفة [٢] » .

طريقة عمل الأطلس اللغوى [٣]:

بدأت فكرة عمل الأطلس اللغوى ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى . وكان رائدا هذا النوع من الدارسة ، التى اعترف علماء اللغات بما لها من نفع فى حل المشكلات اللغوية ، هما : « ڤنكر » Wenker الألمانى ، و« جليرون » Gilliéron الفرنسى .

---

(١) انظر : الأطلس اللغوى ، للدكتور خليل عساكر ٣٧٩

(٢)انظر : الأطلس اللغوى ، للدكتور خليل عساكر ٣٨٠ وقد عمل «يود» أطلسا لغويا لإيطاليا وجنوب سويسرا مع « يابرج » Jaberg عنوانه : Sprach-und Sachatlas Italiens und der Südschweiz 1928-1940

(٣) انظر : الأطلس اللغوى ، للدكتور خليل عساكر ٣٨١ – ٣٨٤ ومناهج العمل فى الأطالس اللغوية ، للدكتور سعد مصلوح ١٠٩ – ١١٢

وقد قام كل واحد منهما بعمل أطلس لبلاده ، ظهر أحدهما وهو الأطلس اللغوى لفرنسا بين عامى ١٩٠٢ ـــ ١٩١٠ وعنوانه : Atlas linguistique de la France ولم يتم حتى الآن نشر الأطلس الألمانى ، وإن نشر جزء كبير منه ؛ فقد نشرت الدفعة الأولى منه ، وكانت مكونة من ست خرائط فى عام ١٨٨١ م . ومنذ عام ١٩٢٦ م ، أخذت طباعة الخرائط تتوالى ، على نطاق ضيق ، تحت إشراف « فْرِيدِه » Wrede .

وقد انتقلت فكرة عمل الأطالس اللغوية ، إلى بعض البلاد الأخرى ، كإيطاليا ، وسويسرا ، والسويد ، والنرويج ، والبرتغال ، وانجلترا ، أى أنها شملت معظم بلاد أوربا ، بل تعدتها إلى أمريكا ، وبعض البلدان الشرقية .

وفيما يلى وصف للطريقتين الألمانية والفرنسية ، فى عمل الأطالس اللغوية .

١ ـــ الطريقة الألمانية :

هذه الطريقة ابتكرها ، وقام بتنفيذها « ڤنكر » Wenker وقد بدأ عمله بجمع الخصائص اللهجية ، فى مساحة ضيقة ، هى مدينة « دُوسِلْدُورْف » وماحولها ، عام ١٨٧٦ م ، ثم وسع ميدان البحث تدريجيا حتى شمل الإمبراطورية الألمانية كلها ، فى ٤٩٣٦٣ جهة ، أى مايقرب من خمسين ألف نقطة تسجيل .

وتتلخص طريقته ،فى أنه ألف أربعين جملة ، تمثل أهم مايجرى على ألسنة الناس ، فى حياتهم اليومية بألمانيا ، وطبعها على شكل استمارة بها بيانات عن الراوى والمسجل اللغويين ، والجهة التى سجلت فيها اللهجة . وبعد ذلك تأتى الجمل الأربعون على النحو التالى :

صحيفة أسئلة لغوية خاصة باللهجات الألمانية

الجهة التى سمعت فيها اللهجة وسجلت : ... .

المركز : ... ... المقاطعة : ... ...

الراوى الذى نقلت عنه اللهجة	المسجل الذى سمع اللهجة ودوّنها
الاسم : ... ... السن : ... ... المهنة : ... ... محل الميلاد :	الاسم : ... ... السن : ... ... المهنـــة : ... ... محل الميلاد : ... ...
الجملة فى الألمانية الفصحى	الجملة فى اللهجــة المحليــة
١ ــ تسقط أوراق الشجر فى الشتاء وتتناثر فى الهواء .	... ...
٢ ــ ضع شيئا من الفحم فى الفرن حتى يغلى اللبن	... ...
٣ ــ إنه يأكل البيض دائما بغير ملح أو فلفل .	... ...
٤ ــ تؤلمنى قدماى بشدة والظاهر أنى سرت أكثر مما يجب .	... ...
٥ ــ ألا يمكنكم الانتظار لحظة حتى نذهب معكم ؟	... ...
٦ ــ لقد خرجت الكلمة من قلبه . ...الخ	... ...

وقد أرسلت هذه الاستمارات ، إلى الجهات المختلفة فى ألمانيا ، والتى بلغت حوالى خمسين ألف جهة ، بصفة رسمية ، وعلى نفقة الحكومة . أما المسجلون الذى سمعوا اللهجات الألمانية من أفواه الرواة ، ودوّنوها ، فكانوا فى معظم الأحوال من معلمى المدارس الأولية ، نظرا لمعرفتهم بأحوال القرى ؛ بسبب إقامتهم بها ، واتصالهم بالناس اتصالا كبيرا ، ثم لثقافتهم التى أهّلتهم لتسجيل النطق ، وتصويره كتابيا تصويرا قائما على أساس وإحساس لغويين ، لابأس بهما ، ولاغبار عليهما فى معظم الحالات .

وبعد أن تجمع الإجابات فى المركز الرئيسى لعمل الأطلس يبدأ بعمل خريطة لكل كلمة على حدة ؛ وذلك بأن تفرّغ أولا صور اللفظ ، وصيغه ، ومترادفاته ، على خرائط تفصيلية ، تشتمل على بلاد الأقاليم جميعها ، ثم تحدد عليها المناطق اللغوية المختلفة . وبعد هذا ترسم الخريطة العامة ، على ضوء الخرائط التفصيلية ، وتبيّن على هذه الخريطة العامة ، الحدود النهائية للمناطق اللغوية ، على وجه الإجمال .

٢ ــ الطريقة الفرنسية :

سادت هذه الطريقة فترة طويلة ،فى عمل الأطالس اللغوية ؛ وكيفيتها أن تعمل خريطة للإقليم ، الذى يراد وضع أطلس لغوى له ، وتنتخب منه قرى وبلاد ، يلاحظ فى كل منهما أن تمثل إلى حد كبير ، البيئة اللغوية ، التى توجد البلدة أو القرية فيها . وقد بلغ مجموع هذه البلاد فى أطلس إيطاليا ، حوالى أربعمائة بلدة .

ثم يؤلف كتاب خاص ، يعرف بكتاب الأسئلة اللغوية ، يحتوى على ألفى سؤال ، أو على ألفين وخمسمائة . ويراعى فى الأسئلة مايلى :

١ ـــ أن تكون شاملة لأهم الأشياء ، التى تشاهد فى المدن والقرى على السواء .

٢ ـــ أن تكون محتوية على أكثر الألفاظ شيوعا فى الحياة اليومية .

٣ ـــ ترتيب الأسئلة ترتيبا موضوعيا ، بحيث يختص كل جزء من الأطلس بموضوع أو بعدة موضوعات .

ومن أمثلة ذلك فى الأطلس اللغوى لإيطاليا :

(أ) أسماء الأهل وذوى القربى ، كالعم والخال والأخ والأخت وغيرهم .

(ب) أطوار العمر والميلاد والزواج والموت ومايتعلق به .

(ج) جسم الإنسان وصفاته من طول وقصر وبدانة ونحافة وغيرها .

(د) أسماء الصناعات والصناع .

(هـ) النقود والتجارة والأعداد .

(و) الوقت وأقسامه ، وظروف الزمان وظروف المكان .

(ز) الأرض والمعادن .

(ح) الأجرام السماوية والظواهر الجوية والأشجار والأزهار .

(ط) الملابس والأقمشة والغزل والنسج والحياكة والغسل ... إلخ إلخ .

وتأليف الكتاب الخاص بالأسئلة ، من أهم الأشياء التى تراعى فى هذا العمل . وبعد هذا تعمل منه طائفة من النسخ ، تعطى للمسجلين اللغويين ، الذين ينبغى أن يكونوا مدربين تدريبا كاملا من الناحية الصوتية ؛ فيذهب المسجل إلى القرية أو المدينة ، ويقضى بها أربعة أيام أو خمسة ، يسأل فى أثنائها بعض ثقاتها ، عن جميع ماورد فى كتاب الأسئلة ،

مستوضحا إياهم مايحتاج إلى إيضاح ، وواقفا منهم على التعبير الدقيق ، والنطق الصحيح لكل مايراد معرفته والإجابة عنه فى الكتاب المذكور ، مدوّنا الإجابات فى الصفحات المقابلة للأسئلة .

وعلى المسجل اللغوى ، أن يصور بقدر الإمكان مايراه غريبا غير مألوف ، فى البلاد التى يزورها ، من مختلف أنواع الملابس ، والأدوات المنزلية ، والآلات الزراعية والصناعية ، مسجلا أسماءها المختلفة ؛ لأن كثيرا من هذه الأشياء ، فى تغيّر دائم ، فمنها مايرقى ، ومنها مايفنى تماما .

أما الشخص الذى توجه إليه الأسئلة ، وهو مايطلق عليه اسم : « الراوى اللغوى » ، فيجب أن تتوفر فيه الأمور التالية :

١ ــ أن يكون من صميم أبناء البلدة التى يعيش فيها .

٢ ــ ألا يكون قد نزح عنها إلى بلاد غيرها ، ثم عاد إليها ، حتى لاتتأثر لهجته الخاصة ، بمؤثرات خارجية ، أو تختلط بلهجات أخرى .

٣ ــ أن يكون صريحا صادقا ، مخلصا فى الإجابة على مايوجّه إليه من أسئلة ، لايداور السائل ، ولايطوى عنه شيئا .

٤ ــ ألا يكون متأثرا بعوامل ثقافية ، يكون لها دخل فى تغيير لهجته .

٥ ــ أن يكون سليم مخارج الأصوات ، تام القدرة على فهم السؤال والتعبير عن نفسه ، وعلى إدراك المراد إدراك يقظ خبير فطن .

بهذه الشروط ، يستطيع مثل هذا الراوى اللغوى ، أن يمثل بلدته أو قريته ، تمثيلا لغويا ، هو أدنى مايكون إلى الصواب .

وإذا تم ارتياد المدن والقرى المعينة على الخريطة التى وضعت أساسا للعمل ، جمعت صيغ اللفظ ومرادفاته ، فى البلاد المختلفة ، وأخذ فى دراستها

وترتيبها ، تمهيداً لوضعها فى شكلها النهائى ، وصورتها الأخيرة على الخريطة ، ويكون ذلك بكتابة اللفظ مكان القرية أو البلدة ، التى يجرى اللفظ فيها على ألسنة أهلها .

ويشرح « ماريوباى » طريقة عمل الأطلس اللغوى فيقول : « يرسل جامعو المادة اللغوية المطلوبة ، إلى الأماكن المحلية ، التى يقع عليها الاختيار من إقليم ما ، رسمت حدوده ، لعمل خرائط له ، مع الاستعانة براوٍ ، يمثل المتكلمين المحليين .

«والغرض من ذلك ، السير فى الطريق السليم ، للتزوّد بمجموعات الكلمات أو العبارات أو الجمل ، أو حتى مدلولاتها ، التى سبق إعداد مقابلاتها . وكلما كان الراوى اللغوى أقل ثقافة كان أفضل ؛ لأن المتعلمين أو الأكثر تعلما فى المنطقة ، تتأثر لغتهم بمعلوماتهم ، واحترام اللغة الأدبية الوطنية .

«وفى حالة المسميات الممكن تصويرها ، تستخدم الصور حتى لايقع الراوى اللغوى ، تحت تأثير صيغة الكلمة الموجودة فى السؤال . وبعد ذلك فإن المادة اللغوية ، التى ينطقها الراوى اللغوى ، إماأن تكتب بالطريقة الصوتية ، أو تسجل على جهاز تسجيل ، أو تستخدم الطريقتان معا . وفى مرحلة المقابلة والمعارضة ، فإن كل كلمة أو عبارة أو اصطلاح ، يوضع على خريطة مستقلة كبيرة للمنطقة . ويحتوى الأطلس اللغوى لفرنسا ــ على سبيل المثال ــ على خريطة منفصلة كبيرة ، لكلمة (حصان) كما تستعمل فى لغة الكلام ، فى حوالى خمسمائة منطقة فرنسية مختلفة [١]» .

---

(١) أسس علم اللغة ١٣٢ ــ ١٣٣

الفرق بين الطريقتين :

تنحصر الفروق بين الطريقتين : الألمانية والفرنسية ، فى عمل الأطالس اللغوية ، فيما يلى :

١ ـــ الطريقة الألمانية تمتاز بالشمول ؛ لأنها لاتترك جهة إلا ذكرت رواية اللفظ فيها .

٢ ـــ الطريقة الفرنسية أدق من الألمانية ؛ لأن المسجلين اللغويين ، قد دُرّبوا التدريب الكافى فى مسائل اللغويات والأصوات ؛ وبذلك يعدّون ثقة ، فيما يدونون عن الرواة اللغويين .

٣ ـــ الطريقة الفرنسية ، طريقة مباشرة فى الأسئلة ، فليس هناك نموذج يمكن أن يؤثر على انطلاق الراوى على سجيته ، بعكس الطريقة الألمانية ؛ لأن جملها الأربعين ، أسئلة بطريقة غير مباشرة ، قد تؤثر على لغة الراوى ؛ ولذلك كانت الطريقة الألمانية أقل دقة من الطريقة الفرنسية ، فى هذه النقطة كذلك .

«وهناك واحد من أهم العيوب ،التى تقلل من قيمة الأطلس اللغوى ، وهو أنه لايثبت على مر الزمن ، مادامت اللهجات المحلية تتغير ، ربما بدرجة أسرع من اللغة الأدبية . ولهذا فإنه فى بعض الأحيان ، يعاد إجراء عملية المسح اللغوى بعد مرور سنوات عدة ، ويصبح من الممكن حينئذ عمل مقارنة بين نتائج الأطلسين ، وتكوين صورة شبه تاريخية ، عن التغيرات المتشابكة فى كلام مجتمع معين [١]» .

---

(١) أسس علم اللغة ١٣٣

محاولات « برجشتراسر » فى هذا الميدان [1] :

برجشتراسر : مستشرق ألمانى مشهور ، ولد فى عام ١٨٨٦ م ونال درجة الدكتوراه من جامعة ليبزج سنة ١٩١١ م ، برسالته عن « استعمال حروف النفى فى القرآن الكريم » ، وحاضر فى جامعات : ليبزج ، وبرسلاو ، وهيدلبرج ، واستقر به المطاف أخيرا فى ميونخ سنة ١٩٢٦ م ، وانتخب عميداً لكلية الآداب بها سنة ١٩٢٨ م . وفى العام الدراسى ١٩٢٩ / ١٩٣٠ م دعته كلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة ، لإلقاء محاضرات فى النحو المقارن بعنوان : « التطور النحوى للغة العربية » ، وقد طبعت فى مصر سنة ١٩٣٠ م . ثم دعته الحكومة المصرية مرة ثانية ، فى العام الدراسى ١٩٣١ / ١٩٣٢ م ، ليلقى محاضرات فى الجامعةعن : « نقد النصوص ونشر الكتب » ، وقد طبعت فى كتاب بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م ، فى مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية .

وكان « برجشتراسر » يكره هتلر ودعوته إلى النازية ، وتفضيله الحديد على الزبد ، وإيثاره العلوم العملية على العلوم النظرية ، وكان لايرى مانعا من حمل بندقيته والخروج لمحاربته ، فدفع هتلر إليه بمن يقتله . وكان برجشتراسر مغرما بتسلق الجبال ؛ ففى إحدى المرات ، حين كان يتسلق الجبال ، ومعه طالب من طلبته ؛ إذ تعلّق الطالب بقدمه ، فهوى حيث لقى حتفه ، فى أغسطس سنة ١٩٣٢ م .

أما أطلسه اللغوى ، الذى عمله لبلاد سوريا وفلسطين ، فقد قام بعمل تسجيلاته كلها بنفسه ، فى عام ١٩١٤ م ، بعد أن حصل على إجازة

---

(١) انظر : الجغرافيا اللغوية وأطلس برجشتراسر ، للدكتور رمضان عبد التواب .

من جامعة ليبزج ، ليقضى شهورا فى بلاد الشرق ، فسافر إلى الآستانة ، ومنها إلى سوريا ، وفيها تنقل بين بلادها ، باحثا وراء اختلاف اللهجات الدارجة بها ، فمكث أولا فى دمشق ، ثم سافر إلى الجنوب فى معان ، ثم إلى حلب فى الشمال ، وفلسطين ولبنان .

وكانت حصيلة هذه التسجيلات ، أن وضع أطلسا لغويا لسوريا وفلسطين ، هو عبارة عن ٤٢ خريطة تفصيلية وواحدة إجمالية ، مع شرح لغوى فى كتاب مستقل ، طبع فى ليبزج سنة ١٩١٥ م .

وسنعرض فيما يلى لطريقة « برجشتراسر » فى عمله هذا ، كما بيّن هو ذلك فى مقدمته لأطلسه ؛ إذ ذكر أن بحث اللهجات العربية قبله ، كان مقصورا على دراسة كل لهجة محلية دراسة مستقلة ، وبيّن أن هذه الدراسات السابقة ، تفتقر إلى التكملة عن طريق دراسة الفروق اللغوية ، فى مناطق كبيرة ، باستخدام الجغرافيا اللغوية .

وقد استخدم « برجشتراسر » الطريقة الألمانية ، فى عرض جمل معينة على راوى اللهجة ، غير أنه اختار جملا يتصل بعضها ببعض ، فى سياق قصة من القصص الشائعة فى المنطقة ، وعلل للسّرّ فى اختياره لتلك الطريقة ، بأن المقارنة عن طريق قوائم الكلمات ، لا يمكن معها درس الظواهر النحوية ، التى تحتاج إلى التراكيب ؛ فقال فى المقدمة :

« ويواجه تدبير المادة اللغوية القابلة للمقارنة ، صعوبات كبيرة ، بصرف النظر عن الصعوبات الأخرى ، التى تعترض سبيل تسجيل اللهجات ؛ فقد يكون من السهل عمل قوائم كلمات لموضوع ما ، ولكن مثل هذه القوائم — كما هو معروف — لاتحتوى فى الغالب إلا على أسماء وأعداد ، وقد تحتوى على أفعال وصفات وحروف . غير أننا نفتقد هنا الأمر

الذى لايزال كل شيء ، بالنسبة لعرض اللهجة عرضا كاملا نوعا ما ، وهذا الأمر هو التركيب ، موضوع دراسة النحو ؛ فإنه لايمكن الحصول عليه بهذه الطريقة مطلقا ، فيما عدا بعض التصريفات النحوية ، التى قد يخرج بها المرء ، بعد ساعات طويلة من الأسئلة . وهكذا لم تبق إلا طريقة واحدة ، وهى تسجيل نص متكامل ، أو على الأقل جمل متكاملة ، غير أن مثل هذا النمط من السلوك فى معالجة اللهجة ، عن طريق النص الكامل ، تصعب معه المقارنة الكاملة المطلوبة ، فلم يبق إلا أن يقسَّم النصّ إلى جمل صغيرة ، وينطق بها أمام الشخص الذى يمثل اللهجة (الراوى) ، وهو يعيدها منطوقة بلهجته . وهذا أمر خطير بالطبع ، ويحتاج إلى حذر شديد ، للوثوق من أن الراوى يتحدث بلهجته حقا ، ولا يحاول حسبما يستطيع أن يردد مايسمعه من غيره ، غير أنه لايجوز لنا أن نبالغ فى رفض الصيغ ، التى تشبه نظائرها فى نطق المسجل أمام الراوى . وقد حدث لى مرّات كثيرة ، أن الأهالى عندما كنت أسأل أحد البدو فى حضورهم ، كانوا يحاولون ـــ حينما يفهمون ماأريد ، أن يصححوا للبدوى ، كل الصيغ الغريبة ، التى ينطق بها على سجيته [١] » .

وقد ذكر « برجشتراسر » الصعوبات التى قابلته فى عمله ، الذى تولاه بنفسه فى منطقة واسعة ، ومدة قصيرة نسبيا ؛ فقال : « ومن القواعد المقررة ، أنه لايجوز الاعتقاد فيما يرويه العربى ، عن لهجة لايتحدثها هو بنفسه . وإلى جانب هذا ، تأتى صعوبات أخرى ، وعلى الأخص عندما يكون فى المكان ، الذى تبحث لهجته تعبيرات واصطلاحات أخرى ، غير التى ألقاها المسجل

---

(١) انظر : Sprachatlas, S.2 .

أمام الراوى ، فإن المرء لايحصل عليها عندئذ ، إلا بطريق الصدفة ، أو فى حالة ما إذا كان راوى اللهجة شخصا ذكى الفؤاد .

« وعلى العموم ، تظهر الطريقة المبينة هنا ، الفروق بين اللهجات ، أقل مما هى عليه فى الواقع ، وإنه ليفترض دائما حتى الآن ، أن الراوى قد أفلح عموما فى فهم مايريده المرء منه (وذلك عسير مع البدو خاصة) ، وأنه ذكى بدرجة كافية ؛ فقد اضطررت إلى قطع التسجيلات ، فى مرات كثيرة ، عند أول حديث مباشر فى النص الذى عملته ؛ لأن الراوى لم يكرره على أنه حديث مباشر ، بضميره المناسب .

« وقد تضاعفت هذه الصعوبات ، بسبب بعض الأمور الأخرى ، وقبل كل شىء بسبب ضيق الوقت الذى أملكه ؛ إذ اضطررت للقيام بتسجيلاتى كلها فى ٤٥ يوما، فى منطقة ذات أبعاد هائلة . وهكذا أصبحت مراكز التسجيل أقل مما كنت أرغب ، وفيما عدا ذلك كان لابد أن يقصر النص المعدّ للتسجيل ، وأن يصرف النظر فى كثير من الحالات ، عن فحص التسجيل ومراقبته ، بسبب ضيق الوقت ، وقد تسببت العجلة كذلك ، فى أننى لم أكن حذرا فى انتقاء رواة اللهجة ؛ إذ يجب أن يُختاروا من بين الأفراد ، الذين لم يتعرضوا لأى تأثير أجنبى (١) » .

وقد بيّن « برجشتراسر » بعد ذلك ، كيف اختار النص الذى عرضه على رواة اللهجة ، فذكر أنه أخذ القصة المعروفة بقصة « الفلاح والثور والحمار والديك » فى صيغتها الدمشقية ؛ لكى تفهم فى المنطقة كلها ، من كتاب « أوستروب Oestrup » ، غير أنه أعاد كتابتها مرة أخرى ، حتى يبتعد

(١) انظر : Sprachatls, S.2-4 .

عن الصيغ الفصيحة فيها ؛ ولكى يتأكد من عربيتها الدمشقية بعد هذا كله، عرضها على أحد الرواة من دمشق فأقرها . وفيما يلى جزء من هذه القصة :

« [١] كان فيه رجل فلاح [٢] بيعرف كلام الحواوين [٣] وعند و حمار وتور [٤] التور يحرت الأرض [٥] والحمار يركب عليه الفلاح [٦] يوم من الأيام قال التور للحمار [٧] أنا طول النهار باشتغل [٨] وانته بتقعد [٩] مابتعمل شى منوب [١٠] ياريتنى متلك يوم واحد [١١] اعطينى نصيحة إيشما كان [١٢] شو بدّى أعمل [١٣] قاللو الحمار عندى نصيحة [١٤] قاللو فرجينى شو عندك [١٥] قاللو الليلة لاتاكل عليقك [١٦] بيجى صاحبنا بيشوفك [١٧] بيظن انّك ضعيف [١٨] بيدَ شّرك يومين تلاته [١٩] قاللو التور إيو الله هادا راى [٢٠] رايح اعمل هيك » .

وفيما يلى أمثلة من دراسة « برجشتراسر » الجغرافية فى النواحى المختلفة :

ففى الناحية الصوتية مثلا : لاحظ « برجشتراسر » أن (الكاف) يختلف نطقها بين البدو والحضر ، وأن الصوت (تْش) لايسود على العموم فى الحضر ، إلا فى منطقة صغيرة ، وعلى الأخص فى تلك الجهات ، التى تحوّل فيها البدو إلى مستوطنين فى العصر الحديث ، وأن المدن كلها تنطق بصوت الكاف ، وأن السَّلْط تنطن (تش) فيما عدا المتعلمين فيها ، فهم ينطقون بالكاف ، وأن منطقة « عنيزة » فى الشمال تنطق بصوت (تْسْ) بدلا من الكاف ، وأن فى شمال منطقة (تش) الحضرية ، يتأرجح النطق بين (تْى ــ Ty) و(تش) ، كما فى منطقة « سُوِلم » مثلا .

وبالنسبة إلى الصيغ : لاحظ « برجشتراسر » مثلا أن الضمير « نحن » ينطق : « نِحنا » بين الحضريين فى الشمال ، وعدد قليل جدا من البدو ،

وينطق « إخنا » بين الحضريين فى الجنوب ، والبدو فى الغرب وينطق : « حِنّا » بين البدو فى الشرق ، كما يذكر أن عددا قليلا من البدو ينطق به : « لِحْنا » .

وفى مجال المفردات : يذكر « برجشتراسر » أن البدو يستخدمون فى معنى : « الآن » مثلا : كلمة « هَسَّعْ » أو « هَسَّاعْ » ، وكذلك الحضريون فى شرقى الأردن . أما باقى الحضريين ، فإنهم يستخدمون : « هَلَّقْ » أو « هَلَّأ » أو هَلَّقْت » أو «هَلَّأْت » ومأأشبه ذلك . وكذلك أيضا : « إسَّا » أو «هَلْقِت» أو «هَلْئِت» .

كما يذكر أن الحضر فى الجنوب الغربى يقولون : « فى عَرضك » أو «بِعَرضك» . أما البدو هناك فيقولون : «دِخَالك» ، وباقى المناطق تقول : «دَخِيلك» .

هذه بعض أمثلة ، لما فى هذا الأطلس اللغوى من ملاحظات لغوية قيمة . ويلاحظ فى هذا العمل أنه ككل دراسة جغرافية للغة ـــ وصفى بحت ، أى أنه يعنى بالواقع اللغوى ويسجله ، ولايهمه البحث عن الأسباب والدواعى ، التى قادت إليه ، أو بمعنى آخر : لايعنى بأصول الظواهر اللغوية . وقد أشار « برجشتراسر » فى خاتمة أطلسه إلى ذلك ، فقال : « وهذا البحث يرمى إلى توضيح الصلات اللغوية الحاضرة بين سوريا وفلسطين . وأما بحث تطورها التاريخى ، فهو عمل قائم بذاته ويحتاج فى تنفيذه إلى النقل الواسع عن المراجع التاريخية . وعلى العكس من ذلك ، لاتكمل البحوث التى تتعلق بلغة سوريا وفلسطين ، ولا تلك التى تتعلق بفتح العرب لهذه المنطقة ، إلا بمعرفة الصلات اللغوية الحاضرة . وإذا كان الفتح العربى لهذه المنطقة قد أدى إلى اندثار اللغة الآرامية ، فإن هذا البحث يحتاج إلى تكملة من جانب

اللغة الآرامية ، ممثلة فى بحث تأثير الآرامية على العربية ، وأثر العربية فى اللهجات الآرامية الباقية ، وهى لهجة (معلولة) من ضواحى دمشق » (١) .

ويتحدث « أنطوان مييه » عن صعوبة تسجيل اللهجات ، فيقول : « فإذا كان الأمر يتعلق بلغة محلية ، نجد أن الأشخاص الذين يستخدمونها محرومون عادة من كل ثقافة لغوية لوصفها . أما الأجانب ففضلا عن أنهم يفهمونها فهما غير كامل ، مع تفاوتهم فى ذلك ، فإنهم يجدون مشقة فى تمييز الأشخاص الذين يتكلمونها على نحو عادى ، بل إنهم عندما يعثرون على هؤلاء الأشخاص ، لايستطيعون بسهولة أن يأخذوا عنهم المعلومات اللازمة ؛ وذلك لأن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ، لايعون على وجه دقيق ، الطريقة التى يتكلمون بها (٢) » .

★ ★ ★

---

(١) انظر : Sprachatlas, S.53-54 .

(٢) علم اللسان لأنطوان مييه ٤٤٨ – ٤٤٩

الفصل السادس
اللغة المشتركة واللهجات

من المسلم به عند اللغويين ، أن معظم اللغات الأدبية فى العالم ، توجد بجانبها مجموعات من اللهجات المحلية ، والاجتماعية ، واللغات الخاصة . هذه اللغات وتلك اللهجات ، تسير كلها جنبا إلى جنب ، لافى الأقاليم وحدها ، بل فى داخل المدن الكبرى أيضا ؛ ففى جميع العواصم الكبرى الراقية ، نجد لغات الصالونات الأدبية ، ولغات العلماء المثقفين وغيرهم ، كما نجد لغات العمال والعاميات الخاصة ، التى تتكلم فى حواشى المدينة . وقد تختلف هذه اللغات بعضها عن بعض ، إلى حد أنه قد يعرف الإنسان إحداها ، دون أن يفهم الأخرى .

على أنه من الملاحظ كذلك ، أن الإنسان قلما يعيش محصورا فى مجموعة اجتماعية واحدة ؛ ولذلك كان من النادر أن تبقى إحدى اللغات ، دون أن تنفذ إلى مجموعات اجتماعية مختلفة . ومن المشاهد أن كل فرد يحمل لغة مجموعته ، ويؤثر بها على لغة المجموعة المجاورة ، التى يدخل فيها ، أو يتأثر بلغة هذه المجموعة .

ولتقريب ذلك إلى الأذهان ، يضرب لنا اللغويون [1]مثلا بأخوين يعيشان معا ، ولكنهما يمارسان مهنتين مختلفتين ، كل واحد منهما يحتك فى موقعه بمجموعات مختلفة ، ويأخذ عن أفرادها اللغة بالضرورة ، مع عادات التفكير والأعمال وآلات المهنة ؛ وبذلك ينشأ فى كل يوم بين الأخوين ،

---

(١) انظر : اللغة لفندريس ٣٠٧

اختلاف لغوى يؤدى بهما إلى التحقق من اختلاف لغتيهما بعض الشيء إذا لم يرأحدهما أخاه زمنا طويلا . ولكن هذا الاختلاف يزول فى كل مساء ، بفضل عودة الصلة بينهما من جديد .

إن هذين الأخوين يخضعان فى الواقع لتيارين متعارضين يتبادلان التأثير عليهما ، ومع أنهما لاينفصل أحدهما عن الآخر ، إلا بضع ساعات من النهار ، فإنهما يجدان اللغة التى يتفاهمان بها ، فى حاجة دائمة إلى التطهير من عناصر التفرقة ، التى تفد عليها من الخارج .

وهذان الميلان المتعارضان ، اللذان يوجهان اللغة فى طريقين متباينين ، هما : عامل « التفريق اللغوى » ، وعامل « التوحيد اللغوى » . فالتفريق يؤدى إلى انفصالات تزداد تعدّدا مع الزمن ، وتكون النتيجة : تفتت اللغة تفتتا يزداد بازدياد استعمالها ؛ إذ تضطرها إلى هذا التفّتت مجاميع الأفراد ، التى تترك وشأنها دون احتكاك بينها . غير أن هذا التفريق اللغوى ، لايصل إطلاقا إلى تمامه ، لأن سببا حيويا يقف فى طريقه ، ويعمل دائما على مناهضته ، ألا وهو عامل التوحيد ، الذى يعيد التوازن اللغوى .

ومن صراع هذين العاملين : عامل التفريق ، وعامل التوحيد ، تنتج أنواع اللغات المختلفة ، لدى الشعب الواحد ، من لغات خاصة ، واجتماعية ، ومحلية ، ولهجات إقليمية ، ولغة مشتركة .

وتقوم اللغات المشتركة دائما ، على أساس لغة موجودة تتخذ لغة مشتركة ، من جانب أفراد وجماعات ، تختلف لديهم صور التكلم (١) . والظروف التاريخية ، هى التى تفسر لنا تغلب هذه اللغة ، التى اتخذت

---

(١) انظر : اللغة لفندريس ٣٢٨

أساسا ، وتعلل انتشارها فى جميع مناطق التكلم المحلى المشتركة ؛ فهى دائما لغة وسطى ، تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعا .

هذه هى السمة الأساسية لكل لغة مشتركة ، وإذا أتيح لها أن تنتشر فى قطر من الأقطار ، أو فى دولة من الدول ، أخذت العناصر المشتركة التى تدخل فى تكوينها فى الازدياد . ويؤدى ذلك بالضرورة إلى النزول بمستواها ، كلما ازدادت انتشارا ، وازدادت العناصر التى تستعيرها ، من صور اللهجات المحلية .

أما عوامل قيام هذه اللغات المشتركة ، فترجع إلى التفوق السياسى ، والدينى ، والاقتصادى ، والأدبى ، والاجتماعى ، ونضرب على ذلك مثلا من اللغة العربية ؛ فقد انقسمت اللغة العربية ، منذ أقدم عصورها ، إلى لهجات كثيرة ، تختلف فيما بينها فى كثير من الظواهر الصوتية والدلالية ، كما تختلف فى مفرداتها وقواعدها ، تبعا للقبائل المختلفة ، التى تتحد ظروفها الطبيعية والاجتماعية ، أو تتباين هذه الظروف . ثم أتيحت لهذه اللهجات العربية ، فرص كثيرة للاحتكاك ، بسبب التجارة تارة ، وتجاور القبائل تارة أخرى ، وتنقلها فى طلب الكلأ والمرعى ، أو تجمعها فى مواسم الحج ، والمعاملات التجارية فى الأسواق ، واللقاء فى الحروب الأهلية والغزوات وأيام العرب ، وما إليها . وعندما اشتبكت هذه اللهجات فى صراع لغوى ، كان النصر فيها للغة مشتركة ، استمدت أبرز خصائصها من لهجة قريش ، التى طغت على سائر اللهجات الأخرى ؛ فأصبحت لغة الأدب بشعره ونثره ، ولغة الدين ، ولغة السياسة والاقتصاد .

أما العوامل التى ساعدت لغة قريش ، على أن تتبوأ — دون غيرها — هذه المكانة ، فإنها نفس العوامل التى تحدثنا عنها من قبل ؛ فقريش كانت

تتمتع بمنزلة دينية خطيرة قبل الإسلام ؛ لأن القرشيين كانوا جيران بيت الله الحرام وسدنته ، كما كانت القبائل العربية ، على اختلاف منازلها تحج إلى البيت ، وتقدم القرابين إلى أصنامهم وأوثانهم المبثوثة حول الكعبة .

وإلى جانب هذا العامل الدينى ، كان القرشيون يتمتعون بسلطان اقتصادى كبير ؛ لأنهم كانوا من أمهر العناصر العربية ، وأنشطها ، وفى يدهم جزء كبير من تجارة الجزيرة العربية ، ينتقلون فى بقاعها ، من سوريا شمالا إلى أقاصى اليمن جنوبا ؛ فهم فى الشتاء يرتحلون إلى اليمن ، وفى الصيف يذهبون إلى الشام ، ولايكادون يستقرون فى مكان ، إلا بمقدار الزمن الذى يحدده لهم البيع والشراء . وقد أتاح لهم هذا النشاط التجارى ثراء كبيرا ؛ ومن ملك المال واحتضن الدين ، فقد تحقق له سلطان سياسى قوى ؛ ولهذا كله كانت اللغة القرشية ، أقوى اللغات أثرا فى تكون اللغة العربية المشتركة ، أو العربية الفصحى .

وإذا كانت الأقاليم تختلف فيما بينها فى لهجاتها ؛ فإن طبقات الناس التى تعيش فى داخل كل إقليم ، تختلف هى أيضا فى لغاتها ؛ فإن الطبقة الغنية ، ذات الجاه والنفوذ المادى والسيطرة السياسية ، تخالف فى كلامها دون شك ، طبقات العمال والجنود والتجار والزراع ، وغيرها من الطبقات الأخرى .

كما أن الفارق بين الطبقات الاجتماعية ، فى الثقافة والتربية ، والتفكير ، ومستوى المعيشة ، والعادات والتقاليد . كل هذا وغيره يترك أثرا كبيرا فى لهجات هذه الطبقات الاجتماعية المتفاوتة ، فى طرق التعبير ، واستعمال المفردات ، ودلالتها ، وتكوين الجمل ، وماإلى ذلك من الظواهر اللغوية المختلفة .

وهذه اللهجات الاجتماعية [١] ، لاتتميز تميزا واضحا إلا فى المدن الكبيرة ، حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط الحركات الاقصادية ، وتعدد المهن والحرف .

وسواء أكانت اللهجات محلية أم اجتماعية ، فإنها تمتّ بصلة وثيقة للغة المشتركة . وقد يكون كلا النوعين منشعبا عن اللغة الأصلية ، يستمد منها أصول مفرداته وقواعده وتراكيبه ، غير أن السبب الرئيسى لنشأة اللهجات المحلية ،يرجع إلى اختلاف الأقاليم ، ومايحيط بكل إقليم من ظروف ، وخصائص تاريخية وجغرافية وسياسية ، على حين أن السبب الأساسى لنشأة اللهجات الاجتماعية ، يرجع إلى اختلاف الناس فى الإقليم الواحد ومايكتنف كل طبقة من شئون ، فى شتى مظاهر الحياة .

---

(١) انظر : علم اللغة لعلى عبد الواحد وافى ١٧٣

الفصل السابع

الصراع اللغوى
أسبابه ونتائجه

أصبح من المسلم به عند اللغويين ، أن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية ، وهذا الاحتكاك يؤدى إلى تداخلها إن قليلا وإن كثيرا ، ويكادون يقطعون بأن التطور الدائم للغة من اللغات وهى فى معزل عن كل احتكاك وتأثر خارجى ، يعدّ أمرا مثاليا ، لايكاد يتحقق ؛ ذلك لأن الأثر البالغ ، الذى يقع على إحدى اللغات من لغات مجاورة لها ، كثيرا مايلعب دوراً هاما فى التطور اللغوى ، ويترتب عليه نتائج بعيدة المدى ، إلى درجة أن بعض العلماء يذهبون إلى القول ، بأنه لاتوجد لغة متطورة لم تختلط بغيرها .

على أن الاحتكاك بين لغتين متجاورتين ،لايحدث دائما على وتيرة واحدة ، فى كل الحالات ؛ ذلك لأن قوة اللغات ليست واحدة ، ومن ثَمَّ اختلفت قدرتها على المقاومة ؛ فالألمانية والفرنسية مثلا ، لغتان قويتان تستويان فى القوة ، وبينهما اختلافات لغوية كبيرة ، فإذا ما تعرضتا للمنافسة والاحتكاك ، كانت المنافسة بينهما ، تكاد تكون محصورة فى الميدان الاقتصادى وحده ؛ ذلك أن الانتصار الذى تناله إحدى اللغتين ، يكون فى ميدان المعاملة ، أى فى صميم الحياة نفسها ، فإذا أتيح للألمانية أن تطرد الفرنسية من بعض القرى السويسرية ، أو أتيح للفرنسية أن تطرد الألمانية ، كان معنى ذلك أن سكان تلك القرى ، كانت بأيديهم أداتان متساويتان فى الصلاحية والقوة ، فاختاروا من بينهما أنفعهما لحاجات أعمالهم ، ولحياتهم اليومية ، ويترتب على هذا نقل الحدود اللغوية ، بحسب الجهة التى تفد منها العلاقات الاقتصادية [1] .

---

(١) انظر : اللغة لفندريس ٣٤٩ – ٣٥٠

فالمصلحة العملية ، هى وحدها الحكم فى مثل هذه الحالات وهى التى تحكم لهذه اللغة أولتلك . وقد تبقى اللغتان متجاورتين زمنا طويلا ، وهما فى حالة تعادل . وللموقف السياسى أهميته الكبرى كذلك ؛ فإن بعض الشعوب يتمسك بهذه اللغة دون تلك ويرخى لها عمدا عنان التفشّى ، مدفوعة بعاطفة وطنية ، أومحاولة نيل استقلالها ، أو نفورا من دولة مجاورة لها .وهذا مشاهد فى الأقطار البلقانية ، وفى أيرلندة ، حيث تتجه حركة وطنية إلى إحياء اللغة القديمة للبلاد ، تخلصا من لغة أعدائهم الإنجليز . واللغة الفرنسية لم تنتشر يوما فى « الألزاس » ، بقدر ماكانت تتكلم زمن انضمام هذا الإقيم للإمبراطورية الألمانية ، أما حينما كانت مقاطعة الألزاس جزءا من فرنسا ، ولم تكن مضطرة إلى أن تتخذ لغة بعينها ، فلم يكن لديها باعث قوى يحملها على ترك لهجاتها الجرمانية المحلية .

وإلى جانب العوامل الاقتصادية والسياسية ، هناك عامل عاطفى له أثره فى المحافظة على سلامة الكثير من اللغات وبقائها ؛ وهو عامل « الهيبة » [١]. وكثيرا مايكون هذا العامل مستمدا من القيمة الذاتية للغة ؛ فاليونانية مثلا ، كانت تمثل ثقافة من أعرق الثقافات البشرية ؛ ولذلك لم تستطع اللغة اللاتينية التغلب عليها ، كما لم تستطع بعد ذلك اللغة التركية ، مع أنها كانت لغة الفاتحين سياسيا وحربيا . وكذلك لم يتمكن الاحتلال التركى للشرق ، خلال قرون عديدة ، من القضاء على اللغة العربية ، وإحلال التركية محلها ؛ لأن التركية ليست بأية حال من الأحوال ، من لغات الحضارات الكبيرة ، بخلاف اليونانية والعربية .

---

(١) انظر كذلك : اللغة لفندريس ٣٥٠

هذه هى بعض أمثلة الصراع الذى يحدث بين لغتين كبيرتين . فما لون الصراع الذى ينشا بين لغة مشتركة ، تمثل مدنية منظمة تنظيما قويا ، ومجموعة من اللهجات المحلية ، لا وحدة لها ، ولا تناسق بينها ؟

تتمثل لنا هذه الحالة فى موقف اللغتين : الفرنسية والبريتانية ، وهى اللغة الأصلية لمقاطعة « البريتون » Bretagne فى غربى فرنسا . فإن المنافسة فى هذه الحالة ، تدور حول انضمام دائم ، لعدد كبير من عناصر إحدى اللغتين إلى الأخرى ، حتى ينتهى الحال بأن تفقد إحداهما معالمها اللغوية ؛ ذلك أن اللغة الفرنسية ، توغلت فى كل اللهجات البريتانية؛ لأنها لغة الحضارة التى تحمل معها تيارا جارفا من الكلمات الجديدة ، التى تمثل أشياء وأفكارا وعادات جديدة ، كما أن الدين والآداب الفرنسية ، قد ملأت اللهجات البريتانية بالكلمات الفرنسية ، عن طريق كتب العبادة والتهذيب ، منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وما زالت حتى الآن تطغى بمفرداتها ؛ لأن تعليم اللغة الفرنسية فى المدارس البريتانية ، والخدمة العسكرية الإجبارية ، وغيرها من العوامل الأخرى ، قد جعلت غالبية أهل مقاطعة البريتون يتكلمون لغتين : البريتانية والفرنسية .

وكان التوغل قبل ذلك ، يقوم على نوع من التسرب غير المحسوس ، فكانت البريتانية تتلقى عن غير شعور منها ، عددا من الكلمات الفرنسية ، أخذ يزداد يوما بعد يوم ، غير أن البريتانيين كانوا وقتذاك يتكلمون لغتهم وحدها ، وإن دخلت فيها ألفاظ فرنسية ؛ ذلك لأن الفوائد التى يمكن الحصول عليها من معرفة الفرنسية ، تفوق كثيرا تلك التى يمكن الحصول عليها من معرفة البريتانية وحدها ؛ لأن الفرنسية لغة برجوازية تستعمل دون سواها فى مجمعات المدن ، وتغرى بنات الريف بالتحدث بها ، كما تغريهن ثياب الطبقة الراقية بارتدائها ، ولا يخفى أن عقلية الشعوب ، تكاد تكون

متقاربة فى مثل هذه الحالات من التقليد . يضاف إلى هذا كله أن البريتانيين أصبحوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالمجتمع البرجوازى ؛ فمنهم طبقة الموظفين فى كثير من الأعمال الحكومية والأهلية ، ومقاطعتهم مزدحمة بالسائحين الفرنسيين والأجانب على السواء ، مما جعل التحدث بالفرنسية ، ميزة وضرورة فى آن واحد ؛ لأنها تيسر لهم موارد رزقهم ، وتفتح الأبواب أمامهم ، وتعينهم على التفاهم مع غيرهم (١).

وهكذا تغلبت الفرنسية على البريتانية ، وأصبحت لغة مشتركة ، بالنسبة للمقاطعة كلها ، وإن كانت البريتانية ، لا تزال متماسكة فى بعض أرجاء المقاطعة ، وبخاصة بين بعض الطوائف المعينة ، مثل صيادى السردين وعمال الملاحات ، وقاطعى الإردواز ، وتجار الخيول ، وغيرهم .

من هذا العرض ، نرى أن الصراع اللغوى ، هو وحده الذى يقضى على لغة من اللغات ، أو لهجة من اللهجات . ولايمكن تحديد زمن هذا الصراع تحديداً تاما ، إلا إذا نظرنا إلى الظروف ، التى تحيط باللغة المقهورة ، وإلى مقدار مافيها من حيوية وقوة مقاومة .

ويضع علماء اللغة لهذا الصراع مراحل ، تظهر فى كل مرحلة منها عوامل تساعد على انحلال اللغة المقهورة ، وتؤدى إلى القضاء عليها :

ففى المرحلة الأولى :تطغى مفردات اللغة المنتصرة ، وتحل محل اللغة المقهورة شيئا فشيئا وتكثر هذه الكلمات أو تقل تبعا للمقاومة التى تبديها اللغة المهزومة ؛ فاللغات البربرية لم تترك فى اللغة العربية المنتصرة إلا كلمات قليلة ، وكذلك الحال فى لغة بلاد الجال ، التى تغلبت عليها اللاتينية .

---

(١) انظر : اللغة لفندريس ٣٥٤

أما إذا كان الصراع بين اللغتين شديدا ، وطويل الأمد ، فإن اللغة المقهورة ، قد تحتفظ بمفردات كثيرة ، تدخل فى اللغة الغالبة . مثال ذلك : ماحدث بين لغة الإنجليز السكسون بانجلترا ،ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورمانديين ؛ إذ خرجت الإنجليزية المنتصرة فى هذا الصراع ، وقد فقدت ما يقرب من نصف مفرداتها الأصلية ، واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة .

وفى المرحلة الثانية : تتغير مخارج الأصوات ، ويقترب النطق بها ، من النطق بأصوات اللغة الجديدة شيئا فشيئا ، حتى تصبح على صورة تطابق أو تقارب الصورة التى هى عليها فى اللغة المنتصرة ؛ وذلك بأن يتصرف المغلوب تصرف الغالب فى النطق بالأصوات ، فتتسرب بذلك أصوات اللغة الغالبة إلى اللغة المغلوبة ، فى طريقة نطقها ، ونبرها ، ومخارجها ؛ فينطق أهل اللغة المغلوبة ألفاظهم الأصيلة ، وما انتقل إلى لغتهم من كلمات دخيلة ، متخذين نفس المخارج ، ونفس الطريقة ، التى يسير عليها النطق فى اللغة الغالبة . وهذه المرحلة تعدّ أخطر مراحل الصراع اللغوى ؛ إذ يزداد فيها انحلال اللغة المغلوبة ، ويشتد قربها من اللغة الغالبة .

وفى المرحلة الثالثة : تفرض اللغة المنتصرة قواعدها وقوانينها اللغوية الخاصة بالجمل والتراكيب ؛ وبهذا تزول معالم اللغة المقهورة ، وحينئذ تبدأ اللغة المنتصرة ، فى إحلال أخيلتها واستعاراتها ، ومعانيها المجازية ، محل الأخيلة والاستعارات والمعانى ، للغة القديمة ، التى تموت شيئا فشيئا .

إلا أن النصر لايتم للغة من اللغات ، إلا بعد أمد طويل ، قد يصل أحيانا إلى أكثر من أربعة قرون ؛ فالرومان أخضعوا بلاد الجال فى القرن الأول الميلادى ، ولكن لم تتم الغلبة للغة اللاتينية ، إلا فى القرن الرابع .

وفى كل صراع لغوى ، لاتتم هذه المراحل دفعة واحدة ، ولا تختفى لهجة أو لغة ، إلا وقد تركت بعض مفرداتها أو تراكيبها أو قواعدها ، أو أثرت بأى صورة من الصور ، فى معانى المفردات للغة الجديدة ، وبخاصة إذا كانت اللغتان من فصيلة لغوية واحدة .

والخلاصة أنه متى اجتمعت لغتان فى صعيد واحد ، فإنه لامفرّ إطلاقا من أن تتأثر كل منهما بالأخرى ، سواء فى ذلك أتغلبت إحداهما على الأخرى ، أم بقيت كل واحدة منهما بجوار أختها (١).

على أن هذا التأثر يختلف فى كمه وكيفه ، ونواحى ظهوره ، ونتائجه ، فى حالة تغلب لغة على أخرى ، عنه فى حالة بقائهما معا ؛ ذلك أننا نرى اللغة الغالبة ، تستسيغ وتتمثل كل ماتأخذه من الأخرى المغلوبة ، مهما كثر مقداره . وفى هذه الحالة يتحوّل المستعار إلى عناصر من نوع عناصرها هى ، ويدخل فيها فتزداد به قوة وتجدّدا ونشاطا ، دون أن تجعل له أى مجال للتأثير فى بنيتها ، أو تتيح له فعل أى تغيير فى تكوينها الأصلى .

أما اللغة المغلوبة ، فإنها على العكس من ذلك ، لاتستطيع إطلاقا أن تقضى على مقاومة ماتقذفها به اللغة الغالبة ، من مفردات وقواعد وأساليب ، ولاتكاد تسيغه ، فتفقد وحدتها وطابعها ، وبذلك تضعف بنيتها ، ثم تزول شيئا فشيئا . وقد كان هذا مصير اللغات السامية ، فى صراعها مع العربية ، فى الأمصار المفتوحة ، ومصير اللغة النورماندية المغلوبة ، مع الإنجليزية الغالبة .

---

(١) انظر : علم اللغة لعلى عبد الواحد وافى ٢٢٣

أما إذا كتب للغتين البقاء ، فإن كل لغة منهما ، تعمد إلى ما تأخذه من الأخرى ، وتضفى عليه من حيويتها ، وتقضى على مافيه من الآثار الهدامة ، سواء أكانت هذه الأثار متعلقة بالأصوات ، أم بالقواعد ، أم بالبنية ، أم بالأساليب . وعلى هذا تبقى كل منهما وتعيش بجوار أختها ، لها طابعها الخاص ، وشخصيتها القوية .

ولقد كان هذا شأن العربية ، مع اللغة التركية ــ كما عرفنا من قبل ــ ومع اللغة الفارسية ، حين دخلا فى صراع لغوى ، بعد أن فتح العرب بلاد فارس ، وشأن الألمانية والفرنسية فى سويسرا ، كما ذكرنا سابقا .

ويضع اللغويون قواعد تنص على أن اللغة ، لاتتغلب على لغة أخرى ، إلا إذا توفرت الأسس التالية :

١ ــ أن تكون اللغة الغالبة ، لغة شعب متحضر ، أرقى من الشعب المغلوب ، فى حضارته وثقافته ، وأقوى منه سلطانا وأوسع نفوذا .

٢ ــ أن تبقى غلبة الغالب زمانا كافيا ، مع استمرار قوته ؛ لتتمكن اللغة الغالبة من بسط نفوذها ، ويتم لها نصر حقيقى .

٣ ــ أن تكون هناك جالية كبيرة العدد والنفوذ ، تقيم بصفة دائمة فى بلاد الشعوب التى غلبت لغتها ، وتمتزج بأفراد هذا الشعب ، ولاتعيش إطلاقا فى عزلة عنه .

٤ ــ أن تكون اللغتان : الغالبة والمغلوبة ، من شعبة لغوية واحدة ، أو من شعبتين متجاورتين .



القسم الثانى
مناهج البحث اللغوى
وتطبيقات المنهج المقارن

الفصل الأول
المنهج المقارن
بين مناهج البحث اللغوى

كان اكتشاف اللغة السنسكريتية (إحدى اللغات الهندوأوربية القديمة) فى نهاية القرن الثامن عشر ، نقطة تحوّل خطيرة فى الدراسات اللغوية ؛ فقد كان العلماء يهتمون قبل ذلك ، بدراسة فقه اللغتين : اللاتينية واليونانية ، ويبحثون فى أصل اللغة عموما ، ويقوّمون كل لغة بالنسبة إلى اللغات الأخرى ، من جهات متعددة ، كجمال الأسلوب ، والثروة الكلامية ، وضخامة التراث القديم ، وماإلى ذلك . ومعظم هذه البحوث بحوث فيما وراء الطبيعة ، كما أن الأحكام الذاتية لا الموضوعية تلعب دورا كبيرا فيها .

وعندما حل القرن التاسع عشر ، شهدت الدراسات اللغوية تطورا كبيرا . وكان من أهم ماأتى به هذا القرن ، هو الاتجاه إلى الدراسة اللغوية التاريخية ، بعد أن اكتشفت اللغة السنسكريتية وعرفت علاقتها باللاتينية والإغريقية وغيرهما .

ومنذ ذلك الحين عرفت الدراسة اللغوية ، ثلاثة مناهج هى : المنهج الوصفى ، والمنهج التاريخى ، والمنهج المقارن .

أما المنهج الأول ، فيكتفى بوصف أية لغة من اللغات عند شعب من الشعوب ، أو لهجة من اللهجات ، فى وقت معين ، أى أنه يبحث اللغة بحثا عَرْضياً لا طوليا ، ويصف مافيها من ظواهر لغوية مختلفة ، ويسجل الواقع اللغوى ، تسجيلا أمينا. بل إن « أنطوان مييه » (A.Meillet) يذهب إلى أبعد

من هذا ، حين يرى أن المنهج الوصفى « يعنى بدارسة الاستعمال اللغوى فى عمومه ، عند شخص بعينه ، فى زمان بعينه ، ومكان بعينه [(١)] » .

فالمنهج الوصفى يقوم على أساس وصف اللغة أو اللهجة فى مستوياتها المختلفة ، أى فى نواحى أصواتها ، ومقاطعها ، وأبنيتها ، ودلالاتها ، وتراكيبها ، وألفاظها،أوفى بعض هذه النواحى ، ولايتخطى مرحلة الوصف . والأطالس اللغوية مثال من أمثلة تطبيق هذا المنهج الوصفى على اللغات واللهجات ، فهى لاتعرض علينا سوى الواقع اللغوى مصنفا ، دون تدخل من الباحث بتفسير ظاهرة ، أو تعليل لاتجاه لغوى،هنا أو هناك .

وغالبا ماتنصب هذه الدراسة الوصفية ، على اللغات واللهجات المعاصرة ، « وإن كان بعض العلماء ، قد قاموا بمحاولات لدراسة اللغة ، دراسة وصفية فى زمن معين فى الماضى [(٢)] » ، فأية دراسة صوتية أو صرفية أو تركيبية أو دلالية ، لإحدى اللهجات القديمة أو الحديثة ، تعدّ دراسة وصفية .

وقد حقق علم اللغة الوصفى فى القرن العشرين ، نهضة كبرى ، أدت إلى كثير من التطورات المهمة ، فى علم اللغة المعاصر ، وكان القرن التاسع عشر حاملا لكثير من الإرهاصات ، لهذا العلم الحديث .

وكان من أكبر الباحثين ، الذين أثروا فى مجال الفصل بين الدراسات الوصفية والتاريخية ، العالم السويسرى : « فردينان دى سوسير » F.de Saussure (١٨٥٧ ـــ ١٩١٣ م) الذى وضع حجر الأساس فى الدراسات

---

(١) علم اللسان ٤٥٣

(٢) لغات البشر لماريوباى ٧٣

اللغوية البنيوية أو الوصفية ، وأثار فى كتابه : « محاضرات فى علم اللغة العام » Cours de Linguistique générale الذى نشر بعد وفاته سنة ١٩١٦ م ، وجهة نظر جديدة « إذ اعتبر اللغويات الوصفية ، لاتقل أهمية عن اللغويات التاريخية ، كما حدد وظيفة كل منهج وحدوده » [١] .

وقد شهد القرن العشرون مدارس لغوية وصفية متعددة ، أهمها :

١ ــ المدرسة اللغوية البنيوية :

Structural Linguistics.

٢ ــ مدرسة النحو التوليدى التحويلى :

Transformational - Generative Grammar.

٣ ــ مدرسة القوالب :

Tagmemic Analysis.

وفيما يلى نكشف النقاب عن خصائص كل مدرسة من هذه المدارس :

(١) المدرسة اللغوية البنيوية :

يعد « دى سوسير » من العلماء الأوائل ، الذين مهدوا الطريق لهذه المدرسة ، فى محاضراته بجامعة جنيف (١٩٠٦ ــ ١٩١١ م) التى جمعها طلابه بعد وفاته سنة ١٩١٣ م فى كتابه المشهور : « محاضرات فى علم اللغة العام » وأصدروه سنة ١٩١٦ م بالفرنسية ، ثم ترجمة Wade Baskin بعنوان : Course in general Linguistics فى عام ١٩٥٩ م .

---

(١) لغات البشر ٧٤

وقد فرق « دى سوسير » بين مايمكن أن يسمى باللسان La Langue ومايمكن أن يسمى بالكلام La Parole **أما اللسان** فيقصد به أنواع الأنظمة وأنماط الأبنية ، التى تعود إليها منطوقات اللغة . أو هو بعبارة أخرى : نظام من المواضعات والإشارات ، التى يشترك فيها جميع أفراد مجتمع لغوى معين ، وتتيح لهم من ثمة الاتصال اللغوى فيما بينهم . وأما الكلام ، فهو فى رأى دى سوسير : كلام الفرد ، أو المنطوقات الفعلية نفسها (١) .

ويتصف اللسان بأنه اجتماعى ، وجوهرى ، ومجرد ، ومستقل عن الفرد ، بعكس الكلام الذى يتوقف على الإرادة والذكاء عند الفرد (٢) .

وقد تمكن دى سوسير بذلك من تفسير طبيعة نظام اللغة ، والتنوع الفردى للغة . وكان يعتقد أن اللسان ـــ وهو نظام اللغة المقصود (التحتى) ـــ هو الموضوع الصحيح للدراسات اللغوية ؛ لأنه يشتمل على أنماط منتظمة ، يرغب علماء اللغة البنيويون فى اكتشافها ووصفها .

كما بين « دى سوسير » أن كل لسان ينبغى أن يتم تصوره ووصفه على أنه نظام من العناصر المترابطة ، على المستويات الدلالية والنحوية والصوتية ، لاعلى أنه تراكم من كيانات قائمة بذاتها . وقد عبر عن نظريته تلك بقوله : « إن اللسان شكل لامادة » . وعلى هذا المدخل البنيوى للغة ، يقوم صرح علم اللغة المعاصر بأسره ، وهو الذى يسوغ دعوى « دى سوسير » باستقلال علم اللغة ، ليصبح علما قائما بذاته (٣) .

---

(١) انظر : De Saussure, Course 9 - 15 .

(٢) الألسنية أحدث العلوم الإنسانية ١٠٨

(٣) انظر : R.H. Robins, A Short history 200 - 201 .

وممن تأثر بنظرية دى سوسير : العالم « فرانز بوعز » Franz Boas الذى كان مهتما — وهو من علماء الأنثروبولوجيا — بالوصف المفصل للفونولوجيا ، أى النظام الصوتى فى لغة من اللغات ، ثم ينتقل بالتالى إلى وصف المورفولوجيا أو النظام الصرفى فيها فى مستوى الكلمة (Word) والعبارة (Phrase) . وقد نادى « بوعز » بضرورة دراسة كل لغة على حدة ، وفقا لأحوالها الخاصة . وقد أصبح رأيه هذا فيما بعد ، أحد المعتقدات الأساسية فى الدراسات الوصفية فى أمريكا .

وجاء بعد « بوعز » تلميذه : « إدوارد سابير » Edward Sapir الذى كان يؤمن بضرورة وصف كل لغة ، وفقا لأحوالها الخاصة ، كأستاذه ، ولكنه لم يكن مؤمنا بالفئات أو الوحدات اللغوية المتواضع عليها كأجزاء الكلام ، بل كان يرى أن الوحدات الأساسية ، كالاسم والفعل ، والعمليات النحوية الأساسية ، كترتيب الكلمات — هى أمور قائمة فى جميع اللغات التى يحتمل أن تكون لها عناصر كلية مشتركة ، وذلك فى المستويات الأساسية ، الكبيرة ، التى تقوم عليها اللغات [١] . وكان تركيز « سابير » على العقل والفكر ، موضع اهتمام علماء اللغة التحويليين .

وجاء بعده « بلومفيلد » Leonard Bloomfield الذى أسهم فى تطوير المدرسة اللغوية البنيوية ، وتوضيح قوانينها ، ووضع مناهجها الأساسية . وقد هيمن كتابه : « اللغة » Language الذى نشر سنة ١٩٣٣ م ، على معظم الدراسات اللغوية ، فى السنوات الثلاثين التالية لصدوره .

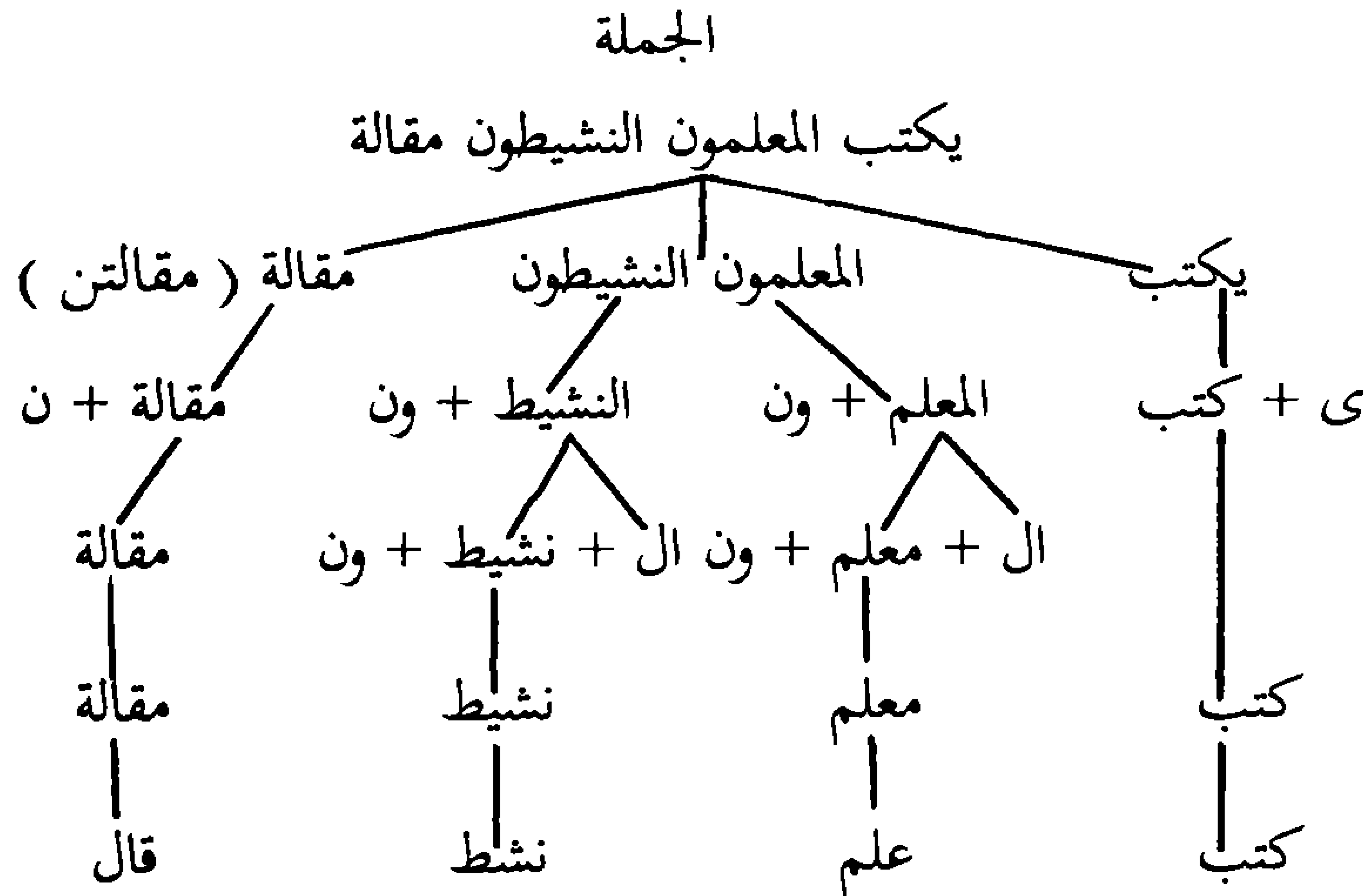
وكان « بلومفيلد » من أتباع المدرسة السيكولوجية السلوكية فى دراسة

---

(١) انظر : Sapir, Language 144 .

اللغة ، مما جعله يرفض تركيز « سابير » على العقل ، ويقصر عمله على مراقبة الظواهر الخارجية القابلة للقياس ، والتى يمكن فيها تطبيق مبدأ « المثير » و « الاستجابة » . كما اهتم بالقياس اللغوى ، مع عدم الانصراف عن أخذ المعنى فى الحسبان . وإن كان يقرر (١) أن اعتبار المعانى يعد أضعف نقطة فى دراسة اللغة . وهو يعتقد أن وصف لغة من اللغات ينبغى أن يبدأ بالفونولوجيا . وقد حاول أتباعه أن يطبقوا هذا المبدأ نفسه فى دراستهم للمورفولوجيا أو الصرف ، ونظام الجملة ، بل إنهم ذهبوا شوطا بعيدا حين حاولوا استبعاد المعنى من دائرة التحليلات اللغوية .

وتتبع هذه المدرسة فى تحليل الجملة منهجا مبنيا على أساس أنها مؤلفة من طبقات من مكونات الجملة ، بعضها أكبر من بعض ، إلى أن يتم تحليلها إلى عناصرها الأولية من الكلمات والمورفيمات .وفيما يلى مثال يبين بشكل مجرد ، مختلف العلاقات القائمة بين العناصر المختلفة التى تكون الجملة : (٢)



---

(١) انظر : Bloomfield, Language 140 .

(٢) انظر : الألسنية العربية لريمون طحان ٢/٥٣

(٢) مدرسة النحو التوليدى التحويلى :

أدت الرغبة إلى تبنى منهج عقلى فى دراسة اللغة ، إلى نشوء طريقة جديدة عند علماء اللغة الأمريكان ، أطلقوا عليها اسم : « علم اللغة التحويلى » Transformational Linguistics وقد رفضت هذه المدرسة الجديدة كثيرا من الأسس التى ارتضتها المدرسة البنيوية ، من النواحى التالية :

١ — فمن حيث الموضوع ، كانت المدرسة البنيوية تتخذ من النصوص اللغوية موضوعا لدراستها ، على حين اتخذت المدرسة التحويلية من قدرة المتكلم على إنشاء الجمل التى لم يكن سمعها من قبل ، موضوعا لها .

٢ — ومن حيث أسلوب الدراسة والتحليل ، كانت المدرسة البنيوية تعتمد على وسائل الاستكشاف ، على حين يؤمن التوليديون بضرورة الحدس والتخمين ، ثم إجراء الاختبار ، لتقويم الفروض المتضاربة .

٣ — ومن حيث الهدف ، كان البنيويون يحاولون بدراساتهم القيام بتصنيف عناصر اللغات المدروسة ، على حين جعل التوليديون تعيين القواعد النحوية الكامنة وراء بناء الجملة هدفا لهم . وهذا يعنى الكشف عن وجود عدد غير متناه من الجمل فى أية لغة ، وتوضيح أى نوع من سلاسل الكلمات تشكل جملا ، وأيها لايشكل جملا . وكذلك وصف البنية النحوية لكل جملة [١] .

٤ — وعلى حين كان البنيويون يرون أن لكل لغة بنيتها التى تتفرد بها ، يرى التوليديون أن اللغات تتشابه على مستوى المقصود (العميق) من المعانى ، ويحاولون الكشف عن هذه التشابهات الكلية .

---

(١) الألسنية أحداث العلوم الإنسانية ١٢٧

٥ ــ كان كثير من البنيويين يستبعدون المعنى من دراستهم للغة استبعادا كليا ، ويهتمون بالشكل الخارجى للغة . ويرى « ديفيد كريستال » أن الكلام عن التحليل اللغوى بلا إشارة للمعنى ، شبيه بمن يصف طريقة صنع السفن دون الإشارة إلى البحر (١) ؛ ولذلك يعد التحويليون اعتبار المعنى فى التحليل اللغوى ، أمرا ضروريا فى شرح العلاقة بين الجمل ، التى تحمل نفس المعنى وتختلف فى ظاهر تراكيبها .

وعلى رأس علماء المدرسة التحويلية التوليدية فى دراسة اللغة : « هاريس » Harris وتلميذه « تشومسكى » Chomsky . وقد كان لهما أكبر الأثر فى نشوء علم اللغة التوليدى والتحويلى . أما « التوليدى » فهو علم يرى أن فى وسع أية لغة أن تنتج ذلك العدد اللانهائى ، من الجمل التى ترد بالفعل فى اللغة . وأما « التحويلى » فهو العلم الذى يدرس العلاقات القائمة بين مختلف عناصر الجملة ، وكذلك العلاقات بين الجمل الممكنة فى لغة ما (٢) .

ويعد « هاريس » الأب الحقيقى لعلم اللغة التحويلى ، و « تشومسكى » الأب الحقيقى لعلم اللغة التوليدى . كما أدخل الأخير كثيرا من التعديلات على علم اللغة التحويلى عند « هاريس » . وقد نشر « هاريس » بحوثه بين ١٩٥٢ و ١٩٥٧ م ، وعرّف التحويل بأنه عملية نحوية تغير ترتيب المكونات فى داخل جملة ما ، وبوسعها حذف عناصر أو إضافتها أو استبدالها (٣) .

---

(١) انظر : أضواء على الدراسات ، لنايف خرما ٢٩٥

(٢) انظر : Micropaedia VIII 667 - 668 .

(٣) انظر : Bornstein, An Introduction 18 .

وقد ميز « هاريس » بين مجموعتين فرعيتين من الجمل النحوية الكلية ، القائمة فى لغة كالإنجليزية مثلا :

١ ــ الجمل النواة Kernelsentences .

٢ ــ الجمل غير النواة Nonkernelsentences .

ويمكن الفرق بين هاتين المجموعتين الفرعيتين ، فى أن الجمل غير النواة ، يتم اشتقاقها من الجمل النواة ، بواسطة قواعد تحويلية . مثال ذلك من العربية جملة مثل : « سَرَقَ اللصُّ البنكَ » فهى جملة نواة ، يمكن أن تشتق منها جملة غير نواة ؛ نحو : « سُرِقَ البنكُ » . وتبدو العلاقة التحويلية بين هاتين الجملتين على النحو التالى :

فعل متَعدّ مبنى للمعلوم + مورفيم المعلوم + اسم (١) + اسم (٢)
← فعل مبنى للمجهول + مورفيم المجهول + اسم (٢) .

فقد استبدل فى أثناء عملية التحويل ، مورفيم البناء للمجهول بمورفيم البناء للمعلوم ، كما حذف الفاعل (الاسم رقم ١) من الجملة النواة ، وتحول المفعول به (الاسم رقم ٢) إلى نائب فاعل . وهكذا نرى التحويل هنا يقتضى الحذف والاستبدال ، وإعادة ترتيب المكونات .

أما « تشومسكى » فقد لاحظ ، وهو يحضر للدكتوراه فى جامعة بنسلڤانيا ، أن المنهج البنيوى الذى يتمتع بشىء من الجدوى ، فى دراسة الفونيمات والمورفيمات ، لايتوافق مع دارسة الجمل ؛ لأن كل لغة بها عدد محدود من الفونيمات والمورفيمات ، غير أن عدد الجمل فى أية لغة واقعية ، هو عدد غير متناه ؛ إذ ليس هناك حدّ لعدد الجمل الجديدة ، التى يمكن إنشاؤها ، ولاتستطيع المدرسة البنيوية تفسير ذلك .

كما يرى « تشومسكى » أن المنهج البنيوى ، غير قادر على شرح العلاقات التى يمكن أن تقوم بين مختلف الجمل ؛ فقد تشترك جملتان فى الشكل ، على حين تختلفان اختلافا جذريا فى المعنى ؛ وذلك على نحو ما فى الجملتين التاليتين :

صراخ المجرم لم يؤثر فى الناس
عقاب المجرم لم يؤثر فى الناس

فالجملتان من حيث الشكل الخارجى ، متشابهتان تماما ، فى علاقة المفردات بعضها ببعض ، وكذلك فى علاقة المسند إليه والمسند . ومع ذلك فالمعنيان يختلفان اختلافا جذريا .

كما وجد « تشومسكى » أيضا ، أن هناك بعض الجمل التى تحتمل معنيين مختلفين ، ولايميز الشكل الخارجى بينهما ؛ فجملة: « كان عقاب علىّ صارماً » مثلا ؛ لايتضح معناها تماما خارج السياق ؛ إذ لاندرى إن كان « علىّ » هو الذى عاقب إنسانا آخر ، أم أن إنسانا آخر هو الذى عاقب عليا .

كانت مثل هذه الجمل ، التى يكتنفها اللبس من الوجهة التركيبية ، هى التى أدت بتشومسكى إلى التأكيد بأن لهذه الجمل معنى ظاهرا (سطحيا) Surface Structure وهو الذى يقال فعلا ، ومعنى مقصودا (عميقا) Deep Structure وهو الذى تكون العلاقات المعنوية فيه واضحة ، وأن الذى ينظم العلاقة بين المعنى المقصود (العميق) والمعنى الظاهر (السطحى) هو تلك القوانين التى تطبق على الأولى ، فتحولها إلى الثانية . وقد أطلق على هذه القوانين اسم « القوانين التحويلية » Transformational rules (١) .

---

(١) انظر : أضواء على الدراسات ، لنايف خرما ١١٧ – ١١٨

وقد أفاد « تشومسكى » من تقسيم « دى سوسير » السابق للغة إلى : « لسان » Langue «وكلام » Parole وأطلق على النوع الأول : مصطلح « الكفاءة » Competenceوعلى الثانى : مصطلح « الأداء » Performance . ويقصد بالكفاءة : مايكون عند المتكلم باللغة ـــ من أبنائها ـــ من معرفة حدسية غير واعية ، بالأصوات والمعانى والنحو . أما الأداء فهو عبارة عن الممارسة اللغوية الفعلية فى الحياة اليومية ، وربما لاتكون صورة صحيحة للكفاءة ، لمخالفاتها ـــ فى بعض الحالات ـــ القواعد النحوية [١].

وقد ناقش كثير من اللغويين المحدثين « نظرية تشومسكى » فى كثير من نواحيها . وعلى رأسهم المدرسة اللغوية الحديثة المعروفة « بمدرسة القوالب » Tagmemic analysis . ونتحدث عن جهود هذه المدرسة فيما يلى :

(٣) مدرسة القوالب :

تشارك هذه المدرسة « تشومسكى » وجهة نظره القائلة بوجود جانبين فى دراسة اللغة ، هما : جانب الكفاءة ، وجانب الأداء . وترى هذه المدرسة أن مهمة علم القواعد فى أسسه الأولية ، تتمثل فى إعطاء نموذج ، أو لنقل صورة لجانب الكفاءة ، وهو جانب غير واع فى معظمه ، شأنه فى ذلك شأن استعمال الناس للغة ـــ بالاعتماد على آثاره التى تتجلى فى جانب الأداء ، الذى تسهل ملاحظته ورصده .

---

(١) انظر كتابى تشومسكى : Syntactic Structures , Aspects of the theory of Syntax .

وترى هذه المدرسة أن التحليل اللغوى ، يعنى طائفة من الإجراءات لوصف اللغة ، ويعتمد على وحدة نحوية أساسية ، تسمى : « القالب » Tagmeme وترد هذه الوحدة ضمن مركّب على هيئة سلسلة ، وتقع ضمن مستويات معيّنة من المستويات النحوية .

وقد قام بتطوير هذه النظرية ونظامها اللغوى : « كينيث پايك » Kenneth Pike واستخدمها معهد Summer للغويات (١) .

ومصطلح « القالب » أو « الإطار » Tagmeme الذى تستخدمه هذه المدرسة ، هو عبارة عن ارتباط بين موقع وظيفى (Functional Stat) وفئة من الوحدات (Items) التى تشغل هذا الموقع ، مؤلفة من وظيفة (Function) وشكل (Form).

والمواقع الوظيفية ، هى مواضع فى أُطر مركّبات ، تحدّد الدور الذى تقوم به الأشكال اللغوية فى المركب ، بالقياس إلى غيرها من الأجزاء الموجودة فى المركب نفسه . والوظائف عبارة عن ارتباطات نحوية ، تحدّد الدور الذى يقوم به الشكل فى المركب ، كالمسند إليه ، والمسند ، والمفعول به ، والحال ، والتمييز ، وغير ذلك .

وعلى الرغم من أن المواقع الوظيفية ، ترد فى العادة فى مواضع ثابتة ، فإنه لامانع من وجود وحدات فى كل لغة ، قابلة للتنقل بحيث يمكنها أن تأتى فى أكثر من موضع ؛ ففى جملة مثل : « ضرب محمد عليا » ثلاثة مواقع هى :

---

(١) انظر : Robins, General Linguistics 287 .

١ ـــ موقع المسند : وتشغله الكلمة الفعلية : (ضرب) .
٢ ـــ موقع المسند إليه : وتشغله الكلمة الاسمية : (محمد) .
٣ ـــ موقع المفعول به : وتشغله الكلمة الاسمية : (عليا) .

ويمكن أن يأتى الترتيب على نحو آخر ، كأن ترتب هذه الجملة على النحو التالى : « ضرب عليا محمد » . وهذا التغيير لايعنى تغييرا فى المواقع الوظيفية ، التى تحدد الدور الذى تقوم به الأشكال اللغوية فى المركب ، وإنما يعنى تغييرا فى مكان الموقع الوظيفى لاغير .

والموقع الوظيفى الواحد ، يمكن أن يشغله واحد من فئة الشاغلات (Fillers) ، وهذه الوحدات قابلة للتبادل فيما بينها فى داخل الموقع . وينبغى أن تصنف هذه الشاغلات إلى أصناف شكلية فى قائمة القالب . ومن أمثلة ذلك أن موقع المسند إليه ، يمكن أن يشغله : ضمير ، أو اسم علم ، أو عبارة اسمية ، أو تراكيب . وقد يكون أحد هذه الشاغلات ، هو الفئة الشكلية النموذجية ، من بين فئة الشاغلات التى تملأ الموقع .

وهذا الترابط بين الموقع الوظيفى والفئة الشاغلة ، هو فى الحقيقة ترابط بين وظيفة وشكل .

ويتجلى نظام التحليل القالبى ، فى أقصى درجة من الوضوح فى عملية التسمية ، حيث يسمى كل من الوظيفة والشكل ؛ بأسماء مثل : (المسند إليه : اسم / عبارة اسمية ..إلخ) ، فتذكر قائمة الأشكال التى تملأ الموقع على يسار علامة النسبة [:] والوظيفة أو المعنى النحوى على يمينها [١] .

---

(١) Cook, Introduction to tagmemic analysis 15 - 17 .

ونخلص من كل هذا إلى أن القوالب عبارة عن ارتباطات بين الشكل والوظيفة ، توزع فى مركبات اللغة . وتتنوع القوالب وفقا لمكوناتها ، إلى الأنواع التالية :

١ ـــ قوالب إجبارية ، أو قوالب اختيارية .

٢ ـــ قوالب أساسية ، أو قوالب ثانوية .

٣ ـــ قوالب ثابتة المواضع ، أو قوالب متحركة متنقلة .

النوع الأول : القالب الإجبارى عبارة عن قالب يرد فى كل حالات ظهور البنية اللغوية المعيّنة ، ويرمز له بالعلامة [+] للدلالة على وجوب وروده حيثما جاء المركب . أما القالب الاختيارى فهو قالب يرد فى بعض حالات ظهور البنية اللغوية ، لافى جميعها ، ويرمز له بالعلامة [±] للدلالة على إمكان وروده ، حيثما جاء المركب ، وإن لم يكن ضروريا.

النوع الثانى القالب الأساسى هو قالب يتميز به المركب الذى يرد فيه ، كالقوالب الموجودة فى التركيب التالى : « البنت تزوجت خطيبها » أما القالب الثانوى (غير الأساسى / التابع) ، فهو قالب لايتميز به المركب الذى يرد فيه ؛ مثل : قالب الظرفية « بالأمس » فى التركيب التالى : « البنت تزوجت خطيبها بالأمس » .

وليست كل القوالب الأساسية إجبارية ، فقد يكون بعضها اختياريا ، كقالب المفعول به فى التركيب : « البنت تزوجت خطيبها » ؛ إذ يمكن أن يستغنى عنه ، فيقال : « البنت تزوجت » . أما القالب الثانوى فهو اختيارى دائما . وعلى ذلك يكون عندنا ثلاثة تصنيفات من قوالب النوعين ، وهى : قالب أساسى إجبارى ، وقالب أساسى اختيارى ، وقالب ثانوى اختيارى .

النوع الثالث : القالب الثابت ، هو الذى يثبت موضعه بالنسبة لغيره فى التركيب . وعلى العكس من ذلك لايثبت القالب المتحرك فى موضع معين بالنسبة لغيره .

وهذا مثال لتحليل جملة مكونة من سلسلة من القوالب :
العربة البطيئة المهشمة / نقلت / أثاث البيت / عبر الصحراء / يوم الخميس .
الجملة = + مسند إليه : عبارة اسمية + مسند : فعل متعد + مفعول به : عبارة اسمية ± مفعول فيه (ظرف مكان) : عبارة ظرفية ± مفعول فيه (ظرف زمان) : عبارة ظرفية .

المستويات النحوية :

يجرى ترتيب المركبات القالبية ، على هيئة طائفة من المستويات المحددة المعالم . وأكثر هذه المستويات شيوعا فى الدراسات اللغوية المعاصرة ، هى : مستويات « الكلمة »Word و « العبارة » Phrase و « التركيب » Clause و « الجملة » Sentence فضلا عن مستوى « المورفيم » Morpheme .

فمستوى « الكلمة » هو ذلك المستوى من النحو ، الذى نحلل عنده الكلمة إلى مورفيماتها المكونة لها .

ومستوى « العبارة » هو ذلك المستوى من النحو ، الذى نحلل عنده مجموعات الكلمات ، ذات الأبنية المعينة ــ باستثناء التراكيب ــ إلى كلمات .

ومستوى « التركيب » هو ذلك المستوى من النحو ، الذى نحلل عنده التراكيب ، إلى مافيها من مسند ومسند إليه ومكملات .

ومستوى « الجملة » هو ذلك المستوى من النحو ، الذى نحلل عنده جمل اللغة الصغرى والكبرى ، إلى تراكيب مستقلة وغير مستقلة .



أما المنهج التاريخى ، فيدرس اللغة دراسة طولية ، بمعنى أنه يتتبع الظاهرة اللغوية فى عصور مختلفة ، وأماكن متعددة ليرى ماأصابها من التطور ، محاولا الوقوف على سر هذا التطور ، وقوانينه المختلفة .

ويمكننا لذلك ، القول بأن عرض نحو أية لغة ، يكتفى إن أراد الاقتصار على هذه اللغة بوصفها . غير أن تعليل الظواهر التى توجد فى هذه اللغة ، يظل أمرابالغ الصعوبة ، إذا لم يعرف لهذه اللغة فترات تاريخية متباعدة ، يمكن المقارنة بينها ، ومعرفة صور التطور الناتجة عبر الأجيال الكثيرة . وعندئذ يمكن الكشف عن السر الذى يكمن وراء إحدى صور هذا التطور .

ولنأخذ مثلا على هذا : اللغة العربية العامية ، التى نتحدث بها اليوم فى البلاد العربية ؛ فإن وصف هذه اللغة من نواحيها المختلفة ، أمر سهل ميسور ؛ إذ يقال مثلا : إن الاستفهام يعبر عنه بنبر أحد أجزاء الجملة ، وإن النفى يكون بالأداة : « مُش » مثلا ، وإن ترتيب الجملة فيها : فاعل + فعل + مفعول ... إلخ إلخ . ولكن معرفة سر وصول هذه النواحى المختلفة ؛ من صوتية ، وصرفية ، وتركيبية ، ودلالية ، وغيرها ، إلى ماوصلت إليه ، كان من الممكن أن يظل لغزاً ، لولا معرفتنا بالعربية الفصحى . وكان من الممكن أن يزداد وضوح التطور وأسراره فى هذه اللغة العامية ، لو أننا توصلنا إلى معرفة حلقات التطور المختلفة ، منذ الجاهلية حتى الآن .

فالمنهج التاريخى فى الدرس اللغوى ، عبارة عن تتبع أية ظاهرة لغوية فى لغة ما ، حتى أقدم عصورها ، التى نملك منها وثائق ونصوصا لغوية ، أى أنه عبارة عن بحث التطور اللغوى فى لغة ما عبر القرون ؛ فدراسة أصوات العربية الفصحى دراسة تاريخية ، تبدأ من وصف القدماء لها من أمثال الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وتتبع تاريخها منذ ذلك الزمان ، حتى العصر الحاضر ، دراسة تدخل ضمن نطاق المنهج التاريخى . ومثل ذلك يقال عن تتبع الأبنية الصرفية ، ودلالة المفردات ، ونظام الجملة .

وإذا كان علم اللغة الوصفى ، يمكن أن يوصف بأنه علم ساكن static إذ فيه توصف اللغة بوجه عام ، على الصورة التى توجد عليها ، فى نقطة زمنية معينة ، فإن علم اللغة التاريخى « يتميز بفاعلية مستمرة dynamic ، فهو يدرس اللغة من خلال تغيراتها المختلفة . وتغير اللغة عبر الزمان والمكان خاصّةٌ فطرية فى داخل اللغة ، وفى كل اللغات ، كما أن التغير يحدث فى كل الاتجاهات : النماذج الصوتية ، والتراكيب الصرفية والنحوية ، والمفردات . ولكن ليس على مستوى واحد ، ولاطبقا لنظام معين ثابت . هذه التغيرات اللغوية تعتمد على مجموعة من العوامل التاريخية . وبينما يمكن دراسة هذه التغيرات دراسة وصفية ، هى محض تعريف بأشكال التغيرات الحادثة ، فإنه لايمكن عزلها عن الأحداث التاريخية التى تصاحب وجودها . وإذا كانت الوظيفة الأولى لعلم اللغة الوصفى ، هى أن يصف ، ولعلم اللغة التاريخى هى أن يعرض التغيرات اللغوية ؛ فمن الصعب كثيرا الفصل بين النوعين فى مجال التطبيق العملى ، وذلك لأن كل المصطلحات ، التى استعملت تحت العنوان الوصفى ، قابلة من الناحية العملية للاستعمال مع الفرع التاريخى [١] » .

---

(١) أسس علم اللغة لماريو پاى ١٣٧

« وعلى الرغم من أسبقية علم اللغة التاريخى ، فى ميدان البحث اللغوى ، ومن التقدم المطرد ، الذى أمكن تحقيقه خلال القرنين الماضيين ، فمازالت هناك جهود ضخمة يمكن بذلها ، حتى بالنسبة لتلك اللغات ، التى لاقت اهتماما كبيرا ، فإن هناك اكتشافات ضخمة لكتابات مسجلة ، ماتزال يتوصل إليها . ويجب كلما اكتشف شيء من ذلك ، أن يعاد النظر فى النتائج المقارنة السابقة ، التى كان بعضها فرضيا ، ويدخل عليها من التعديلات ماهو ضرورى ، بعد الاستفادة من تلك الشواهد الجديدة ... وهنا نجد المنهجين : التاريخى والوصفى ، يدخلان فى شكل انسجامى تعاونى مثمر (١)» .

«وليس المنهج المقارن ، إلا امتدادا للمنهج التاريخى ، فى أعماق الماضى السحيق ، وينحصر فى نقل منهج التفكير ، الذى يطلق على العهود التاريخية ، إلى عهود لانملك منها أية وثيقة (٢) » .

ومع أن المنهج المقارن ، يولى وجهه شطر الماضى السحيق ، فإنه فى الواقع لايؤتى ثمرته ، إلا فى اتجاه عكسى ، لأنه يوضح تفاصيل اللغات الثابتة بالوثائق . وأظهر نتيجة لنحو اللغات الهندوأوربية المقارن ، تنحصر فى تحديد صلات القرابة بين هذه اللغات ؛ فكل اللغات الفارسية ، واللغات السلافية ، والجرمانية ، والرومانية ، والكلتية ، إذا اعتبرت من الوجهة الزمنية ، تبدو للعالم اللغوى ، نتيجة لسلسلة متتابعة من التباين لحالة لغوية واحدة ، سابقة عليها جميعا ، وتسمى باللغة « الهندية الأوربية (٣) » .

---

(١) أسس علم اللغة لماريوباى ١٧٦

(٢) اللغة لفندريس ٣٧٥

(٣) انظر : لغات البشر لماريوباى ٧٤

« ويتضمن المنهج المقارن أساسا ، وضع الصيغ المبكرة المؤكدة ، المأخوذة من لغات يُظن وجود صلة بينها جنبا إلى جنب ؛ يمكن إصدار حكم فيها بعد الفحص والمقارنة ، بخصوص درجة الصلة بين عدة لغات ، والشكل الذى يبدو أقرب صلة إلى اللغة الأم .

« ولعل الباحث يكون آمنا ، حين يقرر انتماء لغات متعددة إلى أصل مشترك ، إذا وجد بينها تماثلا كافيا فى تركيباتها النحوية ، ومفرداتها الأساسية ، وإذا لاحظ ازدياد قربها بعضها من بعض ، كلما اتجهنا إلى الوراء (١) » .

« ويقدم لنا النحو المقارن نظاما ، تصنف فيه اللغات فى أسرات تبعا لخصائصها ؛ فبمقارنة الأصوات ، والصيغ ، تتجلى ضروب التجديد الخاصة بكل لغة ، فى مقابلة البقايا الباقية من حالة قديمة ، وقد نجح اللغويون فى أن يحددوا ماقبل تاريخ اللغات الهندوأوربية ، ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة من كانوا يتكلمونها ، ولم يستطيعوا أن يحددوا أسلاف الإغريق أو الجرمان ، أو اللاتين ، أو الكلتيين ، وإنما يعرفون فقط التغييرات التى مرت بها الجرمانية والإغريقية واللاتينية والكلتية ، حتى وصلت إلى الحالة ، التى تكشف عنها النصوص . أما الأسماء التى أطلقوها على اللغات ، التى أعادوا بناءها فتحكمية ، قد اتفقوا عليها مجرد اتفاق ؛ فكلمة : الهندية الأوربية ، إذا أخرجت من الاستعمال اللغوى ، لم يبق لها أى معنى (٢) » .

ومنذ نشأة طريقة المقارنة بين اللغات — وهى أصلا طريقة تاريخية — وهى تحظى بمكانة مرموقة فى علم اللغويات ، كما صارت البحوث اللغوية

---

(١) أسس علم اللغة لماريوباى ١٦٨

(٢) اللغة لفندريس ٣٧٥

التاريخية ، وقفا على كبار العلماء والباحثين ، على حين استمرت الطريقة الوصفية كما كانت من قبل ، طريقة عملية ذات نفع عاجل ، تعالج تعلّم الناس اللغات الأجنبية ، وتعرفهم بالطريقة الصحيحة لاستخدام لغاتهم (١) .

هذا هو المنهج المقارن ، وتلك هى حدوده . وقد تأثر به دارسو اللغات السامية ، وقطعوا فيه شوطاليس بالقصير .

وإن من يلج ميدان الدراسة السامية المقارنة ، يدرك على الفور مدى الصعوبة ، التى تقابل الباحث ، عندما يريد الرجوع بظاهرة مافى هذه اللغات إلى أصلها ؛ ذلك لأن هذه اللغات السامية ليست حلقات متصلة فى سلسلة لغوية واحدة ، يمكن اعتبار إحداها أقدم اللغات ، والثانية أحدث منها ... وهكذا ، بل هى على العكس من ذلك ، تعدّ خلفا للغة واحدة ، هى ماصطلح العلماء على تسميته « بالسامية الأم » ، وهذه اللغة لاوجود لها الآن فى صورة وثائق أو نقوش مكتوبة .

ولذلك ، فمن الممكن دراسة كل لغة من اللغات السامية على حدة ، دارسة وصفية وتاريخية منتجة إلى أقصى حدّ ، غير أن استنباط الأصول الأولى ، للظواهر اللغوية المختلفة فى هذه اللغات ، أمر بالغ الصعوبة . وقد حاول العلماء استخدام الطرق العلمية ، التى كشف عنها المنهج المقارن ، وعلم اللغة الحديث ، فى الوصول إلى هذه الأصول الأولى ، « لكن لايجوز للمرء ، أن يطلب الكثيرفى هذه الناحية ؛ فإن سير تطور اللغات غامض فى تفاصيله بالنسبة لنا غالبا ، وذلك فى المرحلة السابقة للمرحلة ، التى وصلت إلينا منها وثائق لغوية (٢) » .

---

(١) انظر : لغات البشر لماريوباى ٧٤

(٢) اللغات السامية لنولدكه ١١

لقد أدّى اكتشاف اللغة السنسكريتية ، فى القرن الثامن عشر ، إلى نشوء علم اللغة المقارن ـــ كما ذكرنا ، وطمع علماء الساميات فى تطبيق المنهج المقارن للغات الهندوأوربية ، على مجموعة اللغات السامية ، وحاولوا بالمقارنة الاهتداء إلى الأصول الأولى ، وأطلقوا عليها اسم « اللغة السامية الأم » . غير أنهم كانوا يدركون تماما ، أن هذه اللغة الأم ، لاتخرج عن كونها افتراضا قابلا للتعديل فى أى وقت ، طبقا لما تؤدى إليه بحوث المستقبل .

ولقد كان « نولدكه » Nöldeke على حق ، عندما قال : « وإننا نريد أن نوجه سؤالا لمن يظن أن إعادة البناء الكامل للغة السامية الأولى ، ولو بالتقريب ، أمر ممكن . والسؤال هو : هل يستطيع أحسن العارفين باللهجات الرومانية كلها (الإيطالية والفرنسية والإسبانية) أن يعيد بناء الأصل القديم لهذه اللهجات ، وهو اللغة اللاتينية،لوفرض أنها غير معروفة الآن ؟ (١) » .

ومع كل هذه الصعوبات ، أثمرت الدراسات السامية المقارنة فى القرن الماضى ، والقرن الحالى ، ثمرات عظيمة، وأصبحنا نقف فى كثير من المسائل فيها ، على أرض ليست هشة . والفضل فى كل هذا للمستشرقين من علماء الغرب .

ولم تكن اللغات السامية مجهولة تماما ، بالنسبة للعرب ؛ فقد فطن الخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) إلى العلاقة بين الكنعانية والعربية ، فقال : « وكنعان بن سام بن نوح ، ينسب إليه الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية (٢)» .

---

(١) اللغات السامية ١١

(٢) العين للخليل بن أحمد ٢٣٢/١

كما عرف أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) اللغة السريانية ، وأداة التعريف فيها وهى الفتحة الطويلة فى أواخر كلماتها [١] .

وكذلك أدرك ابن حزم الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) علاقة القربى بين العربية والعبرية والسريانية ؛ فقال : « من تدبر العربية والعبرانية والسريانية ، أيقن أن اختلافها ، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة فى الأصل [٢] » .

ويقول الإمام السهيلى (المتوفى سنة ٥٨١ هـ) : « وكثيرا مايقع الاتفاق بين السريانى والعربى ، أو يقاربه فى اللفظ [٣] » .

كما عرف أبو حيان الأندلسى (المتوفى سنة ٧٥٤ هـ) اللغة الحبشية ، وأدرك العلاقة بينها وبين العربية ، وألف فيها تأليفا مستقلا ؛ فقال : « وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش ، فى كتابنا المترجم عن هذه اللغة ، المسمى : بجلاء الغبش عن لسان الحبش . وكثيرا ماتتوافق اللغتان : لغة العرب ولغة الحبش ، فى ألفاظ ، وفى قواعد من التركيب نحوية ، كحروف المضارعة ، وتاء التأنيث ، وهمزة التعدية [٤] » .

أما المستشرقون ، فقد بدأت دراساتهم الأولى ، فى أحضان كليات اللاهوت ، فأدركوا العلاقة بين العبرية والعربية والسريانية . وبدأت هولاندة فى القرن الثامن عشر ، على يد « شولتنس » Schultens بمقارنة العبرية بالعربية . وجاء بعده كل من : « إيڤالد » Ewald ، و« ألسهوزن » Olshausen فألفا فى

---

(١) انظر : الزينة فى الكلمات الإسلامية ، لأبى حاتم الرازى ٧٧/١

(٢) الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم ٣٠/١

(٣) التعريف والإعلام ١١

(٤) البحر المحيط ١٦٢/٤

اللغة العبرية مستخدمين العربية فى المقارنة ، كما حاول مثل ذلك « نولدكه » Nöldeke فى الآرامية . وفى عام ١٨٩٠ م ألف « وليم رايت » W.Wright كتابه : « محاضرات فى النحو المقارن للغات السامية » Lectures on the comparative Grammar of the Semitic Languages . كما ألف بعده بعام كل من : « لاجارد » Lagarde و « بارت » Barth : « بحوث فى أبنية الأسماء السامية » Untersuchungen über die semitische Nominalbildung كما ألف « لند برج » Lindberg « النحو المقارن للغات السامية » Vergleichende Grammatik der semitischen Sprachen وألف « تسمّرن » Zimmern كتابه الذى سماه : « النحو المقارن للغات السامية » كذلك ، ونشره فى برلين سنة ١٨٩٨ م .

وجاء بعد هؤلاء جميعا ، عملاق هذا الفن ، المستشرق « كارل بروكلمان » C.Brockelmann فألف كتابه الضخم : « الأساس فى النحو المقارن للغات السامية » Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen فى جزأين ، يضم الأول منهما دراسات ، عن أصوات اللغات السامية وأبنية الأسماء والأفعال فيها ، كما يختص الثانى بدراسة الجملة فى اللغات السامية . وأكثر موضوعات هذا الجزء جديد ، لم يُسبق إليه مؤلفه . وقد نشر الجزء الأول فى برلين سنة ١٩٠٨ م ، ونشر الثانى فيها سنة ١٩١٣ م .

ولبروكلمان نفسه كتابان صغيران ، يقتصران على موضوع الجزء الأول من «الأساس » ؛ يسمى الأول : « فقه اللغات السامية » Semitische Sprachwissenschaft نشره فى ليبزج سنة ١٩٠٦ م . وقد ترجمناه إلى العربية ، ونشرناه فى جامعة الرياض سنة ١٩٧٧ م . أما الكتاب الثانى ، فيسمى : «مختصر النحو المقارن للغات السامية » Kurzgefasste vergleichende Grammatik der semitischen Sprachen نشره فى برلين سنة ١٩٠٨ م .

وكل من جاء بعده عالة عليه ، أمثال : De lacy O'Laery « أوليرى » الذى نشر فى سنة ١٩٢٩ م ، كتابا بعنوان : « النحو المقارن للغات السامية » Comparative Grammar of the Semitic Languages و « برجشتراسر » Bergsträsser الذى ألف فى عام ١٩٢٨ م ، كتابا بعنوان : « المدخل إلى اللغات السامية » Einführung in die semitischen Sprachen كما ألقى فى الجامعة المصرية القديمة ، محاضرات عن التطور النحوى ، مقارنا العربية باللغات السامية . وقد طبعت هذه المحاضرات تحت عنوان : « التطور النحوى للغة العربية » بالقاهرة سنة ١٩٢٩ م . وقد قمت أنا بتصحيح أوهامه والتعليق عليه ، وطبع بالقاهرة ١٩٨١ م .و« موسكاتى » S.Moscati ، الذى نشر فى روما سنة ١٩٦٠ م كتابا بالإيطالية ، عنوانه : « محاضرات فى اللغات السامية » : Lezioni di linguistica Semitica ثم ترجمه بعد تنقيح إلى الإنجليزية ، بالاشتراك مع : « أنطون شپيتالر » A. Spitaler و« إدوارد ألندورف » E.Ullendorf و « ڤولفرام فون سودن » W.von Soden ونشر تحت عنوان : « مقدمة فى النحو المقارن للغات السامية » An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages فى ڤيسبادن بألمانيا سنة ١٩٦٤ م .

هذا إلى مئات المقالات ، التى تعالج موضوعات مفردة فى شتى المجلات العلمية ، الأوروبية والأمريكية ـــ كل هذه المؤلفات تعالج اللغات السامية ، وفق المنهج المقارن . ومع تقدم هذا العلم فى الغرب ، فإنه مايزال ـــ مع الأسف ـــ جديداً غض الإهاب فى الشرق ، وسيمضى وقت طويل ، قبل أن ينهض على قدم وساق ؛ لأنه يتطلب معرفة كاملة بكل لغة من اللغات السامية ، وهو أمر لمَّا يُتح إلا لقلة من الدارسين .

« ومقارنة قواعد اللغات السامية ، يجب أن يبدأ حقا من العربية ، على أن يراعى فى التفاصيل ، كل قريباتها الأخريات مادمن معروفات لنا . وهنا ربما تصلح اللغة العبرية ، فى إعادة بناء الأم الأولى المشتركة ، أكثر من الحبشية . غير أن الآرامية والآشورية ، وكذلك اللهجات التى نعرف القليل منها ، أو اللهجات الحديثة ــ كل ذلك يمكن أن يقدم مادة قيمة لمثل هذا العمل كذلك .

« أما كيف وصلت تلك اللهجات الحديثة ، ولاسيما الحية منها إلى شكلها الحالى ، فإنه يمكن معرفة ذلك فى دائرة واسعة نوعا ما . وهكذا نربح بذلك قياسات قيمة ، لبحث تطور اللغات القديمة ، غير أن الفحص الدقيق لتلك اللغات ، يرغمنا على الاعتراف والحكم بأنه لايمكن تفسير كثير من الظواهر المهمة فى تلك اللغات القديمة . ويصدق بعض ذلك أيضا ، على حالات يبدو لأول وهلة ، أن تفسيرها سهل جدا .

« وإذا ثبت الآن ، اتفاق اللغات السامية فى أصولها الأولى ، من زمن بعيد ــ قبل أن يبرهن (بوپ) Bopp علميا على وجود العلاقة بين اللغات الهندوأوربية ــ فإن مسألة الوصول إلى قواعد مقارنة دقيقة فى موضوعنا ، بحيث تعطى نتائج ثابتة ــ هذه المسألة ليست إلا واجبا صعبا ، و لابد أن يكون استمرارا لطريقة ، أو نظام سابقين ؛ فليس الأمر أمر خلق من العدم ، وإنما هو استعمال للعناصر اللغوية القديمة ، فى شكل جديد .

ومن النادر ــ كما يقول ڤندريس [١] ــ أن تلجأ اللغة إلى صنع الكلمات من أساسها ، بتركيب مجاميع الأصوات اللغوية بعضها مع بعض ؛

---

(١) اللغة ٢٩٢ ــ ٢٩٤

لأنه يعدّ عملا غير مفيد ، فكل ماتعمله أنها قد تغير وضع العناصر الصوتية ، فى هذه الكلمة أو تلك . وهذه طريقة تشوّه ولاتخلُق ،فالخلق أمر فى غاية الندرة ، « ومعناه خلق كلمة من الهواء والتكلم بها . ويتم ذلك عادة على يد بعض الأشخاص المشهورين ، الذين يصادف ابتكارهم قبولا (١)» .

وإذا ذكر لهذا الخلق بعض الأمثلة ،فإنما تذكر على سبيل التندر ؛ مثل كلمة : gaz « غاز » التى اخترعت فى القرن الثامن عشر ، وكذلك : rococo « نوع من الزخرفة » . ومن ذلك أسماء بعض المستحضرات والسلع والآلات ؛ مثل كلمة : Kodak « كوداك » ، فقد خرجت كما هى من دماغ مخترعها .

ولكن مثل هذه الكلمات صعبة الصنع ، فلا شيء أصعب من صنع كلمة ، دون الاهتداء بوسائل الاشتقاق والتركيب المعتادة فى اللغة ، التى يتكلمها الصانع . ولئن صح ماقيل من أن كلمة : gaz فيها صدى كلمة : Geist بمعنى : « روح » ـــ كنا فى هذه الحالة أمام تشويه ، لكلمة موجودة بالفعل .

أما الكلمات التى من قبيل : kodak و rococo فلا يجرؤ على ذلك إلا عالم فقيه تماما .

« وأنا أشك مطلقا فى أن الوقت قد حان لمثل ذلك العمل . ولكن قبل ذلك ، يمكن القول بضرورة كثير من الأبحاث الصغيرة المتقنة . ومما يعوق البحث على وجه الخصوص ، أن نصوص اللغات السامية ، التى تحت يدنا ، لاتعبر عن أصوات تلك اللغات تعبيراً كافيا ، وأعتقد أن بحث الجملة بحثا مقارنا فى اللغات السامية ، أسهل من بحث الأصوات والصيغ فيها (٢)» .

---

(١) أسس علم اللغة لماريوباى ١٥٦

(٢) انظر : اللغات السامية لنولدكه ١٥ — ١٦

والمنهج المقارن ، يستند ـــ كما يقول « أنطوان مييه [١] » A.Meillet إلى بعض مبادىء أساسية ، يجب أن تصاغ صياغة صريحة ؛ وذلك لأن معظم الأخطاء التى ترتكب فى علم اللغة ، إنما تصدر عن استخدام وسائل النحو المقارن فى حالات ، لايمكن أن تطبق فيها مبادئه .

وأول تلك المبادىء : هو أن اللغات تصدر عن تغييرات عناصرها الموجودة ، لاعن خلق جديد ؛ فمن يريد أن يضع اسما لشىء جديد ، يستعير عادة عناصر الكلمة من لغته أو من لغة أجنبية ؛ وذلك كاللفظة الألمانية : Fernsprecher بمعنى : «تليفون» ، فإنها مأخوذة من كلمة : Fern بمعنى : «بعيدا» ، وكلمة : Sprecher بمعنى : « متحدث » ؛ ومن ثم فإنه إذا ثبت أن بعض الكلمات ، لايمكن أن تعدّ مخلوقة من العدم على نحو ما ، بحيث لانجد لها أصلا اشتقاقيا ، فإنه من المسلم به أن لكل طريقة خاصة للنطق ، وكل نظام نحوى عام ، قيمة تعبيرية لاتنكر ؛ ذلك أنها كلمات أشبه بأسماء الأصوات ، وتدخل فى فصيلة من الكلمات ، تعتبر اليوم ثابتة النظام والقواعد ؛ فكلمة : Kodak تصور لنا صورة ، هى صورة سمعية ، حتى كأننا نحس صوت المفتاح ، الذى يفتح الآلة ، لالتقاط الصورة ويغلقها ، فهل أحس مخترع الكلمة هذه القيمة ، وأراد أن يحاكيها ؟ إن هذا الجائز ، ولكنه غير ضرورى ، غيرأن هناك دائما اتفاقا غير شعورى ، يقوم بين الأصوات والأشياء ، فالانطباع الذى تحدثه كلمة غير معروفة ، يمكن أن يختلف من سامع إلى آخر ، ولكن هناك انطباعا على كل حال ، إن قليلا وإن كثيرا . وإنما يقاس الفرق بدرجة حساسية السامع أو خياله ، أو مجرد حالته

---

(١) انظر : علم اللسان ٤٥٥ — ٤٦٢

العصبية ؛ فالذى يطلق عليه اسما مصنوعا من أوله إلى آخره ، على شىء أيا كان ، قد يكون مستهديا بتوافق نفسى ، بين الأصوات والشىء نفسه .

هذا إلى أن كلمة : « كوداك » متمشية ، مع قواعد اللغة التصويرية ؛ فالسواكن تحتوى على نفس الحركة الصوتية ، والحركات فيها نفس الجرْس ، الذى لآلة التصوير . وهذه الكلمة تعدّ على درجة من حسن الصياغة ، تجعلنا نتساءل عما إذا كان فى الإمكان ، صياغتها على غير ماهى عليه . ولعل القدرة على خلق الكلمات ، ليست إلا نوعا من الخداع . وهذه النتيجة تؤدى بنا إلى القاعدة اللغوية الكبرى ، التى تقول : إن اللغات تسير على تحوير العناصر الموجودة ، لاعلى الخلق ، وهذا هو أول مبادىء النحو المقارن .

والمبدأ الثانى : هو أنه ليس ثمة بين الاصطلاح اللغوى ، والشىء الذى وضع له هذا الاصطلاح ، أية علاقة طبيعية ، وإنما هى علاقة تقاليد . وهذا معناه أنه ليس هناك ارتباط طبيعى بين الاسم والمسمى ، فالضمائر : « أنا » و « أنت » ، و « هو » مثلا ، ليس فيها شىء يدل بذاته ، على أحد الأشخاص الثلاثة ، وإنما تستعمل لأنه فى جماعة بشرية ما ، جرت التقاليد بأن تستعمل تلك الصيغ . ومن ثم نرى أكثر علماء اللغة حنكة ، عاجزا كغيره من الناس ، أمام خطبة أو نص مكتوب بلغة مجهولة جهلا تاما .

فكثير من « كلماتنا ، رموز تقليدية . ونحن نكتسب معانى هذه الكلمات ، فى طفولتنا المبكرة ، ولكن بطريق التعلم ؛ إذ لا يوجد فى اللفظ ماينبىء عن المدلول . فبالإضافة إلى عدم وجود أية علاقة بين كلمة (منضدة) وماتدل عليه مثلا ، هناك شيئان يعارضان افتراض وجود أية علاقة طبيعية بينهما مهما كانت هذه الصلة غامضة ؛ الأول : يتمثل فى تنوع الكلمات ، واختلافها فى اللغات المختلفة . والثانى : يتبلور فى الحقائق

التاريخية ، فلو كانت معانى الكلمات كامنة فى أصواتها ، لما أمكن أن تتغير هذه الكلمات فى لفظها ومدلولها ، تغيرا يستحيل ربطه بالوضع الأصلى لها [١] » .

ويتضح من هذا كله وضوحا كاملا « أن القيمة التى يدل عليها الرمز ، تتم بطريق التحكم والفرض ، وأنه ليس هناك أى رابطة فطرية بين اللفظ ومدلوله . ولو صح الافتراض القائل بوجود علاقة فطرية بينهما ، لكان حتما أن يتكلم الناس لغة واحدة ، ولكن الأمر على غير ذلك ؛ فكلمة : dog فى اللغة الإنجليزية ، يقابلها : chien الفرنسية ، و perro الإسبانية و Hund الألمانية ، و inu اليابانية .

« اللغة المتكلمة تعتمد إذن على الاصطلاح ، والاتفاق الجماعى ، مهما قل عدد أفراد الجماعة اللغوية . وهذا يضع اللغة حتما فى قائمة الرموز ، مثل عملة النقد الورقية ، التى ترمز إلى قيمة شرائية معينة ، وتعتمد فى قيمتها على العرف والاتفاق بين أفراد المجتمع ، لاعلى قيمتها الذاتية [٢] » .

والأشياء هى الأشياء ، فلا يغير من حقيقتها التعبير عنها برموز لغوية مختلفة . وقد صدق « شكسبير » حين وضع على لسان « چولييت » هذه العبارة : « ماذا فى اللفظ ؟ إن ما نسميه : وردة ، سوف يحتفظ برائحته الزكية ، فيما لو سميناه باسم آخر [٣] » .

وتنتقل اللغات عموما بأحد طريقين :

---

(١) انظر : دور الكلمة فى اللغة ٧٠ — ٧١

(٢) انظر : أسس اللغة لماريوباى ٤١

(٣) انظر : دور الكلمة فى اللغة لأولمان ٨٣

الأول : باستعمال الأطفال لها فى الحديث ، إذ يتمثلون لغة محيطهم ، أى لغة الهيئة الاجتماعية ، التى ينتمون إليها .

الثانى : بتعلم الفرد لغة أخرى ، علاوة على لغته الأولى ، فإنه يكون عرضة لأن يدخل فى لغته الأصلية ، بعض عناصر اللغة الثانية ، وينتهى الأمر بمواطنيه ، الذين يجهلون اللغة الثانية ، إلى أن يستخدموا تلك العناصر فى استعمالهم العادى . وإنه لمن المعترف به اليوم ، أن الاستعارة تلعب دورا هاما فى نمو اللغات ، وهى ليست ظاهرة شاذة ، بل عادية كثيرة الحدوث ، مثلها مثل انتقال اللغات من الآباء إلى الأبناء .

والمشكلة التى تعرض لمؤرخ اللغة ، هى أنه مادامت اللغات لاتخلق بل تغيّر ، ومادامت العبارة اللغوية تقليدية ، فإن من الواجب أن نميز فى الاتفاقات ، التى توجد بين لغتين أو أكثر ، بين مايعدّ منها نمواً ذاتيا ، ومايفترض قيام تقليد مشترك بين تلك اللغات ، فمن الممكن أن يكون التوافق بين مفردات منعزلة ، نتيجة للمصادفة البحتة ، كما أنه من الممكن أن يكون ذلك نتيجة لاستعارة اللغتين من لغة واحدة . ولكن مجموعة الاتفاقات فى الصيغ النحوية ، تدل على وحدة الأصل دلالة قاطعة .

واللغات فى الواقع دائمة التغير . والتغيرات تنتج أولا عن الطريقين اللذين تنتقل اللغات بواسطتها ؛ ففى كل مرة يتعلم الأطفال الكلام ، تختلف اللغة التى يثبتون عليها عن لغة محيطهم . وهذه الاختلافات على صغرها فى كل مرة تتجمع بتعاقب الأجيال . ومن جهة أخرى تستعير اللغات عن غيرها ، وتلك العاريات تتجمع هى الأخرى . وثمة تغييرات أخرى تنتج عن مجرد استخدام اللغة ، فالعنصر اللغوى الذى يستعمل ، يصبح استعماله أكثر سهولة على المتكلم ؛ وأكثر إلفا ، ومن ثمّ أقل دلالة ، وأسرع تغيرا . والاستخدام يُبلى ، كما يقولون !

والمبادىء الأساسية فى المنهج المقارن ، منها كذلك ، مبدأ مضمونه أن التغيير لايحدث على نحو مشتت غير مطرد ، بل يحدث وفقا لقواعد ثابتة ، يمكن أن نصوغها فى دقة ، إذا تناولنا لغة ما فى عصرين متتابعين من تاريخ تطورها ، وأن التغير يحدث على نحو مستقل متميز ، فى كل عنصر من عناصر اللغة الثلاثة : الصوت ، والصيغة ، والدلالة .

والقوانين الصوتية تعبرّ عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة ، فى وسط اجتماعى معين ، فهو ليس قانونا عاما شبيها بقوانين علم الطبيعة أو الكيمياء . والقانون الصوتى يفترض تغيرًّا ، ولكنه لايبصرنا بسبب ذلك التغير .

وإذا عرضنا للصيغ النحوية ، فى فترتين متتابعتين من تاريخ اللغة ، نجد اتفاقات ومقابلات مطردة . أما المفردات فلكل كلمة منها حياتها المستقلة ، فالتغييرات التى تصيب كلمة ما ، خاصة بتلك الكلمة ، فإن أصابت غيرها ، لم يَعْدُ ذلك بعض الكلمات المشابهة لها فى المعنى ، أو فى الصيغة .

★ ★ ★

الفصل الثانى
فى أصوات اللغة

١ـــ الأصوات الشفوية :

يبدو أن مخرج الشفة ، كان ينطق فيه صوتان اثنان لا غير فى السامية الأم ، وكلاهما انفجارى ، غير أن أحدهما مجهور (b) والآخر مهموس (p) . أما الأول فقد بقى كما هو فى اللغات السامية كلها ؛ فمثلا בֶּרֶךְ bērek̲ فى العبرية = ܒܽܘܪܟܳܐ burkā فى الآرامية = ብርክ berk فى الحبشية = burku فى الأكادية = «رُكْبة» فى العربية ، مع القلب المكانى فى الأخيرة ، بدليل بقاء الأصل فى الفعل : « بَرَكَ » كذلك .

ومثل ذلك أيضا « كلب » فى العربية = ከልብ kalb فى الحبشية = kalbu = فى الأكادية ܟܠܶܒ kleb̲ فى الآرامية = כֶּלֶב kēleb̲ فى العبرية . وتحول الباء إلى صوت احتكاكى (b̲= ڤ) فى اللغتين الأخيرتين ،مسألة خاصة بالسياق الصوتى فيهما ؛ فإن هذا الصوت مع خمسة أخرى ، يطلق عليها أصوات : « بجد كپت » ، الأصل فيها أن تكون انفجارية ، إلا إذا جاءت بعد حركة ، فإنها فى هذه الحالة تتحول إلى أصوات احتكاكية ، دون أن يتأثر المعنى بذلك ؛ فمثلا حين يراد الإتيان بالصيغة المعرّفة من : ܟܠܶܒ kleb̲ السابقة فى الآرامية : يقال : ܟܰܠܒܳܐ kalbā فتنطق الباء فيها باء ؛ لأنها ليست بعد حركة .

أما الصوت الثانى ، وهو صوت الباء المهموسة (p) فقد بقى كما هو فى السامية الشمالية (العبرية والآرامية والأكادية) وتحوّل إلى صوت احتكاكى

مهموس هو (ف) فى السامية الجنوبية ؛ مثال ذلك : كلمة פּוֹל pōl فى العبرية (صمويل الثانى ١٧ / ٢٨ وعزرا ٤ / ٩) = « فُول » فى العربية ، وكذلك ፋል fāl فى الحبشية .

ومثال ذلك أيضا פֶּה pē فى العبرية = ܦܘܡܐ pūmā فى الآرامية = pū فى الأكادية = «فو» فى العربية [إلى جوار « فمٌ» بالتميم الذى نُسى أصله ، فعدّ أصلا من أصول الكلمة ، فأضيف إليها التنوين الذى يقابل التميم ، وفتحت الفاء قياسا على بعض أسماء أعضاء الجسم الإنسانى ، مثل : يدوعين ورأس وغيرها] = አፍ ʾaf فى الحبشية .

ومثال ذلك أيضا פָּלַג pālaġ فى العبرية = ܦܠܓ plaġ فى الآرامية (بمعنى : « شقّ » فيهما) = palgu فى الأكادية «قنال » = ፈለግ falag فى الحبشية «جدول» = «فَلْج» و «فَلَج» بمعنى : « شق » فى العربية .

وتحوّل هذه الپاء (p) المهموسة فى العبرية والآرامية إلى فاء ، رهن بوقوعها فى الكلمة بعد حركة ، تماما كما يحدث للباء المجهورة (b) ؛ فمثلا : كلمة «فتح» فى العربية ، تقابل فى العبرية פָּתַח pātaḥ كما تقابل فى الآرامية ܦܬܚ pṯaḥ ، غير أن المضارع من هذا الفعل فى اللغة العبرية هو יִפְתַּח yiftaḥ وفى الآرامية ܢܦܬܚ neftaḥ ، فلم تنطق «الپاء» فيهما : «فاء» إلا لوقوعها هنا بعد حركة ، أى أنها تخضع لقانون السياق الصوتى فى هاتين اللغتين ، كما عرفنا من قبل .

★ ★ ★

٢ــ أصوات الصفير والأصوات الأسنانية :

الجدول التالى يبين حالة هذه الأصوات فى اللغات السامية :

اللغات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
السامية الأم	t	d	ṭ	s	z	ṣ	ṯ	ḏ	ẓ	ś	š	ḍ
العربية	t	d	ṭ	s	z	ṣ	ṯ	ḏ	ẓ	š	s	ḍ
الحبشية	t	d	ṭ	s	z	ṣ	s	z	ṣ	š	s	ḍ
العبرية	t	d	ṭ	s	z	ṣ	š	z	ṣ	ś	š	ṣ
الآرامية	t	d	ṭ	s	z	ṣ	t	d	ṭ	s	š	ʿ
الأكادية	t	d	ṭ	s	z	ṣ	š	z	ṣ	š	š	ṣ

وفيما يلى أمثلة لكل صوت منها :

١ ــ التاء : فى العربية « تسع » والحبشية ተስዑ tesʿū والعبرية תֵּשַׁע tēšaʿ والآرامية ܬܫܥ tšaʿ والأكادية tišit .

٢ ــ الدال : فى العربية «دم» والحبشية ደም dam والعبرية דָּם dām والآرامية ܕܡܐ dmā والأكادية dāmu .

٣ ــ الطاء : فى العربية « طَعِمَ » والحبشية ጠዐመ ṭeʿema والعبرية טָעַם ṭāʿam والآرامية ܛܥܡ ṭʿem والأكادية ṭēmu (فَهْمٌ) .

٤ ـــ **السامخ** : فى العربية « أسَرَ » والحبشية ʼasara አሰረ والعبرية אָסַר ʼāsar والآرامية : ʼesar أُصَرْ والأكادية eserū = ربط .

٥ ـــ **الزاى** : فى العربية «زَرْع» والحبشية zarʻa ዘርዐ [وهناك كلمة أخرى فى الحبشية هى ዘርአ zar ʼ a أكثر شيوعا من الكلمة السابقة . ويعلل بروكلمان لوجود الهمزة هنا بأن الكلمة منحوتة من كلمة zarʻa السابقة ، وكلمة zaraʼa التى تساوى فى العربية «ذرأ» = نثر] والعبرية זֶרַע zēraʻ والآرامية زَرْعا zarʻā والأكادية zēru .

٦ ـــ **الصاد**: فى العربية « إصبع » والحبشية እጽባዕት ʼaṣbāʻ t والعبرية אֶצְבַּע ʼeṣbaʻ والآرامية أُصْبعا ʼeṣb ʻ ā والأكادية ṣūbu .

٧ ـــ **الثاء** : فى العربية « ثَوْر » والحبشية ሶር sōr والعبرية שׁוֹר šōr والآرامية تَوْرا tawrā والأكادية šūru .

٨ ـــ **الذال** : فى العربية « ذَكَرَ » والحبشية ዘከረ zakara والعبرية זָכַר zākar والآرامية دْكَر dkar والأكادية zakāru .

٩ ـــ **الظاء** : فى العربية « ظِلّ » والحبشية ጸላሎት ṣelālōt والعبرية צֵל ṣēl والآرامية طُلّالا ṭellālā والأكادية ṣillu (١) .

١٠ ـــ **السين** : فى العربية « شَيْب » والحبشية ሢበ šēba والعبرية שֵׂיב śēb والآرامية سَبا sābā والأكادية šibu .

١١ ـــ **الشين** : فى العربية « سِنّ » والحبشية ስን senn والعبرية שֵׁן šēn والآرامية شِنّا šennā والأكادية šinnu .

١٢ ـــ **الضاد** : فى العربية « ضَرّة » والحبشية ፀር ḍar والعبرية צָרָה ṣārā والآرامية عَرْتا ʻarrtā والأكادية ṣarru (عدوّ) ṣirritu (ضرّة) .

---

(١) فى العين للخليل بن أحمد ١/٥٩ : « وليس فى شىء من الألسنة ظاء غير العربية » .

ملاحظات :

يتضح من الجدول السابق أن كلا من التاء والدال والطاء والسين (السامخ) والزاى والصاد ، لم يصبها تغيير مطلقا ، فى أية لغة من اللغات السامية . حقا قد نشأت **تاء** جديدة فى الآرامية من الثاء ، كما نشأت **دال** جديدة فى الآرامية من الذال . وكما نشأت **طاء** جديدة فى الآرامية أيضا من الظاء . وكذلك نشأت **صاد** جديدة فى الحبشية من الظاء ، وفى العبرية من الظاء والضاد ، وكذلك فى الأكادية . كما نشأت **سين** جديدة من الشين فى كل من العربية والحبشية ، ومن ال (ś) فى الآرامية ، ومن الثاء فى الحبشية . وأخيرا نشأت **زاى** أخرى جديدة من الذال ، فى كل من الحبشية والعبرية والأكادية .

كما يرى علماء الساميات أنه كان يوجد فى السامية الأم إلى جانب السين والشين ، نطق ثالث بين السين والشين ، يشبه نطق الألمان لكلمة ich بمعنى : « أنا » . وهذا النطق هذا مانرمز إليه هنا بالرمز (ś) . والذى دعاهم إلى هذا التفكير ، هو أنهم وجدوا فى الخط العبرى ، والخط العربى الجنوبى ، رمزين لنطق السين هما فى العبرية : ס (سامخ סָמֶךְ) و ש (سين שִׂין) وفى العربية الجنوبية 𐩯 (لِما يقابل السامخ) و 𐩦 (لما يقابل السين) . ولما كان من المستبعد أن يجعل واضع الخط رمزين مختلفين لنطق واحد ، ولما كان نطق مايُدلّ عليه فى العبرية بالسامخ ، متحدا فى جميع اللغات السامية ، ونطق مايدل عليه بالرمز الآخر مختلفا ـــ استنبط العلماء من ذلك ، أن نطق هذا الحرف الأخير ، لم يكن فى السامية الأم سينا ، بل كان نطقا وسطا بين السين والشين . وقد احتفظ بهذا النطق كلٌّ من العبرية القديمة ، والعربية الجنوبية لا

غير ، وتطور إلى الشين فى العربية الشمالية والحبشية والأكادية ، وإلى السين فى الآرامية والعبرية فى عصورها المتأخرة [ويشبه ذلك فى العربية المتأخرة ، مالو أدينا النطق العامى للزاى فى كلمتين مختلفتى الأصل فى النطق ؛ مثل : ذنب وزينب] .

أما الشين السامية القديمة ، فقد بقيت كما هى السامية الشمالية (العبرية والآرامية والأكادية) . أما السامية الجنوبية (العربية والحبشية) ، فقد تحولت الشين فيها إلى سين . وقد نشأت **شين** جديدة من الثاء فى كل من العبرية والأكادية .

وقد تحدث « برجشتراسر » عن صوتى السين والشين ؛ فقال : « وأما السين والشين ، فكانتا فى الأصل ثلاثة أحرف : سينا وشينا ، وثالثا لانعرف نطقه الأصلى تماما ، وربما كان شينا جنبية ، مخرجها من حافة اللسان ، أو شجرية . أما الجنبية فتوجد فى بعض اللهجات اليمانية الدارجة كالمهرية . أما الشجرية فتشبه حرف ich فى اللغة الألمانية .

« والنسبة بين هذه الأحرف الثلاثة الأصلية ، وبين الحرفين المذكورين فى العربية ، غريبة جدا ؛ فإنا نجد السين بقى نطقها على ماكان عليه ... والشين الأصلية صارت سينا عربية .

« وأما الحرف الثالث ، وهو الشين الجنبية أو الشجرية ، وعلامتها (ś) فصارت شينا ؛ مثاله كلمة : « عَشْر » التى هى ʿēśer فى العبرية ... وأما فى الأكادية ، فصار هذا الحرف شينا مثلما صار فى العربية ، فعشر فيها : ʾešru .

وفى الآرامية ، صار أخيرا سينا ، بعد ماكان فى أول الأمر كالحرف العبرى نطقا ... فالسين العربية ، نشأت من حرفين : السين السامية

الأصلية فى بعض الكلمات ، والشين فى بعضها . والشين العربية نشأت من الشين الجنبية أو الشجرية [١] » .

هذا ، ولم تبق أصوات مابين الأسنان الثلاثة : الثاء والذال والظاء (وهى التى تتطلب إخراج اللسان بين الأسنان) إلا فى العربية الشمالية والجنوبية :

[ت 𐩩 ث 𐩻 د 𐩵 ذ 𐩹 ط 𐩷 ظ 𐩼] وتطورت فى سائر اللغات الأخرى .

ونظرية السهولة والتيسير ، واختصار الجهد العضلى ، هى التى تفترض أصالة هذه الأصوات الثلاثة فى السامية الأولى ؛ لأن تعليل تطورها إلى غيرها ، أسهل من تعليل تطورها من غيرها . وأمامنا اللهجات العربية الحديثة ، تطورت فيها هذه الأصوات ، إلى أصوات خلف الأسنان ، كما حدث فى اللغات السامية الأخرى تماما .

حقا يوجد فى العبرية والآرامية نطق الثاء والذال ، غير أن ذلك فيهما فرع لفونيمى التاء والدال ، فى ظروف صوتية معينة ، وهى أن يقع واحد منهما بعد حركة فى مقطعه ؛ فاختلاف النطق هنا لايترتب عليه اختلاف المعنى . وهذا التطور حادث متأخر فى العبرية والآرامية ؛ إذ تخضع أصوات (بجد كپت) فيهما للسياق الصوتى ، فهى انفجارية (كما هو الأصل فيها) إذا وقعت فى أول الكلمة أو بعد سكون ، فإذا وقعت بعد حركة تحولت إلى نطق احتكاكى : ڤ غ ذ خ ف ث .

---

(١) التطور النحوى ٢٤

وفى أقدم نقوش اللغة الآرامية ، التى وجدت فى : « تل زنجيرلى » و « نيراب » ، يبدو أن الأصوات السامية القديمة : **الثاء والذال والظاء** ، قد تحولت كما فى العبرية إلى : **الشين والزاى والصاد** . ويرجح بروكلمان [١] أن تلك الأصوات لم تكن قد تحولت فى الواقع ، وأنها كانت « لاتزال تحتفظ حينذاك بالنطق الأصلى ، غير أن الآراميين عندما أخذوا الأبجدية الفينيقية ، رمزوا للأصوات التى توجد فى لغتهم ولاتوجد فى الفينيقية ، بأقرب رموز الفينيقية إليها [٢] » .

ونذكر أخيرا أن صوت الضاد ، تحوّل فى أقدم النقوش الآرامية إلى صوت القاف (مثل كلمة : מַוְקָא mawḳāʾ = شروق ، وهى تقابل « موضأ » فى العربية) فى نقش « تل زنجيرلى » . وكذلك الأصل : רקי = rḳy رضى ، وكلمة אַרְקָא arḳāʾ بمعنى : « أرض » فى هذا النقش كذلك . ثم تحولت القاف إلى غين ، كما تتحول فى العربية العامية السودانية وبعض قرى جنوبى العراق ، إلى هذا الصوت – ثم تحولت هذه الغين ، كما تحولت الغين الأصلية إلى عين ؛ مثل : ܐܪܥܐ = ʾarʿā أرض ؛ ومثل ܐܠܥܐ = ʾelʿā ضلع ، مع مخالفة العين إلى همزة فى هذا المثال الأخير [٣] .

★ ★ ★

---

(١) فقه اللغات السامية ٥٠.

(٢) انظر كذلك ماكتبه نولدكه عن هذه النقطة فى كتاب : اللغات السامية ٤٨ – ٤٩

(٣) انظر أمثلة أخرى لهذا النوع من المخالفة فى الآرامية ، فى كتاب « رايت » W. Wright, Lectures ص ٦٢

٣ ــ صوت الجيم :

تشير مقارنة اللغات السامية كلها إلى أن النطق الأصلى لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش ، كالجيم القاهرية تماما ؛ فكلمة : « جَمَل » فى العربية الفصحى مثلا ، هى فى اللغة العبرية : גָּמָל gāmāl وفى الآرامية : ܓܡܠܐ gamlā وفى الحبشية : ገመል gamal .

أما العربية الفصحى ، فقد تحوّل فيها نطق هذا الصوت من الطبق إلى الغار ، أى من أقصى الحنك إلى وسطه ، كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج ، يبدأ بدال من الغار ، ثم ينتهى بشين مجهورة . غير أن ذلك لم يحدث فى البداية فى كل جيم ، وإنما كان يقتصر على الجيم المكسورة ، تبعا لقانون الأصوات الحنكية [1]، ثم عَمّم القياس هذا النطق الجديد فى كل جيم ، طرداً للباب على وتيرة واحدة .

وقد حدث ذلك فى العربية القديمة ، فى العصور السابقة لظهور الإسلام ، وصار هو النطق المميز للفصحى ؛ ولذلك جاء به القرآن الكريم ، وبقى النطق البائد فى بعض اللهجات العربية القديمة ، وامتداداتها فى بعض اللهجات الحديثة .

٤ ــ الكاف والقاف :

هذان الصوتان من أصوات أقصى الحنك واللهاة ، قد بقيا على الأصل فيهما فى جميع اللغات السامية .

---

(١) انظر : التطور اللغوى مظاهره وعلله وقوانينه ٩٢ — ٩٤

فمن أمثلة الكاف : فى العربية : « كَنَف » = فى العبرية : כָּנָף kānāf = فى الآرامية : ܟܶܢܦܳܐ kenpā = فى الحبشية : ክንፍ kanf = فى الأكادية : kappu بمعنى « جَناح » فى الجميع .

أما القاف ، فإن مقارنة اللغات السامية ، تدل على أنه صوت شديد مهموس ، ينطق برفع مؤخرة اللسان ، والتصاقها باللهاة ، لكى ينحبس الهواء عند نقطة هذا الالتصاق ، ثم يزول هذا السد فجأة ، مع عدم حدوث اهتزازات فى الأوتار الصوتية ؛ ففى العبرية مثلا : קוֹל ḳōl وفى الآرامية : ܩܳܠܳܐ ḳālā وفى الحبشية : ቃል ḳāl بمعنى : « صوت » فى الجميع ، وهو يقابل فى العربية : « قَوْل » وفى الآشورية ḳūlu بمعنى : « صراخ » .

وقد عدّ قدماء اللغويين العرب « القاف » من الأصوات المجهورة ؛ فإن صدق وصفهم هذا ، كان ذلك النطق من التغييرات التاريخية فى العربية القديمة [1]. وقد بقى هذا النطق المجهور ، فى أغلب البوادى العربية فى الوقت الحاضر .

٥ – أصوات الحلق :

نطلق هذه التسمية هنا على : الهمزة والهاء ، والعين والحاء ، والغين والخاء ، وهى تسمية اللغويين العرب القدامى ،وإن كانوا يخصون الهمزة والهاء بأقصى الحلق ، والعين والحاء بأوسطه ، والغين والخاء بأدناه .

---

(١) انظر : التطور اللغوى مظاهره وعلله وقوانينه ٢٠ – ٢١

غير أن الدراسات الصوتية الحديثة ، أثبتت أن الهمزة والهاء يخرجان من الحنجرة ، والغين والخاء من الطبق (وهو سقف الحنك الرخو) ، وأن الذى يخرج من الحلق هو العين والحاء لاغير .

أما **الهمزة** فى العربية ، فلم تكن اللهجات العربية القديمة على سواء فى نطقها ؛ إذ كانت البيئة البدوية (تميم وما جاورها) هى وحدها التى تحقق نطق الهمزة . أما البيئة الحجازية (قريش وماجاورها) فكانت تسهل الهمزة ، أى تترك نطقها فى غير أول الكلمة . وقد أخذت العربية الفصحى تحقيق الهمزة من تميم .

قال أبو زيد الأنصارى : « أهل الحجاز وهذيل ، وأهل مكة والمدينة ، لاينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر ، فقال : ماآخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر . وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا . وقال أبو عمر الهذلى : قد توضّيت ، فلم يهمز وحوّلها ياء ، وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز [١]» .

و «النبر » فى الكلام السابق هو : « الهمز » ، قال ابن منظور [٢]: « والنبر همز الحرف ، ولم تكن قريش تهمز فى كلامها . ولما حج المهدى قدم الكسائى يصلى بالمدينة ، فهمز ، فأنكر أهل المدينة عليه ، وقالوا : تنبر فى مسجد رسول الله ﷺ بالقرآن ؟! » .

وماحدث للهمزة فى اللهجة الحجازية العربية ، حدث مثله تماما فى اللغتين : العبرية والآرامية ؛ إذ تسقط فيهما الهمزة فى غير أول الكلمة فى

---

(١) انظر : مقدمة لسان العرب ، لابن منظور ١/١٤

(٢) لسان العرب (نبر) ٧/٤٠ وانظر الخبر فى كلام عن الهمز كذلك فى غريب الحديث لابن قتيبة ٦٣٣/٢ وانظر كذلك : فصول فى فقه العربية ٨٣ .

أغلب الأحيان ؛ فإذا كانت الهمزة تنطق فى العبرية فى مثل : אָכַל ʾākal «أَكَلَ» אָסַר ʾāsar «أَسَرَ / رَبَطَ» ، وفى الآرامية فى مثل : ܐܢܐ ʾenā «أنا» ܐܪܒܥܐ ʾarbʿā «أربعة» ؛ ففى كثير من كلمات هاتين اللغتين ، نرى الهمزة لاتنطق فى وسط الكلمة أو فى آخرها ، رغم وجود رمزها فى الكتابة ؛ مثال ذلك فى العبرية : רֹאשׁ rōš «رأس» בָּרָא bārā «برأ / خلق» ، وفى الآرامية : ܒܐܪܐ bīrā «بئر» ܚܛܐ ḥṭā «أخطأ» . ومع ذلك نجد الهمزة تنطق فى وسط الكلمة فى هاتين اللغتين أحيانا ؛ مثال ذلك فى العبرية שָׁאַל šāʾal «سأل» ، وفى الآرامية : ܩܐܡ kāʾem «قائم» .

أما الحبشية ، فإن الهمزة لاتسقط فيها فى أول الكلمة أو فى وسطها أو فى آخرها ؛ مثل ذلك አነ ʾana «أنا» መላእክት malāʾekt «ملائكة» ነሥአ našʾa «رَفَعَ» . غير أن الهمزة تؤثر فى الحبشية فى إطالة الفتحة القصيرة قبلها فى نفس المقطع ؛ فيقال مثلا : ማእከለ māʾkala «فى وسط» ، غير أن بروكلمان يرى أن إطالة الحركة هنا دليل على سقوط الهمزة ، وإن كانت ثابتة فى الخط [1].

أما اللغة الأكادية ، فيزعم المستشرقون أنه لم يبق فيها من حروف الحلق إلا الهمزة والخاء ، أما الأربعة الباقية وهى العين والحاء والغين والهاء ، فقد تحولت — فيما يقولون — إلى همزة ... أى هذه الأصوات الأربعة ، لم تكن موجودة فى نطق الشعب الأكادى ، وهو أمر يشك فيه المرء كثيرا ؛ لأنه يبعد عندنا أن تنسى أقوام سامية نطقها لأصوات الحلق ، وهى أقوام غازية غالبة فى منطقة بلاد الرافدين .

---

(١) انظر : فقه اللغات السامية ٤١

وأغلب الظن أن الأكاديين حينما استعملوا لكتابة لغتهم السامية الخط السومرى ، الذى كان موجودا فى المنطقة التى استعمروها فى بلاد الرافدين ، لم يجدوا رموزا فى هذا الخط لتلك الأصوات الأربعة ، فاستخدموا أقرب الرموز دلالة ، للتعبير عن نطق هذه الأصوات ، تماما كما لو تصورنا أن جماعة من البدو العرب لايكتبون ولايقرءون ، استعمروا جزءا من انجلترا ، ووجدوا أمامهم الخط اللاتينى ، واستخدموه لكتابة لغتهم العربية ، فإنه مما لاشك فيه ، أنهم سيستعيضون بالرمز (A) مثلا عن رمز صوت العين ، وبالرمز (H) عن الحاء والخاء ، فى الكتابة فقط ، غير أنهم لن ينسوا نطقهم لهذه الأصوات الأصيلة فى لغتهم .

وأما **الهاء** : فإنها موجودة فى اللغات كلها ، ماعدا الأكادية إذ نابت عنها الهمزة ، كما عرفنا ؛ مثال ذلك فى العربية : « هَلَكَ » ، وفى العبرية : הָלַךְ hālak̲ وفى الأكادية : ʾalāku ومثله أيضا فى العربية : « مَهْر » ، وفى العبرية : מֹהַר mōhar وفى الآرامية : ܡܗܪܐ mahra وفى الأكادية : tamartu . ومثله كذلك فى العربية : « هِلال » وفى الحبشية : ሀለለ helāl وفى الأكادية : ʾelēlu بمعنى : « لمع / أشرق » .

وأما العين ، فإنها موجودة فى اللغات السامية كلها ماعدا الأكادية كذلك ؛ إذ نابت عنها الهمزة أيضا ؛ مثال ذلك فى العربية : « عَقرب » وفى العبرية עַקְרָב ʿakrāb̲ وفى الآرامية : ܥܩܪܒܐ ʿekkarbā وفى الحبشية : ዐቅረብ ʿakrāb وفى الأكادية : ʾakrabu .

وأما الحاء :فإنها بقيت كذلك فى جميع اللغات السامية ماعدا الأكادية ؛ إذ نابت عنها الهمزة أيضا ؛ فكلمة : « حَدَث » فى العربية مثلا ، يقابلها فى العبرية חָדָשׁ ḥād̲āš وفى الآرامية : ܚܕܬ ḥd̲at̲ وفى

الحبشية : ሐደሰ ḥadasa وفى الأكادية : ʾedešu بمعنى « جديد » فى الأخيرة .

وأما الغين : فإنها لم تبق إلا فى العربية ، وتحولت إلى عين فى العبرية والآرامية والحبشية ، كما تقابل الهمزة فى الأكادية ؛ مثال ذلك كلمة : « غَرَبَ » فى العربية ، تقابل فى العبرية : עָרַב ʿārab وفى الآرامية : ܥܪܒ ʿreb وفى الحبشية ዐረበ ʿarba ، وفى الأكادية ʾerebu.

وأما الخاء ، فإنها لم تبق إلا فى العربية والحبشية والأكادية ، وتحولت إلى حاء فى العبرية والآرامية ، فمثلا كلمة : « خَبَطَ » فى العربية ، تقابل فى العبرية : חָבַט ḥābaṭ وفى الآرامية : ܚܒܛ ḥbaṭ وفى الحبشية : ኀፈጠ ḫafaṭa وفى الأكادية : ḫabāṭu بمعنى : « سَلَب / نَهَب » فى اللغة الأخيرة .

٦ ــ الأصوات المائعة :

يقصد بالأصوات المائعة liquida : اللام والميم والنون والراء ، وهى التى يسميها علماء العربية بالأصوات المتوسطة . وقد بقيت هذه الأصوات فى اللغات السامية كلها .

فمثال **اللام** : كلمة : « لُبّ » فى العربية ، يقابلها فى العبرية : לֵב lēḇ وفى الآرامية : ܠܒܐ lebbā وفى الحبشية : ልብ leb وفى الأكادية : libbu .

ومثال **الميم** : كلمة : « مَلأ » فى العربية ، يقابلها فى العبرية : מָלֵא mālē وفى الآرامية : ܡܠܐ mlā وفى الحبشية : መልአ malʾa وفى الأكادية : malū .

ومثال **النون** : كلمة : « نَفَخَ » فى العربية ، يقابلها فى العبرية : נָפַח nāfaḥ وفى الآرامية : ܢܦܚ nfaḥ وفى الحبشيــة : ነፍሐ nafḫa وفى الأكادية : napāḫu .

ومثال الراء : كلمة : « رأس » فى العربية ، يقابلها فى العبرية : ראשׁ rōš وفى الآرامية : ܪܝܫܐ rīšā وفى الحبشية : ርእስ re's وفى الأكادية : rēšu .

هذه هى حالة الأصوات المائعة فى اللغات السامية ، غير أن اللغة العربية ، قد تحولت فيها « الميم » التى تقع فى الطرف أصلا ، إلى « نون » ، إلا إذا أريد الاحتفاظ بها ، طردًا للباب على وتيرة واحدة ؛ مثل الأمر : «قُمْ » من : « قام » ، أو لم تصر متطرفة إلا بعد سقوط الحركة الأخيرة من الكلمة ، مثل الضمير : « هُمْ » ، وأصله : « هُمُ » .

ومن أمثلة انقلاب « الميم » نونا : كلمة « إنْ » ، فهى فى العبرية : אִם ʾim وفى الحبشية : እመ ʾema وفى الأكادية : šumma .

ومن أمثلة ذلك أيضا : « التميم »الذى يوجد فى الأكادية ، فى مثل : kalbum وهو يقابل : « التنوين » فى العربية ، فى نحو : « كَلْبٌ » .

ولهذه العلاقة الصوتية بين الميم والنون ،يتوالى هذان الصوتان ، فى السجع والفاصلة ، فى اللغة العربية ، دون أن يختل النغم ؛ ففى القرآن الكريم مثلا ،يقول الله تعالى ﴿ ن والقلم ومايسطرون ، ماأنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وفى الشعر العربى أمثلة قليلة لذلك ؛ كقول الراجز :

والله مافَضْلي على الجيرانِ
إلا على الأخوال والأعمامِ

ولعل هذه العلاقة هى التى تفسر لنا ورود بعض الكلمات فى العربية القديمة ، بروايتين إحداهما بالميم فى آخرها ، والأخرى بالنون ؛ كالغَيْم والغَيْن ، والآجِم والآجِن (للمتغيّر) والقاتِم والقاتِن (للأسود) وغير ذلك [1] .

٧ ــ **الواو والياء :**

فى العبرية والآرامية تتحول « الواو » فى أول الكلمة إلى ياء ، فمثلا : الكلمة الحبشية : ወርኅ warḫ التى تقابل فى العربية : « أرَّخ / وَرَّخ » ، هى فى العبرية : יֶרַח yĕraḥ وفى الآرامية : ܝܲܪܚܵܐ yarḥā وفى الآشورية القديمة : warḫu .

★ ★ ★

(١) انظر أمثلة أخرى فى القلب والإبدال ، لابن السكيت ١٧ – ٢٢ .

الفصل الثالث

أبنية الفعل

إذا نظرنا فى اللغات السامية المختلفة ، وجدناها تستخدم أبنية فعلية متعددة ، للتعبير عن شتى أوجه المفاهيم الفعلية ، أو بعبارة أخرى ، للتعبير عن كيفية الحدث ونوعه (Aktionsart) . وهذه الأبنية تؤخذ من الأصل ، الذى يكوّن الأساس المشترك للاسم والفعل ؛ فإننا نلاحظ أن كل كلمات اللغات السامية تقريبا ، تنضوى تحت مجموعات ، يتعلق المعنى الأساسى المشترك فيها ، بثلاثة أصوات صامتة (Consonants) ؛ فالكلمات العربية : « مَلَكَ » و « مَلِكٌ » و « مُلْكٌ » و « مملكة » ،وكذلك نظير هذه الكلمات فى العبرية مثلا ، ترجع كلها إلى أصل واحد مشترك بينها جميعا ، وهو : الميم واللام والكاف .

وليس من اللازم أن تكون كل الأبنية التى نعالجها هنا ، مستعملة مع كل فعل فى اللغات السامية . وسوف نستخدم فيما يلى الأصل : (ق ت ل) مع أنه ليس موجودا فى بعض اللغات السامية ، وذلك على سبيل التمثيل ، لتقريب الأمر إلى الأذهان . ونتناول فيما يلى أبنية الفعل المختلفة بالشرح والتمثيل :

١ ــ الوزن الأصلى (مجرد الثلاثى) :

فى العربية : « قَتَل » ḳátala وفى الحبشية : ቀተለ ḳatála وفى العبرية קָטַל ḳāṭál وفى الآرامية : ܩܛܠ ḳṭál وفى الأكادية : ḳatál .
وهكذا نرى أن العربية والحبشية ،قد احتفظتا بالفتحة الأخيرة فى الفعل ، على حين سقطت تلك الفتحة فى باقى اللغات ، ونحن نعنى بذلك أن الأصل

هنا ، هو وجود هذه الحركة ، وهى وإن كانت قد سقطت من العبرية والآرامية ، فإنها توجد فيهما قبل ضمائر النصب ؛ إذ يقال فى العبرية مثلا : קְטָלַנִי ktālánī وفى الآرامية : ܩܛܠܢ kaṭlan بمعنى : « قَتَلَنِى » .
ومن القواعد المقررة فى دراسة اللغات أن الصيغ المتصلة بضمائر النصب ، كثيرا ماتحتفظ بالعناصر القديمة فى اللغة .

كذلك نرى أن النبر واقع على المقطع الأول فى العربية ، فى حين أنه فى باقى اللغات السامية ، واقع على المقطع الثانى .

والراجح أن الحالة الثانية هى الأصل ؛ لأن المقطع الثانى ، هو المقطع الأساسى ، وحركته هى الحركة الرئيسية ؛ ولذلك يرتبط بها الفرق بين المتعدى واللازم فى الفعل (١) . وعلى ذلك لايستبعد أن يكون وقوع النبر عليه ، أولى من وقوعه على غيره . أماماحدث فى العربية ، فإنه يتمشى مع نظام النبر العام فيها ، وخلاصته أنه يسير من مؤخرة الكلمة نحو مقدمتها ، حتى يقابل مقطعا طويلا فيقف عنده ، فإذا لم يكن فى الكلمة مقطع طويل ، فإن النبر يقع على المقطع الأول منها (٢) .

وفى اللغة الآرامية ، لاتوجد حركات قصيرة فى مقاطع مفتوحة ، فإذا كان الأصل الاشتقاقى للكلمة ، فيه مثل هذه الحركة ؛ فإما أن تسقط ، كحركة فاء الفعل فى مثل : ܩܛܠ kṭál «قَتَلَ » ܟܬܒ kṯáḇ « كَتَبَ » وغير ذلك . وإما أن يشدّد الحرف التالى لها ، إذا أريد الإبقاء على الحركة ؛ مثل : ܝܰܡܺܝܢܳܐ yammina «يمين» ܠܶܫܳܢܳܐ Leššānā « لسان » ܚܰܟܺܝܡܳܐ ḥakkīmā « حكيم » .

والسؤال الآن عن سبب إطالة حركة المقطع الأول فى العبرية فى مثل : קָטַל kāṭál . ويرى بروكلمان (٣)أن اليهود فقدوا تحت تأثير العامية

---

(١) Gesenius, Hebräische Grammatik 125 .

(٢) فقه اللغات السامية لبروكلمان ٤٥

(٣) Brockelmann, Grundriss I 101 .

الآرامية ـــ القدرة على نطق الحركة القصيرة فى المقطع المفتوح ، وكان من الممكن سقوطها ، كما حدث فى الآرامية ، غير أن ذلك لايناسب نغمة الغناء المتوارث للنصوص المقدسة فى المعابد ، فأطيلت الحركة للاحتفاظ بها .

وهذا الوزن الأول : « فَعَلَ » متعدّ ، بمعنى أنه ينصب المفعول بنفسه ، وإذا غيرنا حركة المقطع الثانى منه ، بالضم أو بالكسر ، نتج عندنا وزنان آخران لازمان لايتعديان ، يدل أحدهما وهو « فَعُلَ » على الخصائص الثابتة المستمرة ؛ مثال ذلك فى العربية : « حَسُنَ » وفى العبرية : קָטֹן kāṭōn « صَغُر » . والثانى وهو : « فَعِلَ » يدل على الأعراض المتغيرّة ؛ مثاله فى العربية : « يَبِسَ » و « فَرِحَ » . ومثاله فى العبرية : šālēm שָׁלֵם « سَلِمَ » זָקֵן zāḳēn « هَرِمَ » .

وهاتان الحركتان ، قد تحولتا فى الحبشية فى الأفعال اللازمة ، إلى كسرة قصيرة ممالة (e) ؛ مثاله : ለበሰ labesa « لَبِسَ » التى أصبحت تنطق هى ونظائرها فيما بعد ، بسكون المقطع الثانى ؛ فيقال : labsa ومثل ذلك أيضا : ገብረ gabra « عَمِلَ » وغير ذلك .

ووزن (فَعُلَ) نادر فى اللغة العبرية ، ولايوجد كذلك فى اللغة الآرامية ، إلا فى بعض الأفعال المتحجرة ، مثل : ܟܦܘܕ kfōḏ « انتفش الطائر » ܐܟܘܡ ʾaḵōm « اسْوَدَّ » . أماوزن (فَعِلَ) فمنه فى العبرية والآرامية أفعال كثيرة نسبيا . وقد ذكرنا بعض أمثلته فى العبرية ، أما الآرامية فمن أمثلته فيها : ܕܚܠ dḥel « خاف » ܫܪܟ šreḵ « بقى » .

ولم تعدم الآشورية بعض الأفعال ، التى جاءت على وزن (فَعُلَ) مثل : imaruṣ «مَرِضَ » ، أو التى جاءت على وزن (فَعِلَ) مثل : išalim « سَلِمَ » .

٢ــ وزن فَعَّلَ :

وينتج بتكرير عين الفعل ، ويدل على الشِّدة والتكرار فى الحدث (intensiv- iterativ) غير أنه غالبا مايدل على السببية (kausativ) كذلك ؛ ففى العربية : « قَتَّلَ » ḳàttala وفى الحبشية : ቀተለ ḳáttala وفى العبرية : קִטֵּל ḳittēl وفى الآرامية : ܩܰܛܶܠ ḳattél وحركة العين فى هاتين اللغتين الأخيرتين ، مقيسة على حركتها فى المضارع . وفى الأكادية : ḳattál .

٣ــ وزن فَاعَلَ :

وينتج بمدّ حركة فاء الفعل ، ولا يوجد إلا فى المجموعة الجنوبية من اللغات السامية ؛ ففى العربية : « قَاتَلَ » وفى الحبشية : ባረከ bāraka « بارك » ሣቀየ šāḳaya « عَذّب » ዋሐየ wāḥaya « زار » .

أما السامية الشمالية ، فليس فيها هذا الوزن ، وإن كان يُظن أنه توجد منه بقايا متجمدة فى اللغة العبرية ، فى مثل : לִמְשֹׁפְטִי אֶתְחַנָּן limšōfṭī ʾethannān « أسترحم ديّانى » [(١)] ، وهو اسم فاعل من الفعل : שָׁפַט šāfaṭ « حَكَم / قَضَى » ، ووجود الميم فى أوله מְשֹׁפֵט دليل على بنائه من وزن « فَاعَلَ » كالعربية تماما .

٤ــ وزن السببية :

وتشترك اللغات السامية كلها مرة أخرى ، فى بناء وزن السببية (kausativ) بواسطة مقطع يزاد فى الأول ، وتسقط معه حركة فاء الفعل . وهذا

---

(١) سفر أيوب ١٥/٩

المقطع هو : (أ) فى العربية والحبشية والآرامية ، הַ (הִ) فى العبرية ، و (šă) أو (sa) فى الآشورية والمعينية .

وإذا كانت أنواع هذه المقاطع المختلفة ، لايمكن إرجاعها إلى أصل واحد ، فإن ذلك يؤدى إلى الاعتقاد ، بأنها نشأت جميعها فى السامية الأولى ، الواحدة بجوار الأخرى ، ولاتزال توجد فى بعض هذه اللغات كذلك ؛ فالشائع فى العربية الشمالية ، هو المقطع : (أ) مثل : « أَدْخَلَ » . غير أنه روى لنا فيها كذلك أفعال تبدأ بالمقطع : (ha) ؛ مثل : هَرَاقَ = أراق ؛ هَرَاحَ = أراح ؛ هَرَادَ = أراد . كما أن فيها السببية بالمقطع : (sa) فى مثل : «استخرج» ومماأشبهه من وزن : « استفعل » وهو أمر شائع كذلك ، كما يوجد فيها هذا المقطع الدال على السببية أيضا ، فى بعض الأفعال الثلاثية ؛ مثل « سَبَقَ » التى تقابل فى الآرامية : ܫܒܩ šbaḳ وقد زيد فى الكلمة العربية المقطع : (sa) على الفعل : « بَقِىَ » ، فيكون المعنى : جعله باقيا ، وهذا معنى السبق . ومثل ذلك أيضا : « سَكَنَ » التى تقابل فى الآشورية : šakānu « وَضَعَ / وُجِدَ » بزيادة المقطع : (sa) على الفعل : «كان » التامة .

وأما العربية الجنوبية ، ففى اللهجة السبئية منها ، أداة السببية هى (ha) وفى اللهجة المعينية هى : (sa) . وفى الحبشية تبنى السببية بالمقطع : ('a) فى مثل : አቅተለ 'akṭála ، كما تبنى كذلك بالمقطع : (sa) وذلك فى مثل : አስተርአየ 'astar'aya « أظهر نفسه » .

وأصل المقطع فى اللغة العبرية هو : ה (ha) بالفتح ، غير أن العبرية إذا وقع فيها الفتح فى مقطع مغلق ليس بمنبور ، تحوّل إلى كسر ؛ مثل : قدّم (فى العربية) > הִקְדִּים . والدليل على أن أصل حركة الهاء هو

الفتح ، وجود هذا الفتح فى المضارع ؛ مثل : יַקְטִיל yaḳṭīl « يُقْتِلُ » ؛ لأنه مختصر من : יְהַקְטִיל yhaḳṭil كما اختصرت : «يُكْرِم » من : « يؤكرم » مع الفارق فى الحركات بالطبع .

أما الحركة الطويلة فى المقطع الثانى من הִקְטִיל فيعللها « أُوْجُست بِرْتش » بأنها قياس على الفعل المعتل العين ؛ مثل : הֵקִים hēḳīm « أقام » (١). وتظهر الحركة الأصلية لهذا المقطع ، وهى الفتحة القصيرة ، عند إسناد الفعل إلى الضمائر ؛ مثل הִקְטַלְתָּ hiḳṭaltā « أقتلتَ » .

ولايكاد يوجد فى آرامية العهد القديم ، إلا المقطع (הַ) .أما اللغة السريانية ، فليس فيها إلا المقطع (ʼa) ، فيما عدا الكلمات الدينية المستعارة من العبرية ، عن طريق الآرامية اليهودية ؛ مثل : ܗܰܝܡܶܢ haymen « آمن » . وهذه الكلمة : « هيمن » استعارتها اللغة العربية بمعنى : « سيطر » .

وفى السريانية بقايا لوزن السببية ، بزيادة المقطع ، (sa) أو (ša) مثل : ܫܰܥܒܶܕ šaʿbed « استعبد » ܫܰܡܠܺܝ šamlī « أكمل » ܫܰܘܕܰܥ šawdaʿ « أخبر » ܫܰܘܚܰܪ šawḥar « أخّر » ܣܰܪܗܶܒ sarheb « أسرع » ܣܰܩܒܶܠ saḳbel « استقبل » ܫܒܰܩ šbaḳ « سَبَقَ » . أما الأكادية فلا يوجد فيها إلا المقطع : (ša) وذلك مثل : ušadgil « أظهر » .

٥ ــــ وزن المطاوعة بالتاء :

ويبنى من كل وزن من الأوزان السابقة ، وزن جديد ، بزيادة المقطع : (ta) فى أوله ، ويسمى : وزن الانعكاسية (Reflexiv)أو المطاوعة ، أو الافتعال .

---

(١) A. Bertsch, Hebräische Grammatik 50 .

ففى الوزن الأول (مجرد الثلاثى) : تسقط حركة فاء الفعل ، عند بناء وزن الافتعال منه ، بسبب انتقال النبر من عليها إلى المقطع : (ta) وعندئذ تنتج صيغة : táktala ، وهذه الصيغة التى نتجت على هذا النحو ، لا وجود لها ــ على الرغم من قدمها ــ إلا فى الحبشية فى كلمة : ተንሥአ tanšē ʾa « ارتفع » . ولا وجود لها فيما عدا ذلك من اللغات السامية ، بسبب مايسمى « القياس البنائى » ، على النحو التالى :

فى اللغة العربية : أثرت صيغة المضارع على صيغة الماضى ؛ إذ اشتق من المضارع : « يَتْقَتِلُ » ، الذى فقدت التاء فيه حركتها ، بسبب انتقال النبر ــ ماض جديد ، هو : « تْقَتَلَ » ؛ ولأنه لايجوز الابتداء بساكن فى العربية احتاجت هذه الصيغة إلى ألف الوصل ، فقيل : « اتْقَتَلَ » ، ولاتزال هذه الصيغة مستعملة فى العربية العامية فى مصر والمغرب ؛ ففى مصر يقال مثلا : « اِتْنَصَرْ » بمعنى : نُصِرَ . كما يقولون فى تونس : tktib « كُتِبَ » وفى مراكش : tsaráḳ « سُرِقَ » .

أما العربية الفصحى ، فقد وضعت فيها التاء بعد فاء الفعل ، فقيل : « اِقْتَتَلَ » . ويرجح بروكلمان (١) أن السبب فى هذا القلب المكانى ، هو القياس على الأفعال الكثيرة ، التى تبدأ بصوت من أصوات الصفير ، كالسين والشين ؛ فإن القاعدة السامية العامة ، تقول بالقلب المكانى بين تاء الافتعال وفاء الفعل ، إذا كانت هذه الفاء من أصوات الصفير ؛ ففى العربية : « اشتمل » وفى العبرية הִשְׁתַּמֵּר «احترس» ، وفى السريانية : ܐܶܣܛܡܶܟ ʾestmeḵ « اعتمد » . وفى الآشورية : ʾaštanan « أقاتل » .

---

(١) فقه اللغات السامية ١١٠

هذه هى القاعدة العامة فى اللغات السامية . وقد قاست العربية والآشورية الأفعال التى فاؤها ليست صوت صفير ، على تلك التى فاؤها كذلك ؛ فيقال فى العربية : « اقتتل » و « اعتزم » ، كما يقال فى الآشورية : ibtanī « ابتنى » . ومثل ذلك حدث فى العربية الجنوبية أيضا ؛ ففيها : ktdm « بدأ » sttr « كَتَبَ » .

أما الحبشية ، فقد تأثر فيها هذا الوزن : taḳtala من ناحية بوزن الافتعال من المضعف : taḳattala فى الإبقاء على حركة فاء الفعل ، ومن ناحية أخرى بالوزن الأصلى اللازم (نحو : labsa) الذى يقاربه فى المعنى ، فسقطت حركة العين ، وجاءتنا لذلك صيغة : ተቀተለ taḳatla .

وأما العبرية ، فلا وجود لهذا الوزن فيها إلا فى الفعل : הִתְפָּקְדוּ hitpākdū « عُدُّوا » . ومثل ذلك فى الآرامية : ܐܶܬܦܩܶܕ ʾetpked « فُقِدَ » .

والافتعال بزيادة المقطع : (ta) على وزن (**فَعَّلَ**) يظهر فى صورته الأصلية فى العربية والحبشية ؛ ففى الأولى : « تقتّل » ، وفى الثانية : ተቀተለ taḳattála . أما الآرامية والعبرية ، فليس فيهما هذه الصورة الأصلية ؛ بسبب اشتقاق ماض جديد من المضارع ؛ مثاله من الآرامية : ܐܶܬܦܰܩܰܕ ʾetpakkad ومثاله من العبرية : הִתְקַטֵּל hitkattēl « تقتّل » ، وقد قيست فيه حركة العين على حركتها فى مضعف العين المجرد ، وقد ورد بفتح العين أحيانا ، كما فى آرامية العهد القديم הִתְקַטַּל hitkattal . والمقطع (הִ)هنا متأثر بمقطع السببية .

وقد حدث مثل ذلك الاشتقاق الجديد ، فى بعض أفعال العربية الفصحى كذلك ؛ مثل : « اطّهر » و « اذّكّر » و « ازّيّن [1]» . أما

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٣١

اللهجات العربية الحديثة ، فلا يكاد يوجد فيها إلا هذا الاشتقاق الجديد ؛ مثاله فى العامية المصرية : « اتنفّس » و « اتندّم » .

وأما الأكادية ، فقد عمم فيها أيضا ، نظام الفعل الذى فاؤه أحد أصوات الصفير ؛ مثل : uptarriš « خُلِّص » .

أما الافتعال من **وزن (فَاعَلَ)** ، فلا يوجد إلا فى العربية والحبشية ؛ لأن وزن « فَاعَلَ » لاوجود له إلا فى السامية الجنوبية ، كما سبق أن ذكرنا ذلك . والافتعال بزيادة المقطع : (ta) مطرد تمام الاطراد فى هاتين اللغتين ؛ ففى العربية : « تقاتل » ، وفى الحبشية : ተቃተለ takātala .

غير أن العربية قد حدث فى بعض أفعالها هنا ، منذ أيام الجاهلية ، ماحدث لصيغة تفعَّل ، من اشتقاق ماض جديد من المضارع بعد سقوط حركة فائه ؛ ولذلك وصل إلينا مثل قول تعالى ﴿ بل ادّارك عِلْمُهم فى الآخرة ﴾ (النمل ٢٧ / ٦٦) وقوله عز وجل ﴿ إذا قيل لكم انفِرُوا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ﴾ (التوبة ٩ / ٣٨) . وقد ساد هذا الاشتقاق الجديد وحده فى اللهجات المعاصرة ؛ كقولنا مثلا : « فلان اشّاتم مع فلان واصّالحوا سوا » ! .

وأما الافتعال من وزن السببية ، فإنه يوجد كذلك فى كل اللغات ، فيما عدا العبرية ، غير أنه يبنى من السببية بالهمزة (ʾa) فى الآرامية ، ومن السببية بالسين (sa) فى غيرها .

وفى العربية ، كان المفروض أن يكون بناء الماضى هو : « تَسَقْتَلَ » ، ومضارعه : « يَتْسَقْتِلُ » ، غير أنه حدث قلب مكانى فى المضارع ، بسبب ماذكرناه من قبل ، من خصائص حروف الصفير ، فصار المضارع : « يستقتل » ، واشتق منه

ماض جديد ، بعد حذف حرف المضارعة ، واجتلاب ألف الوصل ، فصار الماضى : « استقتل » .

وقد حدث مثل ذلك تماما فى الحبشية : ፡ አስተቀተለ 'astaktála والآشورية مثل : uštakšid « استقبل » .

وفى الآرامية وحدها ، يبنى الافتعال من السببية بزيادة المقطع : ('et) قبل وزن السببية ؛ فمثلا ܐܰܦܥܶܠ 'af'el تصير : ܐܶܬܐܰܦܥܰܠ 'et'af'al ، ثم يحدث إدغام الهمزة فى التاء ، فتصير فى النهاية : ܐܶܬܬܰܦܥܰܠ 'ettaf'al « أُفْعِل » .

٦ ــ المطاوعة بالنون :

وإلى جانب وزن الافتعال للمطاوعة بزيادة المقطع : (ta) ، هناك مطاوعة (انفعال) بالنون ، فى كل من العبرية والأكادية والعربية ، ونؤثر أن نسميه هنا بوزن « الانفعال » ، حتى يتميز عن الوزن السابق . وهو يبنى من مجرد الثلاثى بزيادة مقطع فى الأول فيه (نون) . وتظهر الصورة الأصلية لهذا الوزن فى ماضى العبرية : נִפְעַל nif ʿ al وأمر الأكادية : naktil . أما العربية ، فقد ظهر فيها هنا بناء جديد ، مأخوذ من المضارع ؛ مثل : « انكسر » .

وأخيرا نذكر هنا أن الحبشية ، تبنى وزن الانفعال أيضا ، غير أنها لاتصوغه من مجرد الثلاثى ، بل من الرباعى ؛ مثل : አንፈርዐጸ 'anfar'aṣa «وَثَبَ» .

٧ ــ المبنى للمجهول :

ولكل وزن من الأوزان الأربعة الرئيسية (مجرد الثلاثى وفَعَّل وفَاعَل

والسببية) فى الأصل ، صيغة خاصة بالمبنى للمجهول وتحرّك مقاطعها بضم الأول ، وكسر الثانى ، وفتح الثالث ، بدلا من تتابع الفتحات فى صيغة المبنى للمعلوم .

وقد فقد المبنى للمجهول من اللغة الحبشية مطلقا . أما العبرية فقد ضاعت منها الصيغة الأصلية للمبنى للمجهول من الثلاثى ، ونابت عنها صيغة « الانفعال » נִפְעַל . وأحيانا يتفق فيها المبنى للمجهول من مجرد الثلاثى ، مع المبنى للمجهول من وزن (فَعَّل) ؛ مثل : יֻלַּד yullad « وُلِدَ » من : יָלַד yālad « وَلَدَ » ومثل : כֻּפַּר « كُفِّر عنه » من : כִּפֵּר kippēr « كَفَّرَ عن » .

أما المبنى للمجهول من السببية فى العبرية ، فإنه على وزن : הָפְעַל وقد قيست حركة العين فى الماضى على حركتها فى المضارع : יָפְעַל وليس فى السريانية مبنى للمجهول فى صورته الأصلية ، ولكن اسم المفعول مع الفاعل المسبوق باللام ، يمكن أن يقوم فيها مقام المبنى للمجهول ؛ مثل : ܫܡܝܥ ܠܢ šmīʿ lan بمعنى : مسموع لنا ، أى : سُمع لنا ، يعنى : سَمِعْنا [١] .

وفيما عدا ذلك ، يؤدى الافتعال (بالتاء) فى السريانية ، وظيفة المبنى للمجهول ، من الصيغ الأصلية فى اللغة ، وهى : مجرد الثلاثى ، ومضعف العين ، والمزيد بالألف ؛ فيقال من مجرد الثلاثى : ܐܶܬܩܛܶܠ 'etḵṭel « قُتِلَ » ومن مضعف العين : ܐܶܬܩܰܛܰܠ 'etḵaṭṭal « قُتِّلَ » ومن المزيد بالألف : ܐܶܬܬܰܩܛܰܠ 'ettaḵṭal « أُقْتِلَ » .

---

(١) انظر : التطور النحوى لبرجشتراسر ١٤١

وتحتفظ الآشورية بآثار المبنى للمجهول ، فى خطابات تل العمارنة ؛ مثل : dīka «قُتِل » فى مقابل : dāka « قَتَلَ » .

هذا ، وتصوغ العربية المبنى للمجهول ، من أوزان الافتعال والانفعال أيضا . وليس من ذلك فى العبرية إلا آثار ضئيلة مثل הָתְפָּקְדוּ hiṯpāḳdū « عُدُّوا / أُحْصِيَ عددهم » .

٨ ــ أبنية أخرى :

وفيما عدا الأوزان الأربعة الرئيسية ، يوجد فى بعض اللغات السامية ، أبنية أخرى ، لانذكر منها هنا إلا وزنى : « افعلَّ » و « افعالّ » فى العربية ؛ مثل : « اخضرّ » و « احمرّ » و« اشهابّ » و « اصفارّ » .

أبنية جديدة :

وتشترك الحبشية والأكادية ، فى الميل نحو توسيع دائرة الأوزان الأربعة الرئيسية ، بأبنية جديدة ، فإن الحبشية مثلا تبنى وزن السببية لا من الوزن الأصلى فحسب مثل: ʾaḳtála ، بل من وزنى (فَعَّلَ) و (فَاعَلَ) كذلك ؛ مثل : ʾaḳattála አቀተለ و ʾaḳātála አቃተለ.

ويقل وجود وزن السببية من (فَعَّل) فى الأكادية ، غير أن اللغتين تميلان ، علاوة على ذلك ، إلى تكديس حروف الزيادة ، المترادفة المعنى ، فى وزن الافتعال ؛ فإن الحبشية تصوغ من الفعل : ʾanṭōleʿa አንጦለዐ « غَطّى » وهو سببى انفعالى ــ مبنيا للمجهول بزيادة للافتعال هكذا : tanṭōleʿa ተንጦለዐ « غُطِّيَ » . ومثل ذلك فى اللغة الآشورية : iptanalāẖū «يعظِّمون » .

★ ★ ★

الفصل الرابع
أدوات التعريف والتنكير

لم تكن اللغات السامية على مايبدو ـــ تستخدم فى الأصل رمزاً أو أداة بعينها للتعريف . وقد حافظت الأكادية والحبشية على ذلك الأمر ؛ ففى اللغة الحبشية يمكن للاسم المجرد أن يدل على التعريف الإشارى الدقيق ؛ فمثلا كلمة : ዮም yōm يمكن أن يكون معناها فى سياق النص : « اليومَ ».

ولاتزال تلك المقدرة على هذا السلوك ، موجودة كذلك فى العربية ؛ ففى تاريخ الطبرى مثلا : « سَدُومُ يوماً هالكٌ » (١) يعنى : سدوم اليوم هالك . وفيه كذلك : « فقال أبو قبيس : لاأُسلم سنةً (٢) » يعنى : السنةَ . وفيه أيضا : « إنما عهدك بالعمل عاماً أوّل (٣) » يعنى العام الماضى (٤) . ومثل ذلك فى العبرية كلمة עַתָּה attā «الآن » .

وفيما عدا ذلك ، يوجد للتعريف فى العربية الأداة : (ال) ، وفى العبرية الأداة : hā (הָ) فى رأى « بروكلمان » أو : han (הַנ) فى رأى « أونجناد » ، أو : hal (הַל) كما هو الرأى الشائع الذى ارتضاه معظم الدارسين للعبرية . وهذه الأداة فى العربية والعبرية ، توضعان فى أول الكلمة فى كل منهما .

---

(١) تاريخ الطبرى ١ / ٣٦٦

(٢) تاريخ الطبرى ٤٠٦/٢

(٣) تاريخ الطبرى ٣٥٦/٤

(٤) وهى العبارة التى تحولت على ألسنة الناس اليوم ، فصارت « عمنوِّل » . انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ١٣٦

وفى العربية الجنوبية ، توجد النون (ن) ، وفى الآرامية ، الألف الممدودة (ܐ) اللتان توضعان فى آخر الاسم المعرّف ، غير أنها فى اللغة السريانية ، فقدت هذه الألف الممدودة ، قوتها التعريفية ، وأصبحت هى النهاية العادية للاسم ، فلا تدل على التعريف إلا فى المفعول المباشر ، الذى ألحقت به اللغة السريانية المتأخرة ، لام الجر ؛ وذلك مثل : ܫܒܩܬܘܢ ܠܒܪܘܝܐ šbaḳtōn lbārōyā « تركتم الخالق » . وغالبا مايعبر عن التعريف فى السريانية ، بضمير متصل يعود إلى الاسم الذى يذكر بعد ذلك ؛ مثل : ܡܢܗ ܕܪܥܝܐ menneh drā ʿ yā « مِنَ الراعى » ، كما نرى فى الترجمة السريانية القديمة للإنجيل من اليونانية : كلمة « تلاميذه » ، حيث لايوجد فى النص اليونانى سوى كلمة : « التلاميذ » .

وهناك من يرى أن ثمة علاقة بين أداة التعريف واسم الإشارة ، ويحتج على ذلك بوجود التشابه بين أداة التعريف : the فى الإنجليزية واسم الإشارة : this فيها . وهذا التشابه بين أدوات التعريف وأسماء الإشارة حاصل فى اللغة الألمانية كذلك .

ويرجح علماء اللغات السامية أن الأصل فى أداة التعريف السامية ، هو « الهاء واللام » ، وهما عنصران يدخلان فى تركيب كثير من أسماء الإشارة فى اللغات السامية ، غير أن هذا الأصل ، لم تحتفظ به أية لغة من اللغات السامية ؛ ولذلك اختلف العلماء فى تصوره ؛ إذ نجد فى العبرية الهاء (הַ) وحدها مشكلة بالفتحة القصيرة ،ثم نجد مابعدها مشدّداً ، إذا لم يكن حرفا من حروف الحلق (אהעחר) ، فإن كان واحداً من هذه الحروف لم يشدد ، وأطيلت حركة الهاء فى بعض الأحيان ، عوضا عن التشديد . والتشديد فى نظر هؤلاء العلماء ، علامة على إدغام العنصر الثانى من عناصر

أداة التعريف فى أول حروف الكلمة المعرَّفة .فما هو ذلك العنصر الذى أدغم فى هذا الحرف ؟!

إننا نجد العنصر لأداة التعريف فى العربية ، هو (اللام) فما المانع أن تكون تلك اللام ، هى التى أدغمت هنا فى العبرية ؟

كانت تلك وجهة نظر من قال بذلك من علماء اللغات السامية . أما العالم « أونجناد » فهو يرى أن العنصر الثانى هو (النون) وليس (اللام) ؛ لأن النون هى التى ينالها الإدغام كثيرا فى العبرية ، إلى درجة أن الأفعال التى فاؤها نون ، قد كونت تصريفا بعينه فى هذه اللغة ؛ مثل : נָתַן nāṯan « أعطى » נָגַשׁ nāġaš « اقترب » nāfal « سقط » وغير ذلك .

أما الفعل : לָקַח lāḳaḥ « أخذ » ، فإن إدغام فائه ، وهى اللام ، فى تصاريفه ، ناتج بلاشك بتأثير مقابله فى المعنى وهو الفعل : נָתַן « أعطى » ، بدليل وجود أفعال أخرى فاؤها لام ، ولايحدث فيها مثل هذا الإدغام ؛ مثل : לָמַד lāmaḏ «تعلّم» לָעַג lāʿaġ «سبَّ / هجا / شتم » .

وقد ذهب « أونجناد » إلى هذا الرأى ،حين وجد عنصر التعريف فى العربية الجنوبية هو النون (ዓ) التى تلحق آخر المعرف ـــ كما ذكرنا من قبل . وقد يؤيد ماذهب إليه كذلك أن أداة التعريف فى النقوش اللحيانية العربية هى « الهاء فى العادة ، غير أنها تظهر قبل الألف والعين فى صورة : (هن) بصفة مطردة [١] » .

---

(١) C.Rabin, Ancient West-Arabian 35 .

أما إذا امتنع التشديد ، بسبب وجود أحد حروف الحلق ، فلماذا لم تظهر هذه اللام (أوالنون) فى نطق العبرية ، كما ظهرت اللام فى اللغة العربية ؟ ولماذا استعيض عن ذلك بإطالة حركة الهاء فى بعض الأحيان ؟!

كان هذا التساؤل فى رأينا ، هو مادعا « بروكلمان » إلى أن يعدّ أصل الأداة فى اللغة العبرية هو : hā (הַ) وهذه تبقى كما هى قبل حروف الحلق ، وتقصرّ حركتها ويشدد مابعدها ، إذا لم يكن حرف حلق ؛ لأن نظام المقاطع لن يتأثر كَمُّهُ بذلك .

ويستطيع «بروكلمان » بهذا الرأى أن يفسر الأداة الآرامية: ā (ܐ) بأنها ما تبقَّى من الأداة : hā (ܗܳ) بعد سقوط الهاء منها . غير أنه لايستطيع أن يجد بذلك تفسيراً لأداة التعريف فى العربية الشمالية والعربية الجنوبية .

وإلى مثل ذلك يذهب « برجشتراسر » ؛ إذ يقول : « والأدوات المستعملة فى هذه اللغات لتأدية التعريف ، اثنتان : (hā) فى العبرية والآرامية ، مع أنها تلحق بأول الكلمة فى العبرية ، وبآخرها فى الآرامية ، نحو hammēlek أصلها : hāmēlek فى العبرية ، وmalkā أصلها malkhā فى الآرامية . وهى (ʾal) فى العربية [١] » .

والذين قالوا بأن أصل أداة التعريف السامية هى (الهاء واللام) ، قالوا : إن الألف حلت محل الهاء فيها ، فى اللغة العربية ، كما أن اللام تدغم كذلك فى العربية فيما بعدها ، إذا كان حرفا من الحروف الشمسية ، التى جمعها أحد الشعراء ، فى أوائل كلمات البيت التالى :

---

(١) التطور النحوى ١٤٣

طِبْ ثم صِلْ رَحِمًا تَفُزْ ضِفْ ذا نِعَمْ
دَعْ سُوءِ ظَنٍّ زُرْ شَرِيفاً لِلْكَرَمْ

وهى ١٤ حرفا ، وما عداها لا تدغم فيه اللام ، وتسمى بالحروف القمرية . واللام وإن كانت تدغم هنا مع الحروف الشمسية ، فإنها تظهر فى الكتابة ، طرداً للباب على وتيرة واحدة . وفى اللهجة العامية المصرية زادت الحروف الشمسية حرفين هما : الجيم والكاف ؛ فيقال : طِلِع اجَّبَلْ ، وابن البلد اجَّدَعْ ، وفين اكّتاب ؟ وفلان عضّه اكَّلْبْ .!

أما تقابل الألف فى العربية مع الهاء فى العبرية ، فله أمثلة كثيرة ؛ فالاستفهام فى العربية بالألف ، وفى العبرية بالهاء . وصيغة (أَفْعَلَ) فى العربية ، يقابلها הִפְעִיל hif'īl فى العبرية . وصيغة (أُفْعِلَ) يقابلها הָפְעַל hofal إلى غير ذلك . وفى بعض اللهجات العربية الحديثة تستخدم الهاء فى اسم الإشارة وأداة التعريف ، بدلا من الألف ؛ فيقال : « هَلْيُوم » يعنى : اليوم ، و « هَرَّجُل » يعنى : « الرجل » ، فهل هذا من الإبدال فى داخل اللغة الواحدة (مثل : أراق وهراق) ؟ أو هى عناصر قديمة ؟ أو أن الكلام مختصر من اسم الإشارة مع المعرّف ، بسبب السرعة فى الكلام ، وأصل العبارة : « هذا اليوم » و « هذا الرجل » ؟

وفى بعض اللهجات العربية القديمة ، وهى طيىء والأزد ، وقبائل حمير فى جنوبى الجزيرة العربية ، تحل الميم محل اللام فى أداة التعريف ، كما جاء فى الآثار فيما رواه النمر بن تولب ، أنه ﷺ قال : « ليس من امْبِرِّ امْصِيَامُ فى امْسَفَر » ، يعنى : ليس من البر الصيام فى السفر . وهى الظاهرة المعروفة عند علماء اللغة العرب ، بظاهرة : « الطُّمطمانية [١] » .

---

(١) انظر التفصيل فى كتابنا : فصول فى فقه العربية ١٢٨ – ١٣٠

وقد عرفنا من قبل أن اللام والميم والنون والنون ، من الأصوات المتوسطة أو المائعة ، التى يبدل بعضها من بعض . والأمثلة على ذلك كثيرة من اللغات السامية نفسها ؛ مثل : אִם ʾim العبرية ، التى تقابل فى العربية : « إنْ » وفى السريانية : ܐܶܢ ʾin . وكذلك النهايات الإعرابيـة : -um -am -im فى الأكادية ، التى تقابل : -un -an -in فى العربية ، وغير ذلك كثير .

أما اللغة الحبشية ، فلا وجود لأداة التعريف فيها ، وكذلك الحال فى اللغة الأكادية . وفى كل اللغات السامية يتعرف من الأسماء ماأضيف إلى معرفة ، ضميرا كانت تلك المعرفة أو اسما ظاهراً .

هذا هو التعريف . أما التنكير فله فى العربية الشمالية والجنوبية أداة معينة ، تلك هى الميم (⊰) فى الجنوبية . ويرجح « بروكلمان » أنها مختصرة من (ما) بمعنى : « شىء ما » الموجودة فى العربية الشمالية[١] . وقد تحولت هذه الميم إلى (نون) فى العربية الشمالية ، فأصبح فى الجنوبية (التمييم) وفى الشمالية (التنوين) .

و(التمييم) موجود فى الأكادية كذلك ، ولكن بغير معناه الأصلى . ويظهر أن كلمة : (ما) التى ترتبط بها نهاية التمييم ، لم يكن لها هناك معنى العموم ، وإنما كانت تدل على التفخيم والتعظيم .

وهناك بقايا للتمييم فى العربية ، فى كلمة : « فم » و « ابنم » فى مثل قول المتلمس :

---

(١) فقه اللغات السامية ١٠٣

وهل لِيَ أمٌّ غيرُها إن هَجَوْتُها

أبَى الله إلا أن أكون لها ابنَمَا[١]

بدليل أن الإعراب يجرى فى هذه الكلمة الأخيرة على النون والميم معاً[٢] .

ولا توجد هذه الأداة الدالة على التنكير ، فى الحبشية والعبرية ، إلا متجمدة فى بعض الظروف ؛ فمثلا فى اللغة الحبشية : ትማልም temālem « أمسِ » ، وفى العبرية : יוֹמָם yōmām « نهاراً / كلَّ يوم » .

ولاتزال كذلك فى الآرامية ؛ مثل : ܐܝܡܡܐ ʾīmāmā « نهاراً » ، غير أنها تعدّ هنا جزءاً من الكلمة ؛ ولذلك جاءت بعدها ألف التعريف ، وأصلها قبل دخول تلك الألف : ܐܝܡܡ ʾīmām.

ولقد كان قدامى اللغويين العرب ، يعرفون أن الأصل فى التنوين فى العربية هو التنكير ، بدليل قول ابن جنى مثلا : « ويدل عندى على أن حرف التعريف ، قياسه أن يكون على حرف واحد ، أنه نقيض التنوين ، وذلك أن التنوين يدل على التنكير ، واللام تدل على التعريف[٣] » .

كما يقول ابن جنى كذلك : « التنوين علم التنكير ، والإضافة موضوعة للتعريف[٤] » . ويقول أيضا : « التنوين دليل التنكير ، والإضافة موضوعة للتخصيص[٥] » .

---

(١) ديوان المتلمس ق ١/١٠ ص ٣٠

(٢) الخصائص لابن جنى ١٨٢/٢ وديوان المتلمس ٣٠ – ٣١

(٣) المنصف ٦٩/١

(٤) الخصائص ٦٥/٣

(٥) الخصائص ٢٤٠/٣

وينفى السهيلى ماشاع عند النحاة ، من أن التنوين فى الأسماء المعربة للتمكين ، وإن كان يعده علامة الانفصال ؛ فيقول : « التنوين علامة للانفصال ، وإشعار بأن الاسم غير مضاف إلى مابعده ولا متصل به ، وليس دخول التنوين فى الأسماء علامة للتمكن ، كما ظنه قوم[(١)] » .

ودخول التنوين (وهو للتنكير كما ذكرنا من قبل) فى الأعلام العربية ؛ مثل : « محمدٌ » و « عَلِيٌّ » ، أمر صعب التفسير ؛ لأن العَلَم معرفة ، كما نعلم . غير أنه يمكن أن يكون فى كل عَلَم شىء من الشيوع ، وإن كان أقل من شيوع النكرة ؛ إذ كثيرون يسمَّون بمحمد وعلىّ وغيرهما ؛ فالتنوين فى الأعلام للدلالة على هذا الشيوع النسبى ؛ ولذلك نراه يزول عندما يوصف العَلَم بكلمة : « ابن » ؛ لأن الدائرة قد ضاقت بهذا الوصف ، وأصبح العَلَم محدّدا غاية التحديد ، ببيان النسب ؛ ولذلك لايدخله التنوين فى هذه الحالة ؛ فيقال مثلا : « محمدُ بنُ علىّ » وماأشبه ذلك .

وقد أحس ابن جنى بهذا التنكير النسبى فى الأعلام ؛ فقال : « التنوين دليل التنكير ... فإن قلت : فإذا كان الأمر كذلك ، فما بالهم نَوَّنُوا الأعلام ، كزيد وبكر ؟ قيل : جاز ذلك ؛ لأنها ضارعت بألفاظها النكرات ؛ إذ كان تَعَرُّفها معنويا لا لفظيا ؛ لأنه لا لام تعريف فيها ولا إضافة [(٢)] » .

وليس حذف التنوين من العلم الموصوف بابن هنا ، بسبب التقاء

---

(١) أمالى السهيلى ٢٤

(٢) الخصائص ٣/٢٤٠

الساكنين ، كما يدعى بعض النحاة ؛ « بدليل حذفه من : هند بنت عاصم ، على لغة من صرف هندا ، وإن لم يلتق هنا ساكنان[١] » .

ويدل على أن التنوين فى الأعلام لتنكيرها كذلك ، أنه إذا تحدّد تعريف العَلَم تحديدا قاطعا بالنداء ، منع التنوين ؛ كقولنا مثلا : « يا محمدُ » و « يا علىُّ » .

ويذهب « برجشتراسر » فى موضوع التنوين إلى احتمال آخر ؛ فيرى « أن التنوين ، وإن كان علامة التنكير فى كل ما بقى من مستندات اللغة العربية ، فربما كان فى الأصل علامة للتعريف ؛ فقد ذكرنا أن أصل التنوين هو التميم . وإنا نرى للتميم آثاراً من معنى التعريف فى الأكادية العتيقة .

« فإن قال قائل : فكيف يمكن أن يصير ماكان يشير إلى شيء واحد فى الأول ، مشيرا إلى ضده فيما بعد ؟ قلنا إن مثل ذلك ليس بمحال فى حياة اللسان . وقد نشاهد فى تاريخ اللغة الآرامية طبق مافرضناه من تبادل التعريف والتنكير ؛ وذلك أن أداة التعريف كانت فى الآرامية العتيقة ، فتحة ممدودة ملحقة بآخر الكلمة ؛ نحو : šum أى : اسم ، وšmā أى : الاسم . وربما كان أصل الفتحة الممدودة : (hā) التى هى آلة التعريف فى العبرية ، غير أنها تلحق فيها بأول الكلمة ، نحو : šēm أى : اسم ، و haššēm أى : الاسم . وتشديد الشين فيها ، عوض عن مد الحركة .

« ثم بعد ذلك صارت أداة التعريف فى اللغة الآرامية ، تَخْلَق بالاستعمال الكثير ، وتضعف قوتها المعرّفة . ومثل ذلك كثير فى تاريخ

---

(١) الاقتراح للسيوطى ٥٢

اللغات ، فنجد الفتحة الممدودة فى السريانية ، تلحق بأكثر الأسماء ، معرفة كانت أم نكرة ؛ نحو : mḏīttā ḥḏā أى : مدينة واحدة ، أو بالأحرى : إقليم واحد ... وبسبب ضعف آلة التعريف العتيقة ، احتاجوا إلى وسائل جديدة لتأدية التعريف ، فاخترعوا كثيرا منها فى اللغات الآرامية ، على اختلافها ، فأدى ذلك إلى أن كل كلمة لا يوجد معها إحدى تلك الأدوات الجديدة ، تُتلقَّى كأنها نكرة ، وإن ألحقت بآخرها الفتحة الممدودة ، فصارت هى علامة للتنكير .

★ ★ ★

الفصل الخامس
التذكير والتأنيث

لفت الجنس نظر الإنسان الأول ، حين عرف الفرق بين الذكر والأنثى فى الإنسان والحيوان ، وانعكس أثر ذلك بالطبع على لغته .

وتدل مقارنة اللغات السامية ، على أن الساميين القدامى كانوا يفرقون بين المذكر والمؤنث فى اللغة ، لابوسيلة نحوية ، ولكن بكلمة للمذكر وكلمة أخرى من أصل آخر للمؤنث ؛ ففى العربية مثلا : « حمار » للمذكر ، فى مقابل : « أتان » لأنثى الحمير ، و« غلام » للمذكر ، فى مقابل : « جارية » للأنثى ، وغير ذلك . وفى اللغة العبرية : אַיִל ʾáyil « كبش » فى مقابل : רָחֵל rāḥēl « نعجة / رَخِل » لأنثى الكبش . وفى السريانية : ܓܕܝܐ gadyā « جَدْى » فى مقابل : ܥܙܐ ʿezzā « عنز » . وهما فى الآشورية : gadū « جَدْى » و enzuʾ « عنز » . ومثل ذلك فى الحبشية : አብ ʾab « أب » فى مقابل : እም ʾem « أمّ » . وغير ذلك كثير .

وقد فطن إلى ذلك اللغويون العرب أنفسهم ، فقد « قال الشيخ بهاء الدين بن النحاس ، فى التعليقة على المقرب : كان الأصل أن يوضع لكل مؤنث لفظ غير لفظ المذكر ، كما قالوا : عَيْر وأتان ، وجَدْى وعَناق ، وحَمَل ورَخِل ، وحِصَان وحِجْر ، إلى غير ذلك ، لكنهم خافوا أن يكثر عليهم الألفاظ ، ويطول عليهم الأمر ، فاختصروا ذلك بأن أتوا بعلامة ، فرقوا بها بين المذكر والمؤنث ، تارة فى الصفة كضارب وضاربة ، وتارة فى الاسم كامرىء وامرأة ، ومَرْء ومَرْأة فى الحقيقى ، ثم إنهم تجاوزوا ذلك إلى أن جمعوا فى الفرق

بين اللفظ والعلامة ، للتوكيد وحرصا على البيان ؛ فقالوا : كبش ونعجة ، وبلد ومدينة [١] » .

ومثل ذلك يلاحظ فى اللغات الهندوأوربية كذلك ؛ ففى الانجليزية مثلا : son « ابن » فى مقابل : daughter « ابنة » ، وكذلك : brother « أخ » فى مقابل : sister « أخت » . ومثل ذلك فى الألمانية : Sohn « ابن » فى مقابل : Tochter « ابنة » وكذلك Bruder « أخ » فى مقابل : Schweser « أخت » .. وهكذا .

غير أن هناك أشياء لاصلة لها بالجنس الحقيقى على وجه الإطلاق ، مثل الجمادات كالحجر والجبل ، والمعانى كالعدل والكرم ، وغير ذلك ؛ فمثل هذه الأمور لايلحظ فيها تذكير ولا تأنيث ، بالمدلول الحقيقى الطبيعى لهاتين الكلمتين . وكان ذلك – فيما يبدو – هو السبب الذى جعل بعض اللغات تقسم الأسماء الموجودة فيها إلى ثلاثة أقسام : مذكر ومؤنث ، وقسم ثالث هومايسمى فى اللغات الهندوأوربية بالمحايد (Neuter) ، وهو فى الأصل ماليس مذكرا ولا مؤنثا .

ولكن اللغات البشرية ، لم تسر كلها هذا الشوط على نمط واحد ؛ فقد وزعت اللغات السامية مثلا ، أسماء القسم الثالث ، وهو المحايد ، على القسمين الآخرين ، وصارت الأسماء فيها إما مذكرة وإما مؤنثة . ويقول المستشرق « رايت » W. Wright : « اعتبر خيال الساميين النشيط كل الأشياء – حتى تلك التى لاحياة فيها – ذات حياة وشخصية [٢] » .

---

(١) انظر : الأشباه والنظائر للسيوطى ١/٣١

(٢) Lectures on the Comparative Grammar 131 .

ومثل ذلك حدث فى اللغة الفرنسية ؛ إذ ليس فى أسمائها إلا التذكير والتأنيث ، « وكانت الإنجليزية فى ذلك أوغل من الفرنسية ، فقد كانت الإنجليزية القديمة ، تميز فى الأداة ثلاث صيغ مختلفة للأجناس الثلاثة المختلفة : sé و thaet , seo ، بل كانت تحتوى على تصريف كامل للأداة ، فيه أربع حالات مختلفة لكل فرع من فروع العدد ، ولكنها ما لبثت أن بسطت هذا التصريف إذ إنها قالت أولا فى حالة الرفع بتأثير القياس : theo, thé theat ، ثم جمعت بين المذكر والمؤنث فى صيغة واحدة thé ، وأخيرا أسقطت المبهم (ويقصد به المحايد) ، فلم يبق لها فى المفرد إلا صيغة واحدة ، وفضلا عن ذلك كانت هذه الصيغة هى صيغة الجمع . ولما فقدت الأداة تصرفها ، حرمت اللغة من التعبير عن الجنس ؛ لأن الصفة من جهتها صارت مجردة من التصريف[١] » .

وقد فطن بعض العلماء إلى أن التذكير والتأنيث فى اللغة من خصائص الحيوان وأن إطلاقه على غير ذلك يكون على سبيل المجاز ؛ فقال ابن رشد : « والتذكير والتأنيث فى المعانى إنما يوجد فى الحيوان ، ثم قد يتجوز فى ذلك فى بعض الألسنة ، فيعبر عن بعض الموجودات بالألفاظ ، التى أشكالها أشكال مؤنثة ، وعن بعضها بالتى أشكالها أشكال مذكرة . وفى بعض الألسنة ليس يلفى فيه للمذكر والمؤنث شكل خاص ، كمثل ما حكى أنه يوجد فى لسان الفرس ، وقد يوجد فى بعض الألسنة أسماء هى وسط بين المذكر والمؤنث ، على ماحكى أنه يوجد كذلك فى اليونانية[٢] » .

---

(١) انظر : اللغة لفندريس ١٣٠

(٢) تلخيص الخطابة ٥٦٩

وقد أهملت بعض اللغات ناحية التذكير والتأنيث تماما ، وقسمت الأسماء فيها إلى أسماء أحياء وأسماء جمادات ، « ومثل ذلك مجموعة البانتو فى جنوب أفريقيا ؛ ففى هذه اللغات يراعى المتكلّم فى صيغ الأسماء التفرقة بين الحى والجماد[١] » . وكذلك « لغة الألجونكين algonquin تميز بين جنس حى وجنس غير حىّ [٢] » . ويقول بروكلمان : « وفى اللغات البدائية ، ليس هناك نوعان فحسب من الجنس ، كما فى اللغات السامية ولا ثلاثة أنواع كما فى اللغات الهندوأوربية ، بل فيها غالبا أنواع كثيرة ، يفترق بعضها عن بعض نحويا ، وتتوزع فيها كل أشياء العالم المحسوس . ويرجع هذا التوزيع فى الأساس ، إلى تأملات لاهوتية ، أو بتعبير أحسن تأملات خرافية ، على قدر مايبدو للرجل البدائى ، أن العالم كله من الأحياء[٣] » .

وهذه التأملات الخرافية ، التى يتحدث عنها بروكلمان ، توجد كذلك فى اللغات التى قسمت الأسماء فيها إلى مذكر ومؤنث ؛ إذ إننا لانجد فى كثير من الأحيان صلة عقلية منطقية ، بين الاسم ومايدل عليه من تذكير أو تأنيث . والدليل على فقدان هذه الصلة العقلية ، أن من اللغات مايعدّ بعض الكلمات مؤنثا ، وهى مذكرة فى لغات أخرى ، والعكس بالعكس ؛ فمثلا تعدّ اللغة العربية : « الخمر » و « السِّنّ » و « السُّوق » كلمات مؤنثة ، فى حين تعدّها اللغة الألمانية مذكرة ، فهى فيها كما يلى : der Wein der Markt, der Zahn, . كما تعد اللغة العربية أيضا : « الصدر » و « الأنف »

---

(١) من أسرار اللغة ٩١

(٢) اللغة لفندريس ١٣١

(٣) فقه اللغات السامية ٩٥

و « اللسان » كلمات مذكرة ، وهى على العكس من ذلك مؤنثة فى الألمانية ؛ فهى فيها : die Zunge, die Nase, die Brust .

وحتى تلك اللغات التى تفرق بين المذكر والمؤنث والمحايد ، كالألمانية ، نلحظ فيها هى الأخرى ، فقدان هذه الصلة العقلية المنطقية ؛ فالحَجَر der Stein والمطر der Regen مذكران فى الألمانية ، مع أنه لاأثر فيهما للتذكير الحقيقى ، وكان أولى بهما أن يكونا فى قسم المحايد . وكذلك العالم die Welt والباب die Tür مؤنثان فى الألمانية ، ولا نرى فيهما أثرا من آثار التأنيث الحقيقى .

وقد ترتب على فقدان هذه الصلة العقلية بين الاسم ومدلوله الجنسى ، أن يهتز هذا المدلول فى أذهان أصحاب اللغة أنفسهم ، فهناك من يظن أن كلمة : « مستشفى » مثلا مؤنثة ، مع أنها مذكرة ، ويظهر أن تأنيثها قد جاء قياسا على الكلمة الأخرى : « اسبيتالية » المستعارة من اللغات الأوربية . وكذلك كلمة « السِّلْم » يظن كثير من الناس أنها مذكرة ، وهى مؤنثة ، كما جاء فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : ﴿ وإن جَنَحُوا للسَّلْم فاجنح لها ﴾ (الأنفال ٨/٦١) .

وهذا هو السر فى أن كثيرا من الكلمات التى تسمى بالمؤنثات السماعية فى اللغة العربية – وهى التى تخلو من علامات التأنيث – قد روى لنا فيها التذكير كذلك . وينسب ذلك فى بعض الأحيان ، إلى مختلف القبائل العربية ، نحو قول أبى زيد : « أهل تهامة يقولون : العُضُد والعُضْد ، والعُجُز والعُجْز ، ويؤنثونهما . وتميم تقول : العَجُز والعَضُد ويذكرون [1] » .

---

(١) انظر : الغريب المصنف ٢/٣٦١

وفى اللغات السامية علامات خاصة للتأنيث ، فيما عدا الحالات التى تكلمنا عنها من قبل ، وهى التى يعبر فيها عن المؤنث بكلمة تختلف فى الأصل ، عن تلك الكلمة التى يعبر بها عن مذكره . وهذه العلامات هى : التاء ، والألف الممدودة ، والألف المقصورة .

أما العلامة الأولى وهى التاء ، فهى أهم العلامات وأكثرها انتشاراً فى اللغات السامية . ويرى بروكلمان أنها « ربما كانت فى الأصل عنصرا من عناصر الإشارة [1] » .

وهذه التاء يفتح ماقبلها دائما ؛ مثل : كبيرة وصغيرة ، ولحية ، ورَقَبة ، إلا فى الكلمات ذات المقطع الواحد عند الوقف ، فيأتى ماقبلها ساكنا ، فى مثل : « بنت » مؤنث « ابن » ، و « أخت » مؤنث « أخ » فى اللغة العربية . وكذلك ርስት rest « ميراث » ሀብት habt « هِبة » فى اللغة الحبشية . وكذلك : šartu « شَعْر » bēltu « زوجة / سيدة / بَعْلة » فى اللغة الأكادية .

ويرى النحاة العرب أن هذه التاء الساكن ماقبلها ، ليست للتأنيث ؛ يقول ابن جنى مثلا : « أخت وبنت وليست التاء فيهما بعلامة تأنيث ، كما يظن من لاخبرة له بهذا الشأن ، لسكون ماقبلها . هكذا مذهب سيبويه وهو الصحيح ، وقد نص عليه فى باب مالا ينصرف ... على أن سيبويه قد تسمّح فى بعض ألفاظه فى الكتاب فقال : هما علامتا تأنيث ، وإنما ذلك تجوّز منه فى اللفظ[2] » .

---

(١) Brockelmann, Grundriss I 405 .

(٢) سر صناعة الإعراب ١/١٦٥ وانظر كذلك : كتاب سيبويه ٢/١٣ ؛ ٢/٨٢ ؛ ٢/٣٤٨ والخصائص ١/٢٠٠ والاقتراح ٨٢ وابن يعيش ١٠/٣٩

وهذه الفكرة الخاطئة هى إحدى نتائج الجهل باللغات السامية ؛ يقول فى ذلك برجشتراسر : « وذكر الزمخشرى أن التاء فى الأخت والبنت أبدلت من الواو ، وذلك أنه ظن أن مادتهما : أخو وبنو ، وأن التاء أصلية لام الفعل قامت مقام الواو . ونحن نعرف أن الأخ والابن من الأسماء القديمة جدا ، التى مادتها مركبة من حرفين فقط ، لا من ثلاثة أحرف ، وأن التاء وإن لم تسبقها فتحة هى تاء التأنيث ، فهى فى غير اللغة العربية ، وخصوصا فى الأكادية والعبرية ، كثيرا مالا فتحة قبلها(١) » .

وقد بقيت تاء التأنيث ، كما هى فى الآشورية والحبشية ، فى حالتى الوصل والوقف . أما فى اللغة العربية ، فإنها تقلب هاء فى حالة الوقف ؛ فيقال عند الوقف : كبيره ، وصغيره ، ولحيه ، وبقره .

ونحن عندما نقول : إن التاء تقلب هاء ، إنما ننظر إلى النتيجة النهائية ، لا إلى التطور الصوتى ؛ فإنه ليس ثمة علاقة صوتية بين التاء والهاء ، وإنما تطور المسألة أن التاء سقطت حين الوقف على المؤنث ، فبقى المقطع السابق عليها مفتوحا ذا حركة قصيرة . وهذا النوع من المقاطع ، تكرهه العربية فى أواخر الكلمات ، فتتجنبه بإغلاق المقطع عن طريق امتداد النفس بهاء السكت . وهكذا يبدو الأمر كما لو أن تاء التأنيث قد قلبت هاء ، على أن الحقيقة هى أن التاء قد سقطت لعلة ، وأن الهاء قد جاءت لعلة أخرى .! فليس بينهما تبادل صوتى ، كما ترى ! .

ولأن هذه التاء تقلب هاء فى الوقف – كما ذكرنا – رسمت فى الإملاء العربى على صورة الهاء ؛ فإن كل كلمة تكتب فى الخط العربى ، كما ينطق بها

---

(١) التطور النحوى ٥١

فى الابتداء والوقف[١] ؛ يقول الإمام السيوطى : « الأصل رسم اللفظ ، أى كتابته بحروف هجائية ، يلفظ بها مع تقدير الابتداء به والوقف عليه [٢] » .

وقد انتقلت صيغة الوقف هذه إلى الكلام المتصل كذلك فى كل من الآرامية والعبرية واللهجات العربية الحديثة ، ثم تطورات الهاء فى الآرامية والعبرية إلى ألف المدّ[٣] ؛ فيقال فى الآرامية : ܒܝܫܐ bīšā « رديئة » . وفى العبرية יַלְדָּה yaldā « بنت » . وفى اللهجات العربية الحديث : šagara kbīra « شجرة كبيرة » .

وقد انتقلت حالة الوقف إلى الوصل كذلك فى بعض اللهجات العربية القديمة ؛ فقد روى لنا الفراء أن الوقف على هاء التأنيث فى الوصل لغة

---

(١) شذ على هذه القاعدة بعض كلمات الخط الذى كتب به المصحف العثمانى ؛ مثل كلمة : يبنوم = ياابن أم ، وكذلك بعض الكلمات المؤنثة ؛ إذ كتبت بالتاء المفتوحة فى بعض التراكيب الإضافية ، وبالهاء = التاء المربوطة فى بعضها الآخر ؛ مثل : « رحمة » التى كتبت : « رحمت » فى : البقرة ٢١٨/٢ والأعراف ٥٦/٧ وهود ٧٣/١١ ومريم ٢/١٩ والروم ٥٠/٣٠ والزخرف ٣٢/٤٣ وكذلك : « نعمة » التى وردت فى عشرة مواضع من القرآن بالتاء المفتوحة (نعمت) فى تراكيب إضافية ، كما أن : امرأة ، ومعصية ، وغيابة ، ومرضاة ، وفطرة ، وابنة ، وبقية ، قد وردت فى جميع تراكيبها الإضافية فى القرآن بالتاء المفتوحة . أما الكلمات : سنة ، وكلمة ، ولعنة ، وشجرة ، وقرة وجنة ، فقد وردت فى القرآن بالتاء المفتوحة فى بعض التراكيب الإضافية ، وبالهاء فى بعضها الآخر .

(٢) فى رسالته « علم الخط » ضمن كتاب : التحفة البهية والطرفة الشهية ٥٤ كما يقول السيوطى أيضا فى الإتقان ١٦٦/٢ : « القاعدة العربية أن اللفظ يكتب بحروف هجائية مع مراعاة الابتداء به والوقف عليه » . ويقول ابن الحاجب (شرح الشافية ٣١٥/٣) : « والأصل فى كل كلمة أن تكتب بصورة لفظها ، بتقدير الابتداء بها والوقف عليها » .

(٣) هذا كما يرى بروكلمان (Grundriss I 409) . ويشك « موسكاتى » S. Moscati فى صحة هذا الرأى ؛ انظر كتابه : An introduction 85 .

فيقولون : « هذه طلحهْ قد أقبلت » وأنشد على هذه اللغة قول الراجز :

لما رأى أن لا دَعَهْ ولا شِبَعْ

مال إلى أرطاة حقف فاضطجعْ(١)

والدليل على أصالة التاء فى هذه اللغات كلها ، أنها تعود للظهور مرة أخرى عند الاتصال بمضاف إليه ؛ فالتراكيب الإضافية تحتفظ بالعناصر اللغوية القديمة ، أو كما يقول اللغويون العرب : الإضافة ترد الأشياء إلى أصولها . مثال ذلك فى العبرية : יַלְדַּת מֹשֶׁה yaldat Mōšē « بنت موسى » وفى الآرامية : ܡܲܠܟܬ݂ܗܘܿܢ malkathōn «مَلِكَتُهم » وفى العربية الحديثة : « شجرة التوت » و « جنية البحر » .

وقد بقيت تاء التأنيث فى الآرامية كذلك ، قبل أداة التعريف التى تلحق آخر الاسم ؛ لأنها لم تتطرف فتسقط ؛ وذلك مثل : ܫܲܦܝܼܪܬܼܵܐ šappīrtā بمعنى : « الجميلة » .

وما ذكرناه من أن الأصل فى هذه العلامة هو التاء ، وأنها تقلب هاء فى حالة الوقف ، هو رأى البصريين . أما الكوفيون فيرون أن الهاء هى الأصل ؛ يقول سيبويه ، وهو رأس مدرسة البصرة : « وأما الهاء فتكون بدلا من التاء التى يؤنث بها الاسم ، فى الوقف ، كقولك : « هذه طلحة (٢) » .

كما يقول المبرد ، وهو بصرى كذلك : « وأما الهاء فتبدل من التاء الداخلة للتأنيث ؛ نحو : نخلة وتمرة . إنما الأصل التاء ، والهاء بدل منها فى الوقف(٣) » .

---

(١) معانى القرآن للفراء ٣٨٨/١

(٢) كتاب سيبويه ٣١٣/٢

(٣) المقتضب ٦٣/١

ويقول الشيخ بهاء الدين بن النحاس فى التعليقة على المقرب : « أجمع النحاة على أن مافيه تاء التأنيث ، يكون فى الوصل تاء وفى الوقف هاء ، على اللغة الفصحى . واختلفوا أيهما بدل من الأخرى ؛ فذهب البصريون إلى أن التاء هى الأصل ، وأن الهاء بدل عنها . وذهب الكوفيون إلى عكس ذلك . واستدل البصريون بأن بعض العرب يقول التاء فى الوصل والوقف ، كقوله :

اللهُ نجّاك بكفَّىْ مَسْلَمَتْ

ولا كذلك الهاء ، فعلمنا أن التاء هى الأصل ، وأن الهاء بدل عنها ، وبأن لنا موضعا ، قد ثبْتت فيه التاء للتأنيث بالإجماع ، وهو فى الفعل ، نحو : « قامت » و « قعدت » ، وليس لنا موضع قد ثبتت الهاء فيه ، فالمصير إلى أن التاء هى الأصل أولى ، لما يؤدى قولهم من تكثير الأصول . واستدلوا أيضا بأن التأنيث فى الوصل الذى ليس بمحل التغيير (بالتاء) ، والهاء إنما جاءت فى الوقف ، الذى هو محل التغيير ، فالمصير إلى أن ماجاء فى محل التغيير هو البدل ، أولى من المصير إلى أن البدل ماليس فى محل التغيير[1] » .

والأصل فى دخول التاء على الأسماء فى اللغة العربية ، إنما هو تمييز المؤنث من المذكر . وقد ذكر الأشمونى حالات أخرى ، تدخل فيها التاء على الأسماء لغير التأنيث . ومن هذه الحالات :

---

(١) انظر : الأشباه والنظائر للسيوطى ٤٦/١ كما يقول ابن جنى (المنصف ١٥٩/١) : « ولمعترض أن يقول : ماتنكر أن تكون الهاء هى الأصل ، وأن التاء فى الوصل إنما هى بدل من الهاء فى الوقف ؟ فالجواب عن ذلك أن الوصل من المواضع التى تجرى فيها الأشياء على أصولها ، وأن الوقف من مواضع التغيير والبدل » .

وانظر كذلك : المنصف ١٦١/١ وشرح ابن يعيش ٨٩/٥ وشرح الشافية ٢٨٨/٢

١ – تمييز الواحد من الجنس ؛ نحو : تمر وتمرة ، ونخل ونخلة .

٢ – المبالغة ؛ نحو راوية .

٣ – تأكيد المبالغة ؛ نحو : علّامة ، ونسّابة .

٤ – معاقبة ياء مفاعيل ؛ نحو : زنادقة . فإذا جيء بالياء لم يؤت بالتاء فيقال : زناديق .

٥ – الدلالة على النسب ؛ نحو : أزرق وأزارقة .

٦ – الدلالة على تعريب الأسماء المعجمة ؛ نحو : كيلجة وكيالجة ، وهو مقدار معروف من الكيل .

٧ – تكثير حروف الكلمة ؛ نحو : قرية وبلدة .

٨ – التعويض عن فاء الكلمة أو عينها أولامها ؛ نحو : عِدَة ، وإقامة ، وسَنَة .

٩ – التعويض عن مدة تفعيل ؛ نحو تزكية وتنمية .

أما العلامة الثانية ، وهى الألف الممدودة ، فتوجد فى اللغة العربية على الأخص فى صيغة « فَعلاء » مؤنث : « أفعل » الدال على الألوان والعيوب الجسمية ؛ وذلك مثل : « حمراء » مؤنث : « أحمر » ، و« عرجاء » مؤنث : « أعرج » . ويرى بروكلمان (٢) أن هذه الألف تطابق فى اللغة العبرية ، الضمة الطويلة الممالة (ō) فى كلمة : שִׁילֹה šīlō = اسم مكان .

وأما العلامة الثالثة للتأنيث ، وهى الألف المقصورة ، فتوجد فى اللغة العربية على الأخص ، فى صيغة : « فُعْلَى » مؤنث : « أفعل » الدال على

---

(١) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ٩٧/٤

(٢) Brockelmann, Grundriss I 410 .

التفضيل ؛ مثل : « كبرى » مؤنث : « أكبر » . وهى تقابل فى اللغة العبريـــة : ay (ـַـי) فى مثـــــل : שָׂרַי sāray إلى جانب : שָׂרָה sārā « سارة » ، كما تقابل فى الآرامية : ܛܘܥܝܝ tuʿyay « ضلالة »(١) .

وقد تطورت (ay) هذه فى بعض كلمات العبرية والآرامية القديمة إلى : (ē) ؛ مثال ذلك فى العبرية : עֶשְׂרֵה ʿesrē « عشرة » (وهى العشرة المركبة مع الأحاد) . ومثاله فى الآراميـة القـديمة : אָחֳרֵי ʾoḥŏrē « أخرى »(٢) .

وهاتان العلامتان الثانية والثالثة من علامات التأنيث ، قد زالتا تقريبا من بعض اللهجات العربية الحديثة ، وحلت محلهما تاء التأنيث ؛ فنحن نقول فى : حمراء وبيضاء وصحراء وعمياء وميناء : حمره وبيضه وصحره وعميه ومينه ، وكما نقول فى : حُبلى وسَلمى وخُبَّازَى وعُدْوى وفَتْوى : حِبْله وسَلْمَه وخُبِّيزه وعَدْوَه وفَتْوَه .

وقد حدث مثل ذلك فى لهجة الأندلس العربية ، فى القرن الرابع الهجرى ؛ فقد ذكر أبو بكر الزبيدى فى كتابه : « لحن العوام » أن الأندلسين كانوا يقولون فى عصره : مِينَه وحَلْوَه ودِفلَه وحُبَارَه ، فى : ميناء وحلواء ودِفْلَى وحُبارى .

والسر فى زوال هاتين العلامتين ، وحلول العلامة الأولى ، وهى التاء ، محلهما ، هو ميل اللغة إلى أن تسير فى طريق السهولة والتيسير ؛ فبدلا من أن

---

(١) Brockelmann, Grundriss I 410 .

(٢) انظر كذلك : التطور النحوى لبرجشتراسر ١١٥

يكون للتأنيث ثلاث علامات ، تصبح فى اللغة علامة واحدة لكل أنواع المؤنث . ونلحظ مثل هذا فى لغة الطفل ، الذى يميل إلى أن يؤنث المؤنث بالتاء وحدها ؛ لأنها هى العلامة الكثيرة الشيوع فى لغة الكبار من حوله ، فنراه يقول مثلا : « قلم أحمر وكراسه أحمره » . وهو يحتاج إلى بعض الوقت ، حتى يدرك أن هناك صيغا أخرى للتأنيث .

ويرى بعض الباحثين المحدثين ، أن الألف المقصورة والممدودة فى العربية ، تطور عن تاء التأنيث فى السامية الأولى . والسبب فى هذا مارآه من تطور هذه التاء فى العبرية والآرامية إلى ألف المد .

والحقيقة أن وجود « الياء » فيما تبقى من أمثلة الألف المقصورة فى العبرية والآرامية (التى عرضناها من قبل) يجعلنا نرى سلفا آخر للألف المقصورة ، غير تاء التأنيث ، هو « الياء » . أى أننا نتصور أصل كلمة : « حُبْلَى » مثلا ، على النحو التالى :

حُبْلَيُ ← حُبْلَيْ ← حُبْلِيَ ← حُبْلَىٰ

وهذا يعنى أن أصل هذه الألف :

ā <ē <ay <ayu

على العكس من تاء التأنيث التى تطورت فى العبرية والآرامية على النحو التالى :

ā <ah <at

فمثلا كلمة : « مَلِكة » سارت فى العبرية والآرامية على النحو التالى :

العبرية : מַלְכַּת ← מַלְכַּה ← מַלְכָּה

الآرامية : ܡܰܠܟܰܬ ← ܡܰܠܟܰܗ ← ܡܰܠܟܳܐ

غير أن الفرق بين اللغتين أن العبرية ، كتب خطها فى أثناء المرحلة الوسطى ، التى كانت تنطق فيها الهاء ، على العكس من الآرامية ؛ فقد كتب خطها فى أثناء المرحلة الأخيرة ، وكانت الهاء قد سقطت فيها من النطق .

ومانراه فى بعض نصوص المعاجم العربية ، من ورود مثل : « خُنْفُسة » و « خُنْفُسا » و « خُنْفُساء [1] » ، لا يصح أن يكون ركاما لغويا ، لظاهرة تطور تاء التأنيث إلى الألف المقصورة ، كما قد يظن . بل هو على العكس ، بداية لمرحلة جديدة من اندثار ألف التأنيث المقصورة والممدودة ، وحلول التاء محلهما ، وهى تلك المرحلة التى انتهت بمثل مافى كثير من اللهجات العربية المعاصرة ، من ضياع هاتين العلامتين – كما شرحنا ذلك من قبل . أى أن التطور سار فى هذه الكلمة قديما على النحو التالى : خنفساء ← خنفسا ← خنفسة ، كما حدث بعد ذلك فى مثل : صحراء ← صحرا ← صحرة .. وغير ذلك .

وفى اللغة العربية ، تستغنى عن علامة التأنيث مطلقا ، تلك الصيغ التى تعبّر عن الأحوال الخاصة بالمؤنث ، والناتجة عن خصائص ذلك الجنس ؛ مثل : حائض وعاقر وحامل وناهد ومُعْصِر وكاعب وعانِس وناشِز .

وتحتوى اللغات السامية فيما عدا ذلك على الكثير من الكلمات المؤنثة بلا علامة تأنيث ، وهو مايسمى بالمؤنثات السماعية ؛ مثل : عين وأذن وعَضُد وكتف وذراع وقدم وكفّ وظفر وجناح وكَبِد وضِلَع وعَقِب ودَلو وسوق وأرنب ونعل وضَبُع . وغير ذلك كثير فى العربية [2] .

---

(١) انظر : القاموس المحيط (خنفس) ٢/٢١٢

(٢) حكى فى بعض هذه الأمثلة التذكير كذلك . انظرها مع أمثلة أخرى فى كتاب : « الإمتاع فيما يتوقف تأنيثه على السماع » .

وتميل اللغة الآشورية إلى إدخال تاء التأنيث على هذه المؤنثات السماعية كذلك ؛ فمثلا كلمة : « نفس » مؤنثة بلا علامة فى العربية ، وكذلك فى الجبشية : ነፍስ nafs والعبرية : נֶפֶשׁ néfeš والآرامية ܢܦܫܐ nafšā . أما الآشورية ففيها : napištu . وكذلك كلمة : « أرض » فى العربية ، فهى فى العبرية : אֶרֶץ ʾéreṣ والآرامية ܐܪܥܐ ʾarʿā. أما فى الآشورية فهى : ʾirṣitu بتاء التأنيث[١] .

وقد حدث فى بعض اللهجات العربية القديمة ، مثل ذلك فى بعض الكلمات ؛ يقول الفراء : « والحال أنثى ، وأهل الحجاز يذكرونها ، وربما أدخلوا فيها الهاء[٢] » . ويسمى ابن خالويه ذلك تأكيد المؤنث ؛ فيقول : « العرب تقول فى تأكيد المؤنث ، وإن لم يحسُّوا لَبْسًا : عَجُوزة وأتانة[٣] » .

ومثل ذلك حدث فى العامية المصرية ، مع بعض المؤنثات السماعية ؛ إذ يدخل عليها المصريون تاء التأنيث ؛ فيقولون فى . خمر وسِكّين وعقرب وكبِد وقِدْر مثلا : خمرة وسكينة وعقربة وكبدة وقدرة . كما فقدت بعض المؤنثات السماعية فكرة التأنيث فى أذهان المصريين ، وأصبحت تستخدم استخدام المذكر ؛ مثل : ذراع وقدم وإصبع وظفر وسوق وضبع وأرنب . ولم يبق إلا القليل من هذه المؤنثات السماعية القديمة ، الذى لايزال يرتبط فى أذهاننا بفكرة التأنيث ، مثل : رِجْل ويد وعين ونفس ، وغير ذلك .

★ ★ ★

---

(١) انظر : فقه اللغات السامية لبروكلمان ٩٥

(٢) المذكر والمؤنث للفراء ٩٣

(٣) إعراب ثلاثين سورة ٤٤

الفصل السادس

إسناد الماضى إلى الضمائر

ليست اللواحق التى تتصل بالفعل الماضى ، فى اللغات السامية ، للدلالة على جنس الفاعل وعدده ، إلا بعض عناصر ضمائر الرفع المنفصلة فى هذِه اللغات ، مع بعض التغييرات الطفيفة ، التى تلحق شيئا منها فى بعض الأحيان .

وانظر مثلا إلى لاحقة المخاطب المفرد (tā) فى مثل : « كتبتَ » ؛ فإنك لن تجدها إلا جزءا من ضمير الرفع المنفصل : « أنتَ » بعدتقصير حركة التاء فى العربية . وكذلك الحال فى لاحقة المخاطبين (tumū) فى مثل : «كتبتم » ؛ فإنها ليست إلا جزءا من الضمير المنفصل : « أنتم » .

وعلى هذا النحو يتصرف الفعل الماضى ، فى اللغات السامية ، مع الضمائر المختلفة . وفيما يلى تفصيل القول فى ذلك :

(١) الغائب المفرد المذكر

فى اللغات السامية الجنوبية ، تنتهى الأفعال الماضية بالفتحة القصيرة (a) : « كَتَبَ » فى العربية ، وكذلك : ቀተለ ḳatala فى الحبشية . حتى اللهجات الحبشية المعاصرة ، ومن بينها الأمهارية ، لاتزال تحتفظ بهذه الفتحة القصيرة ، وإن تطورت فى بعضها إلى كسرة ممالة[1] . ولا نستطيع فى العربية

---

(١) انظر : Brockelmann, Grundriss I 570 .

الجنوبية (السبئية والمعينية) التأكد من وجود هذه الفتحة ؛ لأن خطها المُسْند ، لايظهر به سوى رموز الأصوات الصامتة[1] .

وإننا نفترض أصالة هذه الفتحة القصيرة ، فى السامية الأم ، وقد بقيت حية فى القسم الجنوبى ، من اللغات السامية ، وفقدت من اللغات السامية الشمالية ، كالعبرية فى مثل : קָטַל kāṭal والآرامية فى مثل : ܩܛܰܠ kṭal كما فقدت بعد ذلك من اللهجات العربية الحديثة .

وسقوط هذه الفتحة القصيرة ، من تلك اللغات ، مرتبط بسقوط الحركات القصيرة ، من أواخر كلمات هذه اللغات ، ومن بينها حركات الإعراب . والسبب الرئيسى فى هذه الظاهرة ، فيما يبدو ، هو شيوع الوقف بالسكون على أواخر الكلمات فى اللغات السامية ، كما هو معروف لنا فى العربية الفصحى ، فى غالب الأحوال . ومن المعروف فى التطور اللغوى ، أن الظاهرة اللغوية ، إذا كان لها وجهان ، كان الاحتمال قائما فى غلبة أحد الوجهين على الآخر ، وهذا هو ماحدث هنا ؛ فقد تغلبت حالة الوقف على حالة الوصل ، فساد تسكين الأواخر وصلا ووقفا . وهو ماعبر عنه نحاة العربية بقولهم : « إجراء الوصل مجرى الوقف »[2] .

والدليل على أصالة هذه الفتحة القصيرة ، فى آخر الماضى المسند للغائب المفرد ، أنّا نراها مرة أخرى ، فى اللغات السامية الشمالية ، قبل اتصال الفعل ببعض ضمائر النصب ؛ ذلك لأن تلك الفتحة القصيرة ، لن

---

(١) انظر : M. Höfner, Altsüdarabische Grammatik 67 .

(٢) انظر : المفصل للزمخشرى ٣٤٢ والمنصف لابن جنى ١/١٠ وإعراب القرآن المنسوب للزجاج ٣/٨٤١

تكون فى هذه الحالة فى آخر الكلمة ، بل فى وسطها . والعناصر اللغوية القديمة ، كثيرا ماتظهر عند اتصال الأفعال بضمائر النصب ؛ مثال ذلك فى العبرية : שְׁלָחַנִי šlāḥánī « أرسلنى »(١) . ومثال ذلك أيضا : עֲזָרַנִי ʿăzāránī « أعاننى(٢) » . وكذلك : עֲזָרָנוּ ʿăzārānū « أعاننا(٣) » .

ولايصح أن يقال إن هذه الفتحة الظاهرة فى الأمثلة السابقة ، تعدّ من مكونات ضمير النصب المتصل بها ؛ لأن هذه الفتحة لانراها قبل ضمير النصب ، حين يتصل ذلك الضمير ، بالأفعال المسندة لغير الغائب المفرد ؛ وذلك مثل : יְלָדַתְנִי ylāḏatnī « ولدتنى(٤) » ، ومثل : גְּמָלַתְהוּ gmālaṯhū « رَحِمَتْه(٥) » . وإن ورود مثل : גְּמָלַתּוּ gmālattū فى بعض نصوص العهد القديم(٦) ، بإدغام التاء فى هاء الضمير (הוּ) ، لدليل على أن هذه الفتحة القصيرة ، ليست من مكونات ضمير النصب ، كما يدل هذا بوضوح على أصالة تلك الحركة ، فى الدلالة على الغائب المذكر فى الفعل الماضى فى اللغات السامية .

ومثل ذلك حادث فى الآرامية ؛ إذ تظهر فيها الفتحة القصيرة فى الأفعال المسندة إلى الغائب المذكر ، قبل ضمائر النصب ؛ وذلك مثل :

---

(١) انظر : Nöldeke, Untersuchungen, ZDMG 38, 408 .

(٢) سفر المزامير ١١٨/١٣

(٣) سفر صمويل الأول ٧/١٢

(٤) سفر إرميا ٢٠/٤

(٥) سفر الأمثال ٣١/١٢

(٦) انظر مثلا : سفر صمويل الأول ١/٢٤

ܩܛܠܢ katlan « قَتَلَنِى » ، ومثل : ܩܛܠܢ kaṭlan « قَتَلْنَا » ، وإن عممت هذه الفتحة ، مع تلك الضمائر فى الآرامية ، فى غير الفعل المسند إلى الغائب المذكر ، بطريق القياس ، فيقال فيها مثلا : ܩܛܠܬܢ ktaltan « قَتَلْتَنِى[1] » .

(٢) الغائبة المفردة المؤنثة

عند إسناد الماضى إلى الغائبة المؤنثة ، يفتح آخره وتلحق به تاء ساكنة ، فتصير نهايته : (at) . وهذه النهاية موجودة فى العربية ؛ مثل : « قتلَتْ ، والحبشية مثل : ቀተለተ katalat والآرامية مثل : ܩܛܠܬ ketlat . وتلحق بصيغ اللغة الأخيرة أحيانا ياء ؛ مثل : ܩܛܠܬܝ وهى ليست ياء أثرية ، كانت تنطق يوماً ما ، وإنما هى علامة بصرية ، وضعت فى وقت متأخر ، قياسا على حالة المخاطبة ، التى نتحدث عنها فيما يلى .

وقد ضاعت حركة عين الفعل فى الآرامية ، بسبب النبر ونظام المقاطع فيها ، كما حدث فى العامية المصرية ، فى مثل قولنا : « فلانة وِلْدِتْ » و « الفراولة طِلْعِتْ » .

أما اللغة العبرية ، فقد تحولت فيها تاء الغائبة هاء ، كما تحولت تاء التأنيث فى الاسم هاء[2] ، ثم ضاعت هذه الهاء فى النطق ، وأطيلت الفتحة السابقة عليها تعويضا ، فصارت الكلمة مثلا : קָטְלָה kātlā « قَتَلَتْ[3] » . فهذه الهاء أثرية ، كتبت حين كان العبريون ينطقون تاء الغائبة هاء .

---

(١) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik 144 .

(٢) انظر ماسبق هنا فى فصل : « التذكير والتأنيث » .

(٣) وانظر أيضا : W. Wright, Lectures 167 .

والدليل على أن الأصل فى صيغة الغائبة المؤنثة فى العبرية ، هو النهاية : (at) مابقى منها فى عبرية العهد القديم[١] ؛ من مثل : אָזְלַת āzlat'[٢] « مَضَتْ / اختفت » ، كما يدل على ذلك أيضا ، ظهور هذه التاء ، عند اتصال هذه الصيغة بضمائر النصب ؛ مثل : קְטָלַתְנִי ktālatnī « قتلَتْنِى » ؛ קְטָלַתְךָ ktālatkā « قتلَتْكَ » .

(٣) جمع الغائبين

عند إسناد الماضى إلى جمع الغائبين ، تلحقه ضمة طويلة (ū) ؛ فيقال فى العربية مثلا : « قتلوا » وفى الحبشية : ቀተሉ katalū وفى العبرية : קָטְלוּ kātlū .

وقد سقطت هذه الضمة الطويلة فى اللغة السريانية ، فى النطق ، وإن كان خط السريان ، يدل على أنهم كانوا ينطقون هذه الضمة الطويلة ، حين كتبوا هذا الخط ؛ لأنهم رمزوالها بالواو ؛ مثل : ܩܛܠܘ ktal وإن وردت الكلمة فى بعض مخطوطاتهم ، بدون الواو كذلك[٣] .

والسريانية يسود فيها على العموم ، سقوط الحركات من أواخر الكلمات ، يستوى فى هذا الطويل منها والقصير ، فيقال فيها مثلا : ܒܝܬܝ bayt بمعنى : « بيتى » ؛ فلا تنطق هنا الكسرة الطويلة ، رغم الرمز لها بالياء الأخيرة فى هذه الكلمة .

---

(١) انظر : Gesenius, Hebräische Grammatik 127 .
وكذلك : O'Leary, Comparative Grammar 242 .
وانظر أمثلة أخرى فى : W. Wright, Lectures 167 .
(٢) سفر التثنية ٣٢/٣٦
(٣) انظر : W. Wright, Lectures 168 .

وتعود هذه الضمة الطويلة مرة أخرى ، إلى الظهور فى نطق السريان ، قبل ضمائر النصب المتصلة ؛ مثل : ܩܛܠܘܗܝ katlūn « قَتَلُونى[١] » .

وفى بعض اللهجات الآرامية ، صيغة أخرى للفعل الماضى ، المسند إلى جمع الغائبين ، هى : ܩܛܠܘܢ ktalūn وهى صيغة حديثة نسبيا ، زيدت فيها النون على الصيغة القديمة : ܩܛܠܘ بدليل بقاء الفتحة القصيرة فيها ، وهى غير منبورة فى مقطع مفتوح ، وذلك أمر لم تكن تقبله القوانين الصوتية فى اللغة الآرامية .

وهذه الصيغة الحديثة ، مقيسة على صيغة الماضى لجمع المخاطبين : ܩܛܠܬܘܢ والضمير المنفصل لجمع الغائبين : ܗܢܘܢ « هم »[٢] . ومثل هذا تماما ، ماحدث فى اللهجات العامية العربية ، من مثل قولنا فى مصر مثلا : « جُمْ » و « كَلُمْ » و « شِرِبُمْ » بمعنى : جاءوا ، وأكلوا ، وشربوا ؛ فهذه الميم الأخيرة ، فى هذه الأمثلة ونحوها ، مقيسة بلاشك ، على صيغ الخطاب : جئتم ، وأكلتم ، وشربتم .

وهذا القياس حاصل فى العامية العربية من قديم ؛ فقد قال الزجاجى اللغوى (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) : « هاتوا يارجال . فأما قول العامة : هاتُمْ فخطأ ، ليس من كلام العرب[٣] » .

ومن هذا فى العبرية موضع فى سفر التثنية (٨/٣ وكرر فى ٨/١٦) فيه : יָדְעוּן yād ͑ ūn « عَرَفُوا[٤] » . وهذه الصيغة فى العبرية ،

---

(١) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik 144 .

(٢) انظر : Nöldeke, Untersuchungen, ZDMG 38, 410 .

(٣) اشتقاق أسماء الله للزجاجى ٢٨٠

(٤) وانظر أيضا : Gesenius, Hebräische Grammatik 128 .

يراها « يراجشتراسر[١] » صيغة مصنوعة ، مقيسة على صيغة المضارع المسند للغائبين فى الآرامية ، وإن كان « رايت[٢] » يراها صيغة أقدم من غيرها ، قياسا على نهاية جمع المذكر فى الأسماء : (ūna) .

أما تقصير الضمة الطويلة فى العربية ، فى مثل قول الشاعر :

فلو أنّ الأَطِبَّا كانُ حولى   وكان مع الأطباء الأُساةُ[٣]

وقول الآخر :

إذا ما شَاءُ ضَرُّوا مَن أرادوا   ولا يَأْلُو لهم أَحَدٌ ضِراراً[٤]

فهو من ضرورة الشعر ، وليس أمراً شائعا فى اللغة ، بدليل وروده جنبا إلى جنب ، مع تطويل الضمة فى البيت الثانى .

وأما تلك الألف التى تكتب بعد الواو فى العربية ، فى مثل : « قتلوا » و « كتبوا » ، فهى ليست رمزاً لصوت ما ، وإنما هى للتفرقة بين واو الجماعة ، وواو العطف ، فيما يرى الأخفش[٥] ؛ فمثلا : (حضر وتكلم زيد) « لولا كتابة الألف بعد واو الجمع ، لم يعلم أنه : حَضَرُوا تَكَلَّمَ زيد ؛ بضم الراء وسكون الواو ومدّه ، والواو للجمع ، أو : حَضَرَ وتَكَلَّمَ زيد ،

---

(١) Bergsträsser, Hebräische Grammatik 15 .

(٢) W. Wright, Lectures 168 .

(٣) البيت بلا نسبة فى خزانة الأدب ٢/٣٨٥ والعينى على هامش الخزانة ٤/٥٥١ والحيوان للجاحظ ٥/٢٩٧ وأسرار العربية ٣١٧ وإيضاح الوقف ١/٢٧٢ والأشباه والنظائر للسيوطى ٣/٢٨٠ ومعانى القرآن للفراء ١/٩١ ومجالس ثعلب ١/٨٨ والإنصاف لابن الأنبارى ٢٣٥ ؛ ٣١٤ ؛ ٤٤٨ وشرح شواهد الكشاف ٥٤ وشرح ابن يعيش ٧/٥ ؛ ٩/٨٠ والدرر اللوامع ١/٣٣

(٤) البيت بلانسبة فى مغنى اللبيب ٢/٥٥٢ والإنصاف ٢٣٥ ومعانى القرآن ١/٩١ وإيضاح الوقف ١/٢٧٣ وشرح شواهد المغنى ٣٠٣ والدرر اللوامع ١/٣٤

(٥) أدب الكتاب للصولى ٢٤٧ والأشباه والنظائر ٢/١٣٩ ومقدمتان فى علوم القرآن ١٦١

بفتح الراء وفتح الواو ، والواو للعطف . وإنما كتبت الواو فيما لايلتبس ؛ نحو : ضربوا ؛ إذ واو العطف لايتصل ، لاطراد الباب[١] » .

(٤) جمع الغائبات

الأصل فى إسناد الماضى إلى جمع الغائبات ، أن تلحق الفعل فتحة طويلة (ā) . وهذا الأصل بقى كما هو فى الحبشية ؛ إذ يقال فيها مثلا : ቀተለ ḳatalā = قَتَلْنَ .

أما السريانية ، فقد سقطت منها هذه الفتحة الطويلة ، كما سقطت كل الحركات من أواخر كلماتها ، طويلة كانت أم قصيرة ، فأصبح يقال فيها مثلا : ܩܛܠ ḳṭal = قَتَلْنَ ، غير أن هذه الفتحة الطويلة ، تعود إلى الظهور مرة أخرى ، عند اتصال الفعل بضمائر النصب ؛ مثل : ܩܛܠܳܢܝ ḳaṭlān « قَتَلْنَنِى » .

وقد حدث فى وقت متأخر نسبيا ، أن قيست فى السريانية ، صيغة جمع الغائبات على جمع المخاطبات ؛ فقيل : ܩܛܠܶܝܢ كما يقال ܩܛܠܬܶܝܢ على غرار ماحدث فى جمع الغائبين فيما سبق . وهناك صيغة ثالثة حديثة كذلك ، زيدت فيها ياء غير منطوقة ؛ مثل : ܩܛܠܝ وهى صيغة مقيسة على صيغة المخاطبة ، التى نتحدث عنها فيما بعد .

وأما العبرية ، فقد طغت فيها صيغة جمع الغائبين ، على صيغة جمع الغائبات ، فأصبحت تعبر عن الغائبين والغائبات بصيغة واحدة ؛ فتقول مثلا : קָטְלוּ kāṭlū بمعنى : « قتلُوا » و « قَتَلْنَ » . وليس هذا بغريب فى التطور اللغوى ؛ فقد حدث مثله فى العاميات العربية ، فى العصر الحاضر ؛ كقولنا مثلا : « البنات اتخطبوا واتجوّزوا » !

---

(١) شرحان على مراح الأرواح ٢٧

وأما العربية الفصحى ، فقد قيست فيها صيغة الغائبات فى الماضى ، على نظيرتها فى المضارع : « يقتلنَ » ، فقيل فيها : « قتلنَ » . وهذه النون فتحتها كانت فى الأصل طويلة كذلك ؛ بدليل بقاء هذا الأصل فى العبرية ، مثل : תִּקְטֹלְנָה tiḳṭōlnā وعودة هذا الأصل للظهور فى العربية ، عند اتصال المضارع بنون التوكيد ، فى مثل قولنا : « يقتلنانِّ » .

(٥) المخاطب المذكر

الأصل فى الماضى المسند إلى ضمير المخاطب المذكر ، أن يتصل بتاء مفتوحة فتحة طويلة (tā) . وهذا الأصل بقى كما هو فى العبرية ؛ مثل : קָטַלְתָּ kāṭaltā « قتلتَ » . وقد قصرت هذه الحركة فى العربية ؛ مثل : « قتلتَ » . كما سقطت تلك الحركة فى السريانية ، كغيرها من الحركات الطويلة والقصيرة فى أواخر كلماتها ؛ فيقال مثلا : ܩܛܠܬ ḳṭalt غير أن هذه الفتحة الطويلة تعود فيها مرة أخرى إلى الظهور ، قبل ضمائر النصب ، مما يدل على أصالتها ، فيقال مثلا : ܩܛܠܬܳܢܝ ḳṭaltān « قَتَلْتَنِى (١) » .

أما الماضى مع ضمير المخاطب المذكر فى الحبشية ، فإنه يتصل بكاف مفتوحة (ka) مثل : ቀተልከ ḳatalka « قتلتَ » . والأصل فى هذه الفتحة ، هو التطويل كذلك ، بدليل ظهور هذا الأصل ، قبل ضمائر النصب ؛ فيقال : ቀተልካሁ ḳatalkāhū « قتلتَهُ » .

---

(١) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik 144 وانظر كذلك : W. Wright, Lectures 172 .

أما هذه الكاف فى الحبشية ، فإنها مقيسة على ضمير المتكلم ، فى أصل اللغات السامية(١) ؛ فإن الأصل فى ضمير المتكلم فى هذه اللغات هو الكاف ، وهى موجودة فى الضمير المنفصل anāku ͗ فى الأكادية ، والضمير المنفصل : אָנֹכִי ͗ānōḵī فى العبرية . كما أن الأصل فى ضمير الخطاب هو التاء ؛ لأن التكلم جنس يختلف عن جنس الخطاب ، ومن الطبيعى أن يوضع لكل جنس ضمير يخالف ضمير الجنس الآخر أى أن الأصل أن يقال فى تصريف الماضى مثلا : « ضَرَبْكُ – ضَرَبْتَ – ضَرَبْتِ » . وقد ثبت من تتبع حياة اللغات « أن الاختلاف فى حياة اللسان ، أقدم من الاتفاق فى أكثر الحالات » (٢) ، « وهنا يأتى القياس اللغوى ، ليلغى هذه الاختلافات ، ويقيس بعض الأمثلة على بعض ، فتتوحد الظاهرة عن هذا الطريق(٣) » .

وحين أدى القياس إلى تسوية هذا الاختلاف ، سادت الكاف وحدها فى الحبشية ؛ ففيها مثلا يقال(٤) :

قتلتُ	ḳatalkū	ቀተልኩ
قتلتَ	ḳatalka	ቀተልከ
قتلتِ	ḳatalkī	ቀተልኪ

---

(١) يرى « رايت » Lectures 171 على العكس من ذلك أن التاء والكاف فى المخاطب أصلان قديمان فى الساميات ، بدليل وجود التاء فى حالة الرفع ، والكاف فى حالتى النصب والجر . وقال بمثل مانقول به الدكتور خليل نامى فى : دراسات فى اللغة العربية ٥٠

(٢) التطور النحوى ، لبرجشتراسر ٧٧

(٣) انظر : التطور اللغوى مظاهر وعلله وقوانينه ، للدكتور رمضان عبد التواب ٦٨

(٤) Dillmann, Grammatik der äthiopischen Sprache 182 .

وفى العربية والآرامية والعبرية ، سار القياس فى اتجاه آخر ، فسادت التاء وحدها ؛ إذ يقال فى العربية مثلا : « قتلتُ / قتلتَ / قتلتِ[١] » .

ولم يُرولنا من صيغ الماضى للمخاطب والمتكلم ، شىء فى العربية الجنوبية[٢] ؛ ولذلك لايجوز لنا القطع فيها بشىء ؛ غير أن الهمدانى روى لنا نقشا حميريا وجد على أحد القبور ، وفيه : « أنا شمعة بنت مراثد كُنْكُ إذا وَحَمْكُ[٣] » يعنى : كنت إذا وحمت . كما روى لنا أبو حاتم السجستانى أنه « قال يمانى مرة بلغته : سُؤْكُ به ظَنّاً وأنابه عريف ، يريد : عارف ، وقلب التاء كافا[٤] » . كما أن اللهجات اليمنية المعاصرة تنطق أحيانا بهذه الكاف لافى المفرد فحسب ، بل فى الجمع كذلك عن طريق القياس ، فتقول مثلا : ḳulku « قُلْتُ » ḳulk « قُلْتَ » ḳulkī « قُلْتِ » ḳulkum « قلتم » ḳulkin « قلتنّ[٥] » .

وقد روى لنا فى العربية ، شىء من هذا فى القديم ؛ فقد قال راجز من حمير :

يا ابنَ الزُّبير طالما عَصَيْكَا
وطالما عنّيكَنا إليكا

---

(١) انظر : فقه اللغات السامية لبروكلمان ١١٨ والتطور النحوى ٧٦

(٢) انظر : M. Höfner, Altsüdarabische Grammatik 67 .

(٣) الإكليل للهمدانى ٨/١٨٢

(٤) فعلت وأفعلت لأبى حاتم ١٦ وانظر : الإبدال لأبى الطيب ١/١٤٢

(٥) انظر : Prochazka, The perfect tense ending(k) 439 .

لنضربَن بسيفنا قَفَيْكا(١)

يعنى : « عصيت » و « عنَّيتنا » . وفى رواية بدل البيت الثالث :

لتُجْزَيَنَّ بالذى أتَيْكا(٢)

وكان « سحيم » عبد بنى الحسحاس ، يرتضخ لكنة حبشية(٣) . يروى عنه أنه « كان إذا أنشد شعرا جيدا ، قال : أحْسَنْكَ والله ! يريد : أحسنتَ(٤) » .

(٦) المخاطبة المؤنثة

الأصل فى الماضى المسند إلى ضمير المخاطبة المؤنثة ، أن يتصل بتاء مكسورة كسرة طويلة (tī) . وهذه الكسرة الطويلة نراها فى بعض نصوص العبرية(٥) ؛ وذلك : שָׁבַרְתִּי šāḇartī « كَسَرْتِ »(٦) . غير أن هذه الحركة قد اطرد سقوطها فى العبرية ؛ مثل : קָטַלְתְּ kāṭalt ولا تعود

---

(١) الأبيات فى خزانة الأدب ٢٥٧/٢ وشرح شواهد الشافية ٤٢٥/٤ والإبدال والمعاقبة ١٠٦ وأمالى الزجاجى ٢٣٦ والصحاح (سين) ٢١٤١/٥ ونوادر أبى زيد ١٠٥ وسر صناعة الإعراب ٢٨١/١ والممتع لابن عصفور ٤١٤/١ والتمام لابن جنى ٣٨ والعينى على هامش الخزانة ٥٩١/٤ والأولان فى المقرب لابن عصفور ١٨٢/٢ ومغنى اللبيب ١٥٣/١ والإبدال لأبى الطيب ١٤١/١

(٢) الكامل لابن الأثير ٢٣/٤

(٣) الكامل للمبرد ٢٢٥/٢

(٤) انظر : سر صناعة الإعراب ٢٨١/١ والشعر والشعراء ٤٠٨/١ والممتع لابن عصفور ٢١٤/١ والعينى على هامش الخزانة ٥٩١/٤ والتمام لابن جنى ٣٨ ولكن انظر : العربية ليوهان فك ٢٣

(٥) انظر : W. Wright, Lectures 173 .

(٦) سفر إرميا ٢٠/٢

للظهور عادة ، إلا قبل ضمائر النصب ؛ مثل : רִמִּיתִנִי rimmītīnī «خَدَعْتِنِي [1] » . كما أنه فى بعض نصوص العهد القديم ، مع المخاطبة ياء أثرية لاتنطق ؛ مثل : לִמַּדְתְּי limmadt « عَلَّمتِ[2] » ، ومثل : הָלַכְתְּי hālakt « ذَهَبْتِ[3] » . وأغلب الظن أن هذه الياء من بقايا لاحقة المخاطبة :(tī) .

وما حدث فى العبرية من ضياع الكسرة الطويلة ، حدث مثله فى الآرامية ، غير أن رمز الكسرة الطويلة ، وهو الياء ، ظل باقيا فى الخط ؛ ليدل على أن تلك الكسرة الطويلة ، أصيلة فى هذا الضمير ؛ مثل: ܩܛܠܬܝ ktalt « قتلتِ » ، كما يدل على ذلك أيضا ظهورها قبل ضمائر النصب ؛ فى مثل : ܩܛܠܬܝܢ ktaltīn « قَتَلْتِنِي » .

وفى الحبشية ، نرى هذه الكسرة الطويلة كذلك ، غير أنها تتصل بالكاف لا بالتاء ، كما عرفنا من قبل ؛ مثل : ቀተልኪ katalkī « قتلتِ » .

أما العربية الفصحى ، فقد قصرت فيها الكسرة هنا ، كما قصرت فتحة المخاطب المذكر فيما سبق . غير أننا لا نعدم فى الشعر والنثر القديم ، أمثلة من الكسرة الطويلة ، مع المخاطبة المؤنثة ، كما فى قول الشاعر :

رَمَيْتيه فأقصدتِ ... وما أَخْطَأَتِ الرَّمْيَهْ[4]

---

(١) سفر صمويل الأول ١٧/١٩

(٢) سفر إرميا ٣٣/٢

(٣) سفر إرميا ٢٠/٣١

(٤) خزانة الأدب ٤٠١/٢

كما ورد فى حديث الرسول ﷺ قوله : « أَعَصَرْتيه [١] » ؟ ويروى سيبويه عن الخليل بن أحمد الفراهيدى ، أن ناساً من العرب « يقولون : ضَرَبْتيه ، فيلحقون الياء[٢] » . وهذا أمر شائع جدا فى اللهجات العربية الحديثة ؛ إذ يقال مثلا : « كَسَرْتيه » و « سِمِعْتِيه » وما أشبه ذلك .

(٧) جمع المخاطبين

الأصل فى الماضى المسند إلى جمع المخاطبين ، أن يتصل باللاحقة (tumū) . وهذه اللاحقة توجد كاملة فى العربية الفصحى فى الشعر ، وقبل ضمائر النصب[٣] ، وكذلك قبل ألف الوصل[٤] ؛ فمثالها فى الشعر قول جرير[٥] :

تراغيتمُ يوم الزبير كأنكم ضباعٌ أصلَّت فى مَغارٍ جُعورها

وقوله كذلك : [٦]

تمنيتمُ أن تسلبوا القاع أهلَه كذاك المنى غرّت جُحيشاً غُرورها

ومثالها قبل ضمير النصب قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سَمِعْتُمُوه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ (النور ٢٤/١٦) وقوله عز وجل : ﴿ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ (آل عمران ٣/١٤٣) وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فإن علمتوهنّ مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ (الممتحنة ٦٠/١٠) .

---

(١) إعراب الحديث ، للعكبرى ٤٨

(٢) كتاب سيبويه ٢/٢٩٦

(٣) فى شرح مراح الأرواح ٣٢ : « فإن الضمائر مما يرد الأشياء إلى أصولها » .

(٤) انظر كذلك : دروس فى علم أصوات العربية ، لكانتينو ١٩٠

(٥) ديوان جرير ٢٧٢

(٦) ديوان جرير ٢٩٥

ومثالها قبل ألف الوصل قوله تعالى : ﴿ ثم اتخذتُمُ العجل من بعده ﴾ (البقرة ٢/٩٢) وقوله عز وجل : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتُمُ الشيطان إلا قليلا ﴾ (النساء ٤/٨٣) وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفرأيتُمُ النار التى تورون ﴾ (الواقعة ٥٦/٧١) .

وفيما عدا ذلك ، تحذف الضمة الطويلة ؛ فيقال مثلا : « ضربتُمْ » و « أكلتُمْ » . وقد زاد تقصير هذه اللاحقة ، فى اللهجات العربية الحديثة ، فضاعت منها الميم ، وأطيلت الحركة قبلها ، فصارت اللاحقة : (tū) فى مثل قولنا فى اللهجة المصرية : « عملتو إيه النهارده ؟ » و « روحتو فين امبارح ؟ » .

واللاحقة فى الحبشية ، وهى : ከሙ kemmū تظهر فيها الضمة الطويلة بعد الميم . والعنصر الأول فيها ، وهو الكاف ، مقيس على لاحقة المخاطب المفرد ، وحركته وهى الكسرة القصيرة الممالة ، محولة عن الضمة القصيرة الخالصة ؛ فقد تحوّل فى الحبشية كل من الضمة القصيرة الخالصة (u) والكسرة القصيرة الخالصة (i) إلى الكسرة القصيرة الممالة : (e)[١] .

أما العبرية ، فقد سقطت فيها الضمة الطويلة ، من آخر لاحقة المخاطبين ، وتبعت حركة التاء هنا حركتها فى لاحقة جمع المخاطبات ، وهى مكسورة فى أصل اللغات السامية ، كما سنعرف بعد ذلك ؛ فقيل مثلا : קְטַלְתֶּם ktaltem « قتلتُم » . وتظهر الضمة الأصلية بعد التاء أحيانا قبل ضمائر النصب ، فى بعض نصوص العهد القديم[٢] .

---

(١) انظر : Praetorius, Aethiopische Grammatik 9 .

(٢) انظر مثلا : سفر العدد ٢٠/٥

وأما الآرامية ، فقد سقطت فيها الضمة الطويلة من آخر لاحقة جمع المخاطبين كذلك ، وبقيت فيها الضمة الأصلية بعد التاء ، غير أن الميم فى آخر هذه اللاحقة ، قيست على لاحقة جمع المخاطبات ، وهى نون فى أصل اللغات السامية ، كما سنعرف فيما بعد ، فتحولت الميم نونا ؛ إذ يقال مثلا : ܩܛܠܬܘܢ kṭaltōn « قتلتم » .

(٨) جمع المخاطبات

الأصل فى الماضى المسند إلى جمع المخاطبات أن يتصل باللاحقة : (tinnā) . وهذه اللاحقة لم تبق على حالها ، فى أية لغة سامية ، بسبب التطورات الصوتية والقياس ، فى كثير من الأحيان ؛ ففى العربية الفصحى قيست حالة المخاطبات على حالة المخاطبين فى حركة التاء ، فتحولت من الكسر (الذى يميز حالة المؤنث فى اللغات السامية ؛ فى مثل : ضربتِ ، وهِىَ ، ومنكِ ، وتقتلين ، وغير ذلك) إلى الضم[1] ، كما قصرت الحركة الأخيرة ، فقيل مثلا : « قتلتُنَّ » .

أما العبرية ، فإنها تحتفظ بكسرة التاء ، ولكن الحركة الأخيرة سقطت تماما ؛ مثل : קְטַלְתֶּן kṭalten « قتلتنّ » ولم تبق هذه الحركة الأخيرة إلا فى كلمة واحدة من كلمات العهد القديم[2] ، وهى : הִשְׁלַכְתֶּנָה hišlaktḗnā « اندفعن[3] » .

---

(١) وانظر كذلك : العربية الفصحى ، لهنرى فليش ١٦٥

(٢) انظر : Gesenius, Hebräische Grammatik 182 وإن كان رايت (Lectures 174) يشك فى هذه الكلمة .

(٣) سفر عاموس ٣/٤

وقد حدث فى الآرامية ماحدث فى العبرية تماما ، فقيل فيها مثلا : ܩܛܰܠܬܶܝܢ ḳṭalten « قتلتنّ » . ولكن هذه الحركة الأخيرة تظهر مرة أخرى فى الآرامية ، قبل ضمائر النصب ؛ فيقال مثلا : ܩܛܰܠܬܶܝܢܳܝܗܝ ḳṭalténāy « قتلتُنَّهُ » . وهى فتحة طويلة كما ترى !

وإذا استثنينا العنصر الأول فى لاحقة الحبشية ، الذى تغيّر من التاء إلى الكاف ، بسبب القياس على حالة المخاطبة ، فإننا نجد الحركة الأخيرة ، تسقط هنا كذلك ؛ فيقال مثلا : ቀተልክን ḳatalken « قتلتنّ » ، غير أنها تعود إلى الظهور مرة أخرى ، قبل ضمائر النصب المتصلة ؛ فيقال مثلا فى الحبشية : ቀተልክናሁ ḳatalkenāhū « قتلتُنَّهُ » .

وخلاصة التطور الحادث فى لاحقتى جمع المخاطبين وجمع المخاطبات ، أن التفرقة بين اللاحقتين ، كانت فى الأصل بالحركة والحرف ؛ فالضم والميم لجمع المخاطبين ، والكسر والنون لجمع المخاطبات . ومن الملاحظ فى حركة التطور اللغوى ، هو الميل إلى القضاء على تكدس العلامات ، وطرد الباب على وتيرة واحدة . وهذا هو السرّ فى سيادة الضم على الكسر فى العربية ، والكسر على الضم فى العبرية ، والنون على الميم فى الآرامية ، واقتصر بذلك التفريق بين اللاحقتين فى العربية والعبرية على الحرف ، وفى الآرامية على الحركة .

(٩) المتكلم المفرد

الأصل فى الماضى المسند إلى المتكلم المفرد ، أن يتصل باللاحقة : (kū) . وهذه اللاحقة بقيت كما هى فى الحبشية ؛ إذ يقال فيها مثلا : ቀተልኩ ḳatalkū « قتلتُ » . وقد سبق أن عرفنا أن تاء الخطاب أثرت فى غير الحبشية ، على حالة المتكلم ، فتحولت : (kū) إلى : (tū) فى العربية والعبرية والآرامية .

غير أن العربية قد قصرت الحركة ؛ ففيها مثلا : « قتلتُ » . وأما العبرية فقد تأثرت فيها تلك الحركة بحركة ضميرى النصب : (nī) والجر : (ī) فى مثل : " קְטָלַנִי " kṭālánī « قتلنى » ، ومثل : " מַלְכִּי " malkī « مَلِكِى » ، فتحولت من الضم إلى الكسر(١) ، فى مثل : " קָטַלְתִּי " kāṭaltī « قتلتُ » ، وهو ذلك القياس الذى لعب دوره كذلك ، فى تحول حركة الضمير المنفصل : « أنا » فى العربية والآرامية والحبشية ، إلى : " אֲנִי " ănī فى العبرية(٢) .

أما اللغة الآرامية ، فقد سقطت فيها الحركة الأخيرة تماما ، وحركت لام الفعل بالكسرة القصيرة الممالة ، فأصبحت الصيغة مثل : ܩܶܛܠܶܬ ketlet « قتلتُ » . ويرى بروكلمان(٣) أن السبب فى نشوء هذه الحركة ، هو التخلص من التقاء الساكنين ، فى آخر الصيغة ، بعد سقوط الحركة الأخيرة من اللاحقة ، وهو يرى أن هذه الحركة التى جيء بها للتخلص من التقاء الساكنين حملت النبر ، فأدى ذلك إلى سقوط حركة عين الفعل ، أى أن تطور الصيغة عند بروكلمان ، تم على النحو التالى :

kaṭaltū> kaṭalt> kaṭalet> kaṭlét> keṭlét

وهذا الرأى لبروكلمان ، لا يستطيع أن يفسر لنا ، لماذا تمّ التخلص من التقاء الساكنين ، فى حالة المتكلم فقط ، ولم يتم كذلك فى حالتى المخاطب : ܩܛܰܠܬ ktalt والمخاطبة ܩܛܰܠܬܝ ktalt ؟

---

(١) Brockelmann, Grundriss I 573 ودراسات فى فقه اللغة العربية ٤٢

(٢) يرى الدكتور محمد سالم الجرح – على العكس من ذلك – أن العنصر الجوهرى لهذا الضمير ، هو الكسرة الطويلة ، وأن العبرية احتفظت بالأصل فيه ! انظر مقالته : نظرة تحليلية ، فى مجلة مجمع اللغة العربية ٢٢/٦٢

(٣) Brockelmann, Grundriss I 573 .

ويذهب أستاذنا « شپيتالر » A. Spitaler إلى تفسير آخر لوجود هذه الحركة ، قبل تاء المتكلم ، عن طريق القياس على صيغة الفعل المعتل الآخر ؛ مثل : ܓܠܐ glā « جلاَ » ؛ ܪܡܐ rmā « رَمَى » ؛ فإن هذا النوع من الأفعال ، يسلك فيه الصوت المركب : (ay) الناشىء عند اتصال هذه الأفعال بالتاء ، فى حالات المتكلم والمخاطب والمخاطبة : رميتُ / رميتَ / رميتِ ، مسلكين مختلفين ؛ فإنه ينكمش فى حالة المتكلم ؛ فيقال مثلا : ܪܡܝܬ rmēṯ « رميتُ » ، على حين يبقى هذا الصوت المركب ، فى حالتى المخاطب والمخاطبة كما هو ؛ فيقال فى المخاطب مثلا : ܪܡܝܬ rmayt « رميتَ » ، كما يقال فى المخاطبة : ܪܡܝܬܝ rmayt « رميتِ »(٢) .

وعلى ذلك تصبح العلاقة بين صيغتى الغائبة والمتكلم ، فى هذا النوع من الأفعال المعتلة الآخر ، علاقة تقابل فى الحركة التى تسبق التاء ، فهى الفتحة فى الغائبة ، والكسرة الممالة فى المتكلم ، وقيس الفعل الصحيح فى تصريفه على الفعل المعتل الآخر ، على النحو التالى :

rmāṯ : rmēṯ = ḳeṭlaṯ : ḳeṭleṯ

غير أنه يبقى غامضا فى تفسير أستاذنا شپيتالر ، سبب اختلاف سلوك الصوت المركب (ay) فى حالة التكلم ، عنه فى حالتى المخاطب والمخاطبة !

وإن المرء لينتظر معاملة الصيغ الثلاث ، معاملة واحدة فى الآرامية ؛ فيقال فى المخاطب مثلا : ܩܛܠܬ ḳṭalt وفى المخاطبة : ܩܛܠܬܝ ḳṭalt وفى

---

(١) Zum Problem der Segolisierung im Aramäischen 194 .

(٢) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik 139 .

المتكلم : ܩܛܠܬ ḳṭalt وهو أمر نراه واقعا عند اتصال هذه الصيغ الثلاث بضمائر النصب ؛ فيقال مثلا فى المخاطب : ܩܛܠܬܳܝܗܝ ḳṭaltāy « قتلتَهُ » وفى المخاطبة : ܩܛܠܬܺܝܘܗܝ ḳṭaltīw « قتلتِهِ » وفى المتكلم : ܩܛܠܬܶܗ ḳṭalteh « قتلتُه[1] » . وقد يشهد ذلك لأصالة التصريف على هذا النحو ، ويبقى السر فى شذوذ حالة المتكلم ، الخالى من ضمائر النصب ، غامضا .

(١٠) المتكلمون

الأصل فى الماضى المسند إلى المتكلمين ، أن تتصل به اللاحقة (nā) . وهذا الأصل تحتفظ به العربية ، فى مثل : « ضَرَبْنَا » و « كَتَبْنَا » ونحوهما . وقد قصرت الحركة فى الحبشية ؛ فقيل مثلا : ቀተልነ ḳatalna « قَتَلْنا » . غير أن هذه الحركة الطويلة ، تعود فيها إلى الظهور قبل ضمائر النصب ؛ وذلك مثل : ቀተልናሁ ḳatalnāhū « قتلناه » .

أما الآرامية ، فقد سقطت الحركة الطويلة من اللاحقة فيها ؛ فقيل مثلا : ܩܛܠܢ ḳṭaln « قَتَلْنا » ، غير أن هذا الأصل يعود إلى الظهور مرة أخرى ، قبل ضمائر النصب كذلك ؛ إذ يقال فيها مثلا : ܩܛܠܢܳܝܗܝ ḳṭalnāy « قتلناه »[2] . وهناك صيغة آرامية أخرى أحدث من هذه ، اتصلت فيها بالنون لاحقة « المضاف إليه » للمتكلمين ، فصارت اللاحقة بذلك : (nan) فى مثل : ܩܛܠܢܢ ḳṭalnan .

---

(١) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik 145 .

(٢) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik 145 .
وانظر كذلك : W. Wright, Lectures 177 .

وأما العبرية ، فقد قيست فيها حركة اللاحقة (nā) على حركة الضمير المنفصل : אֲנַחְנוּ ănáḥnū « نحن » ، فأتبعت النون بضمة طويلة خالصة ؛ مثل : קָטַלְנוּ kāṭalnū « قَتَلْنا » .



ونلخص فيما يلي أصول لواحق تصريف الماضى فى اللغات السامية :

الغائب	ḳatal + a	الغائبون	ḳatal + ū
الغائبة	ḳatal + at	الغائبات	ḳatal + ā
المخاطب	ḳatal + tā	المخاطبون	ḳatal + tumū
المخاطبة	ḳatal + tī	المخاطبات	ḳatal + tinna
المتكلم	ḳatal + kū	المتكلمون	ḳatal + nā

هذا وتختص العربية وحدها ، بتصريف الفعل مع المثنى ؛ ففى الغائبْين والغائبتين تلحق بالفعل لاحقة التثنية فى الاسم ، دون النون فيها ؛ ففى العربية الشمالية ، سادت لاحقة الرفع فى المثنى (ā) : « ضَرَبَا » و «ضَرَبَتَا» ؛ كما يقال : « كتابان » و« كراستان » .

وفى العربية الجنوبية سادت لاحقة النصب والجر فى المثنى ، وهى الياء ؛ فقيل فيها : ق ت ل ى « قتلا » فى الغائبيْنِ ، كما قيل : ق ت ل ت ى « قتلتا » فى الغائبتين(١) .

---

(١) انظر : M. Höfner, Altsüarabische Grammatik 67 .

وانظر كذلك : Brockelmann, GrundrissI 576 .

أما المخاطبان والمخاطبتان ، فقد استخدمت العربية فيهما لاحقة المخاطبين : tum + ألف التثنية ، فأصبحت اللاحقة : (tumā) ؛ مثل : « ضربتما » للمذكر والمؤنث على سواء ، ولم يُرْوَ لنا شيء عن وجود هذه اللاحقة فى العربية الجنوبية .



هذا ، ويشبه الماضى فى تصريفه ، فى اللغات السامية العربية ، تصريف مايسميه علماء الآشوريات باسم : Permansiv , Stativ فى السامية الشرقية ، وهو الخبر النكرة ، أو الحدث الدائم الثابت فيها ؛ فكلمة : šarrum معناها فى تلك اللغة : « مَلِكٌ » ، ويمكن أن تتصرف مع لواحق ، تشبه لواحق الماضى ، على النحو التالى[١] :

الغائب	šar	هو ملك	الغائبون	šarrū	هم ملوك
الغائبة	šarrat	هى ملكة	الغائبات	šarrā	هن ملكات
المخاطب	šarrātā	أنتَ ملك	المخاطبون	šarrātunū	أنتم ملوك
المخاطبة	šarrātī	أنتِ ملكة	المخاطبات	šarrātinā	أنتن ملكات
المتكلم	šarrākū	أنا ملك	المتكلمون	šarrānū	نحن ملوك

(١) انظر : Von Soden, Grundriss 98 وانظر كذلك : S. Moscati, An Introduction 137
وانظر أيضا : O'Leary, Comparative Grammar 241 وفقه اللغات السامية لبروكلمان ١٢٢

ونلاحظ فى هذا التصريف ، وجود فتحة طويلة (ā) قبل لواحق الخطاب والتكلم فى المفرد والجمع . وأغلب الظن أن ارتباط هذه اللواحق بضمائر الرفع المنفصلة فى اللغات السامية ، يمكن أن يفسر لنا وجود هذه الفتحة الطويلة فى الأكادية ، فهذه اللواحق هى فى الأصل جزء من ضمائر الرفع المنفصلة (ʾan+ tinnā/ ʾan+tumū/ ʾan+tī/ ʾan+tā/ ʾan+ākū) وفيها نرى الفتحة الطويلة فى ضمير المتكلم وحده من بين هذه الضمائر . وقد عمّمت الأكادية هذه الحركة ، مع كل لواحق الخطاب والتكلم ، فى هذا التصريف (Stativ) على حين قاست بقية اللغات السامية صيغة المتكلم على غيرها[١] ، فحذفت تلك الفتحة الطويلة من المتكلم كذلك .



(١) انظر : Bergsträsser, Hebräische Grammatik ص ١١

الفصل السابع
الأفعال المعتلّة

نعنى بالأفعال المعتلة هنا ، ماكان منها (أجوف) ؛ مثل : قال ، وباع ، وخاف ، وطال ، أو (ناقصا) ؛ مثل : دعا ، وقضى ، أو من نوع (اللفيف المقرون) ؛ مثل : رَوَى ، وهَوَى ؛ فإن كل هذه الأفعال وما شابهها ، بصورتها التى ذكرناها هنا ، تعدّ آخر مرحلة من مراحل تطورها فى اللغات السامية .

أما أولى هذه المراحل ؛ فإنها كانت : قَوَلَ ، وبَيَعَ وخَوِفَ ، وطَوُلَ ، ودَعَوَ ، وقَضَيَ ، ورَوَيَ ، وهَوَيَ ، على نمط الصحيح تماما . وهذه المرحلة بقيت كما هى فى اللغة الحبشية ، فى بعض الأفعال الجوفاء ، وفى كل الأفعال الناقصة ، أو من نوع اللفيف المقرون[1] ، مثال الأجوف فيها : በየነ bayana « تحقّق » ደየነ dayana « دان » . ومثال الناقص : ጸሐወ ṣaḥawa « صَحَا » ረመየ ramaya « رمى » . ومثال اللفيف المقرون : ደወየ dawaya « مَرِضَ » ረወየ rawaya « رَوِيَ » .

وقد بقيت من هذه المرحلة ، عدة أفعال فى العربية ؛ مثل : « عَوِرَ » بمعنى : فقد إحدى عينيه ، و« حَوِرَ » ، والحَوَرَ : نقاء بياض العين واشتداد سوادها ، و« هَيِفَ » بمعنى : « ضمر بطنه » ، و« استحوذ » فى مثل تعالى :

---

(١) Dillmann, Grammatik der äthiopischen Sprache 163 - 165 .

﴿ استحوذ عليهم الشيطانُ فأنساهم ذِكْرَ الله ﴾ (المجادلة ١٩/٥٨) ، و « استنوق الجمل » ، وهو مثل عربى ، يقال إن « طرفة بن العبد » هو أول من قاله ، حين سمع « المتلمس » ينشد شعرا له ، ويقول فيه :

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره　　　بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مِكْدَمِ

والصيعرية : سمة للنوق ، فجعلها المتلمس للجمل ، وسمعه طرفة ينشد البيت فقال : استنوق الجمل ، فضحك الناس ، وسارت مثلا[١] .

أما المرحلة الثانية فى تطور هذه الأفعال المعتلة ، فهى مرحلة التسكين ، أو ضياع الحركة بعد الواو والياء للتخفيف ، فيصبح الفعل على نحو : قَوْلَ ، وبَيْعَ ، وخَوْفَ ، وقَضَىْ ، ورَمَىْ .. إلخ .

وقد فطن العلامة « ابن جنى » بحسّه اللغوى ، إلى ضرورة وجود هذه المرحلة فى طريق تطور الأفعال المعتلة ؛ فقال : « ومن ذلك قولهم : إن أصل قام : قَوَمَ ، فأبدلوا الواو ألفا ، وكذلك : باع ، أصله : بَيَعَ ، ثم أبدلت الياء ألفا ، لتحركها وانفتاح ما قبلها . وهو لعمرى كذلك ، إلا أنك لم تقلب واحداً من الحرفين إلا بعد أن أسكنته استثقالا لحركته ، فصار إلى : قَوْمَ وبَيْعَ[٢] » .

وقد بقيت هذه المرحلة عند قبيلة طيئ ؛ فقد روى لنا عنها أنها تقول مثلا : « حُبْلَىْ » و « أَفْعَىْ » و « هُدَىْ » وما شابه ذلك فى الوصل والوقف[٣] . وأغلب الظن أن الراجز الذى قال :

---

(١) انظر : الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٩٢

(٢) الخصائص ٤٧١/٢ - ٤٧٢ وانظر كذلك : شرح مراح الأرواح ١٢٢

(٣) انظر : كتاب سيبويه ٢٨٧/٢ ومعانى القرآن للزجاج ٨٧/١

وفَرَجٍ منكِ قريبٍ قد أتَىْ

وزميله الذى قال :

يمنعهنَّ الله ممن قد طَغَىْ

إنما كانا من شعراء هذه القبيلة كذلك[١] .

ولعل هذه الظاهرة كانت شائعة عند قبيلة « هذيل » كذلك ؛ لأنهم كانوا عندما يضيفون المقصور إلى ياء المتكلم ، فى مثل : « هُدَاىَ » و « هَوَاىَ » وغيرهما ، يقولون : هُدَىَّ (= هُدَىْ + ىَ) ، وهَوَىَّ (= هَوَىْ + ىَ) وغير ذلك . وعلى لغتهم جاء قول أبى ذؤيب الهذلى :

سَبَقُوا هَوَىَّ وأعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ فتُخُرِّمُوا ولكل جنب مَصْرَعُ[٢]

كما أننا نلاحظ أن تسكين الوسط للتخفيف ، روى لنا فى العربية كثيرا ، وقالوا عنه إنه « لغة بنى بكر بن وائل ، وأناس كثير من تميم[٣] » ، كما يروى عن قبيلة ربيعة كذلك[٤] . ومن أمثلته قول القطامى :

إذا هَدَرَتْ شَقَاشِقُه **ونَشْبَتْ** له الأظفار **تُرْكَ** له المُدَارُ[٥]

وقول القطامى كذلك :

ألم يُخْزِ التفرُّقُ جُنْدَ كسرى **ونُفْخُوا** فى مدائنهم فطاروا[٦]

---

(١) انظر : المنصف لابن جنى ١/١٦٠ ومعانى القرآن للزجاج ١/٨٧

(٢) شرح ديوان الهذليين ١/٧ وانظر : معانى القرآن للزجاج ١/٨٧

(٣) انظر : شرح شواهد الشافية ٤/١٥

(٤) انظر : الصاهل والشاحج ٤٤٠ ؛ ٤٨٦ ؛ ٦٦٦

(٥) ديوانه ق ٢٩/٥٧ ص ٨٦ وانظر البيت برواية أخرى فى الصاهل والشاحج ٤٤٠

(٦) شرح شواهد الشافية ٤/١٥ وفى ديوانه ق ٢٩/٣٩ ص ٨٤ : « وأجلوا عن مدائنهم » . وفى هامشه عن إحدى النسخ الخطية : « ونفخوا » .

وقول الأخطَل :

وماكلُّ مغبونٍ ولو سَلْفَ صَفْقُه براجــعٍ ماقــد فاتــه برِدَادِ[١]

وقول الأخطل كذلك

فإن أهجُهُ يَضْجَرْ كما ضَجْرَ بازِلٌ من الأدم دَبْرَتْ صفحتاه وغارِبُهْ[٢]

وقول الشاعر :

وقالـوا ترابيٌّ فقلـت صدقتــمُ أبِي من تراب خَلْقَهُ الله آدما[٣]

وقول الآخر :

فإن النبيذَ الصَّرْدَ إنْ شُرْبَ وحده على غير شيء أحرق الكَبْدَ جوعُها[٤]

وقول أبي خواش الهذلي :

ولحمِ امرىء لم تطْعم الطيرُ مثلَه عشيّةَ أمسى لايُبين من البَكْمِ[٥]

وقول الشاعر :

ألا يالــــــــيتها لُدْغَتْ وأُدْعَى كَيْـمَ ذى أَرْقِـــى[٦]

وقول أبي النجم العجلي :

لو عُصْرَ منها البانُ والمسكُ انْعَصرْ[٧]

---

(١) ديوانه ص ١٣٧ وشرح شواهد الشافية ٤/١٨ ورسالة الغفران للمعرى ٣١٢ والخصائص ٣/٣٣٨

(٢) ديوانه ص ٢١٧ والكامل للمبرد ٣/١٧٧ والصاهل والشاحج ٤٨٦ وإصلاح المنطق ٣٦

(٣) البيت فى أمثال أبى عكرمة ١٢٨ مع مصادر أخرى فى هامشه .

(٤) الصاهل والشاحج ٤٤٠

(٥) شرح ديوان الهذليين ٣/١٣٤٥ وشرح شواهد الشافية ٤/١٨

(٦) الصاهل والشاحج ٤٨٦

(٧) شرح شواهد الشافية ٤/١٥ وإصلاح المنطق ٣٦

وقوله كذلك :

حتى إذا ما رَضْىَ من كالها[١]

وقول الراجز :

رُجْمَ به الشيطان فى هوائه[٢]

وقول الآخر :

قالت أُراه دالفاً قد دُنْىَ لَهْ[٣]

ومن أمثال العرب قولهم : « لم يُحْرَمْ من فُصْدَ له »[٤] .

والمرحلة الثالثة فى تطور الأفعال المعتلة ، هى تلك المرحلة التى تسمى فى عرف اللغويين المحدثين : « انكماش الأصوات المركبة » kontraktion der Diphthonge[٥] والأصوات المركبة فى العربية هى : الواو والياء المسبوقتان بالفتحة ، فى مثل : « قَوْل » و « بَيْت » ، فإن الملاحظ فى تطور اللغات ، هو انكماش هذه الأصوات ، فتتحول الواو المفتوح ماقبلها إلى ضمة طويلة ممالة ؛ كقولنا فى اللهجة المصرية مثلا : ṣōm, nōm, yōm بدلا من : « يَوْم » و « نَوْم » و « صَوْم » . وكذلك تنكمش الياء المفتوح ماقبلها ، فتتحول إلى كسرة طويلة ممالة ؛ كقولنا فى اللهجة المصرية مثلا : bēt و lēl و zēt بدلا من : « بَيْت » و « لَيْل » و « زَيْت » وغير ذلك .

---

(١) الصاهل والشاحج ٦٦٦

(٢) إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ٨

(٣) التمام فى تفسير أشعار هذيل ٢٢٣ واللسان (دنا) ١٨/٣٠٠

(٤) انظر : كتاب الأمثال لمؤرج السدوسى ٥٠ مع مصادر أخرى فى هامشه.

(٥) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik 32 ff .

وهذه المرحلة هى الشائعة فى اللغة الحبشية ، فى الأفعال الجوفاء[١] ؛ ففيها مثلا : ቆመ ḳōma « قام » ሤጠ šēṭa « باع » وغير ذلك . كما توجد هذه المرحلة أيضا ، فى اللهجات العربية التى تُميل ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ والضُّحَى والليل إذا سَجَى ، ماوَدَّعك ربُّك وما قَلَى ﴾ فى قراءة من أمال[٢] . وفى ذلك يقول الزجاج : « والإمالة إلى الكسر ، لغة بنى تميم وكثير من العرب . ووجهها أنها الأصل فى ذوات الياء ، فأميلت لتدل على ذلك[٣] » .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة فى تطور تلك الأفعال المعتلّة ، فتتمثل فى التحول من الإمالة إلى الفتح الخالص ؛ ذلك أن الحركة الممالة الناتجة من انكماش الصوت المركب ، كثيرا ماتتطور فى اللغات المختلفة ، فتتحول إلى فتحة طويلة[٤] ؛ فمثلا كلمة : « فَأَيْنَ » تطورت بعد سقوط الهمز منها إلى : « فِين » fēn ، بدلا من : « فَيْن » وفى بعض اللهجات : « وِين » wēn المتطورة عن : « وَيْن » بعد سقوط الهمز من : « وَأَيْنَ » . غير أننا نسمع بعض أهالى مصر العليا ، ينطقون الكلمة الأولى بالفتح الخالص ؛ فيقولون : « فان » بدلا من : « فِين » fēn الشائعة فيما عدا ذلك فى بلاد مصر ، أى أن التطور فى هذا الصوت المركب ، كان على النحو التالى : ay > ē > ā .

وهذا التطور الأخير ، هو الذى وصلت إليه العربية ، فى مثل : « قام »

---

(١) انظر : Praetorius, Aethiopische Grammatik 79 .

(٢) انظر : التيسير فى القراءات السبع ٢٢٣

(٣) معانى القرآن للزجاج ١/١٤٤

(٤) انظر : التطور اللغوى مظاهره وعلله وقوانينه ٥١

و « باع » و « خاف » و « دعا » و « قضى » و « رَمَى »[(١)] . كما وصلت إليه اللغة العبرية ، فى مثل : נָשַׁת šāt « وضع » רָם rām « ارتفع » גָּר gār « سكن » עָשָׂה ʿāśa « صنع » עָנָה ʿānā « أجاب » גָּלָה gālā « جلا » . وإلى مثل ذلك وصلت اللغة الآرامية ، فى نحو : ܩܳܡ ḳām « قام » ܚܳܛ ḥāṭ « خاط » ܣܳܡ sām « وضع » ; ܪܡܳܐ rmā « رمى » ܒܢܳܐ bnā « بنى » ܩܪܳܐ ḳrā « دعا/سمَّى » .

وقد حدث مثل ذلك فى لغة طيئ ، فى الأفعال المعتلة المكسورة العين فى الماضى كذلك ؛ مثل قولهم : « رَضَا » فى : « رَضِى » ، و « فَنَا » فى : « فَنِىَ » ، و « هُدَا » فى : « هُدِىَ » وغير ذلك [(٢)] .

تلك هى مراحل تطور الأفعال المعتلة . وقد رأينا كيف خلّفت تلك المراحل ركاما لغويا ، فى العربية الفصحى ، واللغات السامية ، واللهجات العربية المختلفة . ومن كل ذلك نرى أن مايقوله النحاة من أن (قال) مثلا ، أصلها : (قَوَلَ) صحيح ، بصرف النظر عن تعليلهم هذا ، بتحرك الواو وانفتاح ماقبلها ، وإن كان « ابن جنى » مثلا ، يزعم أن ذلك الأصل لم يوجد فى العربية يوماً ما ؛ إذ عقد فى « الخصائص » بابا سماه : « باب مراتب الأشياء وتنزيلها تقديرا وحكما ، لازمانا ووقتا » وقال فيه : « هذا الموضع كثير الإيهام لأكثر من يسمعه ، لاحقيقة تحته ؛ وذلك كقولنا : الأصل فى قام : قَوَم ، وفى باع : بَيَعَ ... فهذا يوهم أن هذه الألفاظ وماكان نحوها — مما يُدَّعى أن له أصلا يخالف ظاهر لفظه — قد كان مرة يقال ، حتى إنهم كانوا

---

(١) انظر أيضا : Rabin , Ancient West-Arabian 160 .

(٢) انظر : كتاب سيبويه ٢/٢٩٠ وخزانة الأدب ٤/١٤٩

يقولون فى موضع قام زيد : قَوَمَ زيد ، وكذلك : نَوِمَ جعفر ، وطَوُلَ محمد ... وليس الأمر كذلك ، بل بضده ؛ وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ماتراه وتسمعه . وإنما معنى قولنا إنه كان أصله كذا : أنه لوجاء مجىء الصحيح ، ولم يُعْلَل ، لوجب أن يكون مجيئه على ماذكرنا ؛ فأما أن يكون استعمل وقتا من الزمان كذلك ، ثم انصرف عنه فيما بعد إلى هذا اللفظ ، فخطأ لايعتقده أحد من أهل النظر(١) » .

ويحاول ابن جنى أن يؤكد فكرته تلك مرة أخرى فى كتابه : « سر صناعة الإعراب » ، غير أنه يعود فيعترف بأن الظاهرة اللغوية القديمة ، قد تبقى منها أمثلة تعين على معرفة الأصل ، وهو مانسميه هنا : « الركام اللغوى » ؛ يقول ابن جنى : « فبهذا ونحوه استدل أهل التصريف على أصول الأشياء المغيّرة ، كما استدلوا بقوله عز اسمه : ﴿ اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطان ﴾ على أن أصل استقام : استَقْوَمَ ، وأصل استباع : استَبْيَعَ ، ولولا ماظهر من هذا ونحوه ، لما أقدموا على القضاء بأصول هذه الأشياء ، ولما جاز ادعاؤهم إياها(٢) » .

وهكذا نرى ابن جنى ، لايريد أن يعترف بوجود الأصل القديم ، لهذه الظاهرة فى الواقع اللغوى ، غير أنه حين عثر على مثال من « الركام اللغوى » ، وهو قوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوذَ عليهم الشيطان ﴾ ، اضطر إلى الاعتراف به .

★ ★ ★

(١) الخصائص ١/٢٥٦

(٢) سر صناعة الإعراب ١/١٩٤ كما يقول المبرد فى المقتضب ٢/٩٧ : « وقد يجىء فى الباب الحرف والحرفان على أصولهما ، وإن كان الاستعمال على غير ذلك ؛ ليدل على أصل الباب ».

الفصل الثامن
تطابق العدد فى الجملة الفعلية

من المعروف فى العربية الفصحى ، أن الفعل يجب إفراده دائما ، حتى وإن كان فاعله مثنى أو مجموعا ، أى أنه لاتتصل به علامة تثنية ولا علامة جمع ، للدلالة على تثنية الفاعل أو جمعه ؛ فيقال مثلا : « قام الرجل » و « قام الرجلان » و « قام الرجال » بإفراد الفعل : « قام » دائما ؛ إذ لايقال فى الفصحى مثلا : « قاما الرجلان » ولا « قاموا الرجال » .

وعلى هذا النحو ، جاءت جمهرة الجمل الفعلية فى القرآن الكريم ؛ يقول الله تعالى مثلا : ﴿ وكأيِّنْ من نبى قاتل معه رِبِّيُّون كثير ﴾ (آل عمران ١٤٦/٣) ولم يقل قاتلوا معه . كما قال جل شأنه : ﴿ إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ (آل عمران ١٢٢/٣) ولم يقل : همتا طائفتان .

تلك هى القاعدة المطردة فى العربية الفصحى ، شعرا ونثرا . أما قبيلة طيىء القديمة ،فقد روى لنا عنها[١] أنها كانت تلحق الفعل علامة تثنية للفاعل المثنى ، وعلامة جمع للفاعل المجموع . وقد حكيت لنا هذه اللغة كذلك ، عن قبيلة « بلحارث بن كعب[٢] » وقبيلة « أزد شنوءة »[٣] ، وهما من القبائل اليمنية ، التى تمتّ إلى أصل قبيلة طيىء بصلة[٤] .

---

(١) انظر : الجنى الدانى للمرادى ١٧١ وشرح درة الغواص للخفاجى ١٥٢ وبصائر ذوى التمييز ١٤٩/٥ وشرح التصريح ٢٧٥/١ ؛ ١١٠/٢ وهمع الهوامع ١٦٠/١ والقاموس المحيط (الواو) ٤١٣/٤ والنهاية لابن الأثير ٢٩٧/٣ والفائق للزمخشرى ٧٤/٣

(٢) انظر : بصائر ذوى التمييز ١٤٩/٥ والقاموس المحيط (الواو) ٣١٣/٤ ومغنى اللبيب ٣٦٥/٢

(٣) انظر : بصائر ذوى التمييز ١٤٩/٥ وشرح التصريح ٢٧٦/١ والقاموس المحيط (الواو) ٤١٣/٤ ومغنى اللبيب ٣٦٥/٢

(٤) انظر : الاشتقاق لابن دريد ٣٦١

وتعرف هذه الظاهرة عند النحاة العرب ، بلغة : « أكلونى البراغيث » . وقد عرفت عندهم بهذا الاسم ؛ لأن سيبويه هو أول من مثَّل لها فى كتابه ، واختار هذا المثال ؛ فقال : « فى قول من قال : أكلونى البراغيث[١] » ، كما قال فى موضع آخر : « ومن قال : أكلونى البراغيث ، قلت على حد قوله : مررت برجل أعورين أبواه [٢] » ، وإن كان قد ضرب لهذا الظاهرة أمثلة أخرى فى كتابه ، فقال : « واعلم أن من العرب من يقول : ضربونى قومك ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث علامة ، وهى قليلة[٣] » .

وتدل مقارنة اللغات السامية ، أخوات العربية ، على أنه فى تلك اللغات ، يلحق الفعل علامة التثنية والجمع ، للفاعل المثنى والمجموع ، كما تلحقه علامة التأنيث ، عندما يكون الفاعل مؤنثا سواء بسواء ففى اللغة العبرية مثلا : וימותו גם־שניהם מחלון וכליון [٤] wayyāmōṯū ġam šnēhem maḥlōn w-ḵilyōn وترجمته الحرفية : « فماتا كلاهما محلون وكليون » . ومثل ذلك أيضا فيها :[٥] לא־יקמו רשעים במשפט lōyāḳōmū ršāʿīm bammišpāṭ وترجمته الحرفية : « لا يقومون الأشرار بالعدل » .

ومثل ذلك فى الآرامية :[٦] ܕܠܡܐ ܢܓܘܪܘܢ ܐܚܪ̈ܢܐ ܒܬܟ dalmā ngūrūn ḥrānē battāḵ وترجمته الحرفية : « لئلا يَزْنُوا الآخرون بامرأتك » .

---

(١) كتاب سيبويه ١/٥

(٢) كتاب سيبويه ١/٢٣٧

(٣) كتاب سيبويه ١/٢٣٦

(٤) سفرروث ١/٥

(٥) سفرالمزامير ١/٥ وانظر أمثلة أخرى فى سفر التكوين ٢/١ ؛ ٦/٢ ؛ ٨/٢ وسفر الأمثال ٥/١٠

(٦) أحيقار ١/٣٣ وانظر أمثلة أخرى فى إنجيل متى ٥/١ وإنجيل لوقا ١/٢٣

وكذلك الحال فى الحبشية فى نحو : [1] ወሖሩ ፡ አሕዛብ

waḫōrū'aḥzāb وترجمته الحرفية : « فعادوا الشعوب » ومثل ذلك أيضا فيها :

ወበዝኁ ፡ ውሉዶሙ wabazḫū welūdōmū[2] وترجمته الحرفية :

« وكثروا أطفالهم » .

وقد تخلصت العربية الفصحى من هذه الظاهرة ، رويداً رويداً ، أخذاً بمبدأ الاستغناء عن بعض العلامات ، عند تكدّسها للدلالة على الظاهرة الواحدة ؛ فإن الذى كان يدل على التثنية هنا ، هو علامة التثنية فى الفعل ، ووضع الفاعل فى صيغة المثنى . وكذلك كان يدل على الجمع علامته المتصلة بالفعل ، ووضع الفاعل فى صيغة الجمع .

وإذا استغنت اللغة عن العلامات المتصلة بالفعل ، لم تخسر الدلالة على التثنية والجمع ، لوجود مايدل عليهما فى صيغة الفاعل نفسها ؛ ولذلك قال سيبويه : « وإنما قالت العرب : قال قومك ، وقال أبواك ؛ لأنهم اكتفوا بما أظهروا ، عن أن يقولوا : قالا أبواك ، وقالوا قومك ، فحذفوا ذلك اكتفاء بما أظهروا[3] » .

وإذا كانت العربية الفصحى ، قد تخلصت رويدًا رويدًا من هذه الظاهرة ، فإن بقاياها ظلت حية ، عند بعض القبائل العربية القديمة ، كقبيلة « طيئ » و « بلحارث بن كعب » و« أزد شنوءة » كما ذكرنا من قبل .

---

(١) Praetorius, Aethiopische Grammatik, Chrestomathia 41 .

(٢) Praetorius, Aethiopische Grammatik, Chrestomathia 42 .

(٣) كتاب سيبويه ١/٢٣٤

وكذلك بقيت بعض آثارها فى العربية الفصحى ، فى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، واحتفظ بها الكثير من أبيات الشعر العربى القديم .

أما القرآن الكريم ، فقد ورد فيه قوله تعالى : ﴿ ثم عَمُوا وصَمُّوا كثير منهم ﴾ (المائدة ٥/٧١) وقوله عز وجل : ﴿ وأسرُّوا النجوى الذين ظَلَموا ﴾ (الأنبياء ٢١/٣) .

وقد أكثر النحويون ، والمفسرون ، وعلماء اللغة العرب ، القول فى تخريج هاتين الآيتين الكريمتين ؛ فقد قال الإمام القرطبى ، فى تفسير الآية الأولى مثلا : « ثم عموا وصمّوا كثير منهم ، أى عَمِيَ كثير منهم وصَمَّ ، بعد تبين الحق لهم بمحمد عليه السلام ، فارتفع (كثير) على البدل من الواو ، كما تقول : رأيت قومك ثلثيهم ، وإن شئت كان على إضمار مبتدأ ، أى العُمْيُ والصُّمُّ كثير منهم . ويجوز أن يكون على لغة من قال : أكلونى البراغيث[1] » .

كما قال فى الآية الثانية : « وأسروا النجوى الذين ظلموا ، أى تناجوا فيما بينهم بالتكذيب ، ثم بيّن من هم ، فقال : الذين ظلموا ، أى الذين أشركوا . فالذين ظلموا ، بدل من الواو فى : (أسروا) وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم . قال المبرد : وهو كقولك : إن الذين فى الدار انطلقوا بنو عبد الله ، فبنو بدل من الواو فى : انطلقوا . وقيل : هو رفع على الذم ، أى هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول ، أى : يقول الذين ظلموا . وقول رابع : أن يكون منصوبا بمعنى : أعنى الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضا ، بمعنى : اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم . فهذه خمسة

---

(١) تفسير القرطبى ٦/٢٤٨

أقوال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلونى البراغيث ، وهو حسن . وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير ، ومجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى[١] » .

تلك هى آراء المفسرين ، والنحاة ، واللغويين العرب ، فى هذه الظاهرة . وهم فيها مقلبون لكل الأوجه الممكنة فى العربية ، من التخريج والتأويل .

ومما جاء فى الحديث الشريف ، قوله ﷺ : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار [٢] » ، بدلا من : تتعاقب فيكم ملائكة ، وإن كان بعض العلماء يرى فى هذا الحديث ، أنه مختصر من حديث طويل ، وأن أصل الحديث : « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار[٣] » .

وقد وردت هذه الظاهرة ، فى بعض أحاديث الصحابة والتابعين ، كما فى قول الحسن البصرى ، يصف طالب العالم : « قد أوكدتاه يداه وأعمدتاه رجلاه[٤] » .

أما أبيات الشعر القديم ، التى وردت فيها هذه الظاهرة ، فما أكثرها فى دواوين الشعر العربى . ومن أمثلة ذلك قول عمرو بن ملقط الطائى ، وهو

---

(١) تفسير الطبرى ٢٦٨/١١ وانظر : معانى القرآن للفراء ٣١٦/١ وشرح التصريح ٢٧٠/١ - ٢٧٧

(٢) انظر : مغنى اللبيب ٣٦٥/٢ والقاموس المحيط (الواو) ٤١٣/٤ وبصائر ذوى التمييز ١٤٦/٥

(٣) انظر : شرح الأشمونى على الألفية ٤٨/٢

(٤) انظر : الفائق للزمخشرى ٧٣/٣ والنهاية لابن الأثير ٢٩٧/٣ ولسان العرب (عمد) ٢٩٦/٤ وانظر أحاديث أخرى فى : إعراب الحديث للعكبرى ٢٨ ؛ ٣٩

شاعر جاهلى :

أُلفيتا عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذا واقيه(١)

بدلا من : أُلفِيَتْ عيناك . ومثله قول أمية بن أبى الصلت :

يلوموننى فى اشتراء النَّخيل أهلى فكلهم يَعْذِلُ(٢)

بدلا من : يلومُنى أهلى . وكذلك قول أبى عبد الرحمن العتبى :

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى فأعرضن عنى بالخدود النواضر(٣)

أى : رأت الغوانى . كما يقول الفرزدق :

ولكن دَيَافِىٌّ أبوه وأمه بَحوْرَانَ يَعْصِرْن السَّلِيط أقاربُه(٤)

أى : يعصِر أقاربه . ويقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

تولَّى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مُبْعَدٌ وحَمِيمُ(٥)

أى : أسلمه مبعد وحميم . وكذلك يقول عروة بن الورد :

دعينى للغِنَى أسعى فإنى رأيت الناس شرُّهم الفقيرُ

وأبعدُهم وأهونُهم عليهم وإن كانا له نَسَبٌ وخِيرُ(٦)

---

(١) شرح شواهد المغنى ١١٣ وأمالى ابن الشجرى ١/١٣٢ وشرح ديوان أبى تمام ٣/١٠

(٢) ديوانه ص ١٦ والدرر اللوامع ١/١٤٢ وأمالى ابن الشجرى ١//١٣ وشرح التصريح ١/٢٧٦ وهمع الهوامع ١/١٦٠ وإعراب الحديث للعكبرى ٤٠ وفى شرح شواهد المغنى ٢٦٥ : « عزاه السخاوى فى المفصل إلى أحيحة بن الجلاح » .

(٣) العينى على هامش الخزانة ٢/٤٧٣

(٤) ديوانه ص ٥٠ وكتاب سيبويه ١/٢٣٦ وأمالى ابن الشجرى ١/١٣٣ وشرح ديوان أبى تمام ١/٢٢٤ وإعراب الحديث للعكبرى ٢٩ ؛ ٤٠ وشرح ابن يعيش ٣/٨٩ وهمع الهوامع ١/١٦٠

(٥) ديوانه ق ٢/٣٥ ص ١٩٦ وأمالى ابن الشجرى ١/١٣١ وشرح التصريح ١/٢٧٧ وهمع الهوامع ١/١٦٠

(٦) ديوانه ص ٩١ وشرح التصريح ١/٢٧٧

أى : كان له نسب وخير . ومثله قول مجنون ليلى :

ولو أَحْدَقُوا بى الإنسُ والجنّ كلهم   لكى يمنعونى أن أَجِيكِ لَجِيتُ[١]

أى : ولو أحدق الإنس والجن . ومثله قول الشاعر :

نصروكَ قومى فاعتززتَ بنصرهم   وَلَوَ انَّهم خذلوك كنتَ ذليلا[٢]

أى : نصرك قومى . ومثله أيضا قول الآخر :

نُسِيَـــا حاتم وأوس لَدُنْ فا   ضَتْ عطاياك يا ابنَ عبد العزيز[٣]

أى : نُسى حاتم وأوس . .

وغير ذلك كثير فى الشعر العربى القديم . وقد استمرت هذه الظاهرة فى أشعار المولدين من الطائيين وغيرهم . فها هو أبو تمام الطائى ، يمتلىء ديوان شعره بالأبيات التى جاءت على هذه اللغة . مثل قوله :

شجًى فى الحَشَا تَرْدَادُه ليس يَفْتُر   به صُمْنَ آمالى وإنّى لَمفطـرُ

وقد قال عنه أبو العلاء المعرى فى هذا الموضع[٤] : « يَبِين فى كلام الطائى أنه كان يختار إظهار علامة الجمع فى الفعل ، مثل قوله : صُمن آمالى . ولو قال : صام آمالى ، لاستقام الوزن . وقد جاء بمثل ذلك فى غير هذا الموضع » .

ومن أمثلة ذلك فى شعره أيضا :

وغَداً تبيَّنُ كيف غِبّ مدائحى   إن مِلْنَ بى هِمَمِى إلى بغداد[٥]

---

(١) ديوانه ق ٤/٥٨ ص ٧٤

(٢) شواهد التوضيح لابن مالك ١٩٢

(٣) شواهد التوضيح لابن مالك ١٩٢

(٤) شرح الديوان للخطيب التبريزى ٢/٢١٤

(٥) شرح الديوان للخطيب التبريزى ٢/١٣١

ومنها كذلك قوله :

ولوكانت الأرزاقُ تَجرِى على الحِجَا　　هَلكن إذنْ من جَهلهنّ البهائمُ(١)

وقد جاءت بعض أمثلة هذه الظاهرة فى شعر المتنبى أيضا . فمن ذلك قوله :

وَرَمَى ومارمتا يداه فَصَابنِى　　سَهْمٌ يعذّب والسِّهام تُرِيحُ(٢)

وقال كذلك :

نفديك من سَيْلٍ إذا سُئِل الندى　　هَوْل إذا اختلطا دمٌ ومَسِيحُ(٣)

ويبدو أن هذه الظاهرة ، كانت شائعة فى عصر الحريرى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) الذى عدها من اللحن (٤) ، ورد عليه الشهاب الخفاجى ؛ فقال : « وليس الأمر كما ذكره ، فإن هذه لغة قوم من العرب ، يجعلون الألف والواو حرفى علامة للتثنية والجمع ، والاسم الظاهر فاعلا . وتعرف بين النحاة بلغة : أكلونى البراغيث ؛ لأنه مثالها الذى اشتهرت به ، وهى لغة طيىء ، كما قاله الزمخشرى . وقد وقع منها فى الآيات ، والأحاديث ، وكلام الفصحاء مالا يحصى(٥) » .

وقد بقيت هذه الظاهرة ، شائعة فى كثير من اللهجات العربية

---

(١) شرح الديوان للخطيب التبريزى ١٧٨/٣ وانظر أمثلة أخرى فى : ٢٢٤/١ ؛ ١٢٨/٢ ؛ ٢٨٨/٢ ؛ ١٠/٣ ؛ ٧٤/٣ وغيرها .

(٢) ديوانه ص ١٦٥ وانظر كذلك : أمالى ابن الشجرى ١٣/١

(٣) ديوانه ص ١٦٩ وانظر كذلك : أمالى ابن الشجرى ١٣/١

(٤) انظر : درة الغواص فى أوهام الخواص ٦٥

(٥) انظر : شرح درة الغواص ، للشهاب الخفاجى ١٥٢

الحديثة ؛ كقولنا مثلا : « ظلمونى الناس » و « لامونى العوازل » و « زارونا الجيران » و « تِتُّوصَاحِى لحدّ ما رِجْعُوا العِيال مِنْ بَرّه » . وهذا كله امتداد للأصل السامى واللهجات القديمة . والله أعلم .

★ ★ ★

قائمة المصادر

أولا : المصادر العربية :

١ - الإبدال ، لأبى الطيب اللغوى - تحقيق الدكتور عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦٠ م .
٢ - الإبدال والمعاقبة والنظائر ، للزجاجى - تحقيق عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦٢ م .
٣ - الإحكام فى أصول الأحكام ، لابن حزم الأندلسى (مطبعة الإمام بلا تاريخ) .
٤ - أحيقار ، حكيم من الشرق الأدنى القديم ، لأنيس فريحة - بيروت ١٩٦٢ م .
٥ - أدب الكتاب ، للصولى - تصحيح محمد بهجة الأثرى - القاهرة ١٣٤١ هـ .
٦ - أسباب حدوث الحروف ، لابن سينا - القاهرة ١٣٥٢ هـ .
٧ - أسرار العربية ، لابن الأنبارى - تحقيق محمد بهجة البيطار - دمشق ١٩٥٧ م .
٨ - أسس علم اللغة ، لماريو پاى - ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر - منشورات جامعة طرابلس ١٩٧٣ م .
٩ - الأشباه والنظائر فى النحو ، للسيوطى - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .
١٠ - الاشتقاق ، لابن دريد الأزدى - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٥٨ م .
١١ - اشتقاق أسماء الله ، للزجاجى - تحقيق الدكتور عبد الحسين المبارك - النجف ١٩٧٤ م .
١٢ - إصلاح المنطق ، لابن السكيت - تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون - القاهرة ١٩٥٦ م .
١٣- أصوات اللغة ، للدكتور عبد الرحمن أيوب - القاهرة ١٩٦٨ م .
١٤- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، للدكتور نايف خرما - الكويت ١٩٧٩ م .
١٥- الأطلس اللغوى ، للدكتور خليل عساكر - مجلة مجمع اللغة العربية (المجلد السابع) القاهرة ١٩٥٣ م .
١٦ - إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه - القاهرة ١٩٤١ م .
١٧ - إعراب الحديث النبوى ، لأبى البقاء العكبرى - تحقيق عبد الإله نبهان - دمشق ١٩٧٧ م .
١٨ - إعراب القرآن ، المنسوب للزجاج - تحقيق إبراهيم الإبيارى - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٥ م .
١٩ - الإكليل ، للهمدانى - تحقيق أنستاس الكرملى - بغداد ١٩٣١ م .
٢٠ - الألسنية أحدث العلوم الإنسانية - مجلة الفكر العربى (العددان ٨ - ٩) طرابلس (يناير / آذار ١٩٧٩ م) .

٢١ – الألسنية العربية ، للدكتور ريمون طحان – دار الكتاب اللبنانى ببيروت ١٩٧٢ م.
٢٢ – أمالى الزجاجى – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٣٨٢ هـ .
٢٣ – الأمالى ، لابن الشجرى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ .
٢٤ – الأمثال ، لأبى عكرمة الضبى – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – دمشق ١٩٧٤ م .
٢٥ – الأمثال ، لأبى فيد مؤرج السدوسى – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٧١ م .
٢٦ – الإنصاف ، لابن الأنبارى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٥٣ م .
٢٧ – إيضاح الوقف والابتداء ، لأبى بكر بن الأنبارى – تحقيق محيى الدين رمضان – دمشق ١٩٧١ م .
٢٨ – البحر المحيط ، لأبى حيان الأندلسى – القاهرة ١٣٢٨ هـ .
٢٩ – البرهان فى علوم القرآن للزركشى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٧ – ١٩٥٨ م .
٣٠ – بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، للفيروزا بادى – تحقيق الشيخ محمد على النجار – القاهرة ١٩٦٣ – ١٩٧٣ م .
٣١ – بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٦٤ – ١٩٦٥ .
٣٢ – البلاغة العصرية واللغة العربية ، لسلامة موسى – القاهرة ١٩٤٥ م .
٣٣ – البيان والتبيين ، لأبى عمرو الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٤٨ – ١٩٥٠ م .
٣٤ – تصحيح الفصيح ، لابن درستويه – تحقيق عبد الله الجبورى – بغداد ١٩٧٥ م .
٣٥ – التطور اللغوى مظاهرة وعلله وقوانينه ، للدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨١ م .
٣٦ – التطور النحوى للغة العربية ، لبرجشتراسر – أخرجه وصححه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨٢ م .
٣٧ – التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام ، للسهيلى – القاهرة ١٩٣٨ م .
٣٨ – تفسير القرطبى = الجامع لأحكام القرآن – القاهرة ١٩٦٧ م .
٣٩ – التمام فى تفسير أشعار هذيل ، لابن جنى – تحقيق أحمد ناجى القيسى – بغداد ١٩٦٢ م .
٤٠ – التيسير فى القراءات السبع ، لأبى عمرو الدانى – استانبول ١٩٣٠ م .

٤١ – الجغرافيا اللغوية وأطلس برجشتراسر ، للدكتور رمضان عبد التواب – مجلة مجمع اللغة العربية – الجزء السابع والثلاثون – القاهرة ١٩٧٦ م .
٤٢ – جمهرة اللغة ، لابن دريد الأزدى – تحقيق كرنكو – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٤ – ١٣٥١ هـ .
٤٣ – الجنى الدانى فى حروف المعانى ، للمرادى – تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل – حلب ١٩٧٣ م .
٤٤ – جهود علماء العرب فى الدراسة الصوتية ، للدكتور إبراهيم أنيس – مجلة مجمع اللغة العربية – الجزء الخامس عشر – القاهرة ١٩٦٣ م .
٤٥ – حرف الضاد وكثرة مخارجه فى اللغة العربية ، للدكتور خليل نامى – مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (المجلد ٢١ العدد الأول) مايو ١٩٥٩ م .
٤٦ – الحيوان ، لأبى عمرو الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٣٨ – ١٩٤٥ م .
٤٧ – خزانة الأدب ، لعبد القادر البغدادى – بولاق ١٢٩٩ هـ .
٤٨ – الخصائص ، لابن جنى – تحقيق محمد على النجار – القاهرة ١٩٥٢ – ١٩٥٦ م .
٤٩ – دراسات فى فقه اللغة العربية ، للدكتور السيد يعقوب بكر – بيروت ١٩٦٩ م .
٥٠ – دراسات فى اللغة العربية ، للدكتور خليل نامى – القاهرة ١٩٧٤ .
٥١ – دراسة السمع والكلام ، للدكتور سعد مصلوح – القاهرة ١٩٨٠ م .
٥٢ – دراسة الصوت اللغوى ، للدكتور أحمد مختار عمر – القاهرة ١٩٧٦ م .
٥٣ – درة الغواص فى أوهام الخواص ، للحريرى – مطبعة الجوائب باستانبول ١٢٩٩ هـ .
٥٤ – الدرر اللوامع على همع الهوامع ، للشنقيطى – القاهرة ١٣٢٨ هـ .
٥٥ – دروس فى علم أصوات العربية ، لجان كانتينو – ترجمة صالح القرمادى – تونس ١٩٦٦ م .
٥٦ – دلالة الألفاظ ، للدكتور إبراهيم أنيس – القاهرة ١٩٥٨ م .
٥٧ – دور الكلمة فى اللغة ، تأليف ستيفان أولمان وترجمة الدكتور كمال بشر – القاهرة ١٩٦٢ م .
٥٨ – ديوان الأخطل – نشر أنطون صالحانى – بيروت ١٨٩١ م .
٥٩ – ديوان امرىء القيس – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٨ م .
٦٠ – ديوان أمية بن أبى الصلت – تحقيق شولتهس – ليبزج ١٩١١ م .
٦١ – ديوان جرير بن عطية الخطفى – نشر محمد إسماعيل الصاوى – القاهرة ١٣٥٣ هـ .
٦٢ – ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات – تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم – بيروت ١٩٥٨ م .

٦٣ – ديوان عروة بن الورد ، بشرح ابن السكيت – تحقيق عبد المعين الملوحى – دمشق ١٩٦٦ م .
٦٤ – ديوان القطامى – تحقيق بارت – ليدن ١٩٠٢ م .
٦٥ – ديوان المتنبى – وضع عبد الرحمن البرقوق – القاهرة ١٩٣٨ م .
٦٦ – ديوان مجنون ليلى – تحقيق عبد الستار فراج – طبع دار مصر للطباعة بالقاهرة (بلا تاريخ) .
٦٧ – رسالة الغفران ، لأبى العلاء المعرى – تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ – القاهرة ١٩٦٣ م .
٦٨ – الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية ، لأبى حاتم الرازى – تحقيق حسين الهمدانى – القاهرة ١٩٥٧ م .
٦٩ – زينة الفضلاء فى الفرق بين الضاد والظاء – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – بيروت ١٩٧١ م .
٧٠ – سر صناعة الإعراب ، لابن جنى – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٥٤ م .
٧١ – شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك – مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة (بلا تاريخ) .
٧٢ – شرح التصريح ، للشيخ خالد الأزهرى – القاهرة ١٣٢٥ هـ .
٧٣ – شرح درة الغواص فى أوهام الخواص ، للشهاب الخفاجى – استانبول ١٢٩٩ هـ .
٧٤ – شرح ديوان أبى تمام ، للخطيب التبريزى – تحقيق محمد عبده عزام – القاهرة ١٩٥١ ومابعدها .
٧٥ – شرح ديوان الهذليين ، للسكرى – تحقيق عبد الستار فراج – القاهرة ١٩٦٥ م .
٧٦ – شرح شواهد الشافية ، لعبد القادر البغدادى – تحقيق محمد الزفزاف وآخرين – القاهرة ١٣٥٦ هـ .
٧٧ – شرح شواهد الكشاف ، لمحب الدين أفندى – بولاق ١٢٨١ هـ .
٧٨ – شرح شواهد المغنى ، لجلال الدين السيوطى – تصحيح الشنقيطى – القاهرة ١٣٢٢ هـ .
٧٩ – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٤٥ م .
٨٠ – شرح ابن يعيش للمفصل – القاهرة (بدون تاريخ) .
٨١ – شرح القاموس المحيط ، لابن الطيب الفاسى – تحقيق على حسين البواب – مخطوط بدار العلوم – القاهرة ١٩٧٨ م .

٨٢ – شرح مراح الأرواح ، لديكنقوز – القاهرة ١٩٣٧ م .
٨٣ – الشعر والشعراء ، لابن قتيبة – تحقيق أحمد شاكر – القاهرة ١٩٦٦ م .
٨٤ – شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك النحوى – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – القاهرة ١٩٥٧ م .
٨٥ – الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ، لابن فارس اللغوى – تحقيق السيد أحمد صقر – القاهرة ١٩٧٧ م .
٨٦ – الصاهل والشاحج ، لأبى العلاء المعرى – تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن – القاهرة ١٩٧٥ م .
٨٧ – الصحاح ، للجوهرى = تاج اللغة وصحاح العربية – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – القاهرة ١٩٥٦ م .
٨٨ – الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى – تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٧٤ م .
٨٩ – طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٤ م .
٩٠ – العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب – من عمل يوهان فك – ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار – القاهرة ١٩٥١ .
٩١ – العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، ليوهان فك ، مع تعليقات شپيتالر – ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨٠ م .
٩٢ – العربية الفصحى ، للأب هنرى فليش اليسوعى – ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين – بيروت ١٩٦٦ م .
٩٣ – علم الأصوات ، نشأته وتطوره ، للدكتور مراد كامل – مجلة مجمع اللغة العربية (المجلد السادس عشر) القاهرة ١٩٦٣ م .
٩٤ – علم الأصوات عند سيبويه وعندنا – محاضرة للمستشرق الألمانى (شادِه) – صحيفة الجامعة المصرية – السنة الثانية ١٩٣١ م .
٩٥ – علم اللسان ، لأنطوان مييه – مع كتاب النقد المنهجى عند العرب ، للدكتور محمد مندور – القاهرة (بدون تاريخ) .
٩٦ – علم اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافى – القاهرة ١٩٦٢ م .
٩٧ – علم اللغة – مقدمة للقارىء العربى ، للدكتور محمود السعران – القاهرة ١٩٦٢ م .
٩٨ – علم اللغة العام : الأصوات ، للدكتور كمال بشر – القاهرة ١٩٧٠ م .

٩٩ – علم النفس اللغوى ، للدكتورة نوال محمد عطية – القاهرة ١٩٧٥ م .

١٠٠ – عن مناهج العمل فى الأطالس اللغوية ، للدكتور سعد مصلوح – حوليات كلية دار العلوم (العدد الخامس) القاهرة ١٩٧٦ م .

١٠١ – العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدى – تحقيق الدكتور عبد الله درويش – بغداد ١٩٦٧ م .

١٠٢ – العينى = شرح الشواهد الكبرى ، للعينى – على هامش خزانة الأدب ، للبغدادى – بولاق ١٢٩٩ هـ .

١٠٣ – عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينورى – القاهرة ١٩٢٨ – ١٩٣٠ م .

١٠٤ – غريب الحديث ، لابن قتيبة الدينورى – تحقيق عبد الله الجبورى – بغداد ١٩٧٧ م .

١٠٥ – الفائق فى غريب الحديث ، للزمخشرى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٤٥ – ١٩٤٨ م .

١٠٦ – فعلت وأفعلت ، لأبى حاتم السجستانى – تحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية – بغداد ١٩٧٩ م .

١٠٧ – فقه اللغة ، لمحمد المبارك – دمشق ١٩٦٠ م .

١٠٨ – فقه اللغات السامية ، لبروكلمان – ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب – مطبوعات جامعة الرياض ١٩٧٧ م .

١٠٩ – فى علم الأصوات الفيزيقى ، لبوجرام – ترجمة سعد مصلوح - القاهرة ١٩٧٧ م .

١١٠ – القاموس المحيط ، للفيروزابادى – القاهرة ١٩١٣ م .

١١١ – قضايا لغوية ، للدكتور كمال بشر – القاهرة ١٩٦٣ م .

١١٢ – الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير – بيروت ١٩٦٧ م .

١١٣ – الكامل فى اللغة والأدب ، للمبرد – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة – القاهرة ١٩٥٦ م .

١١٤ – الكتاب ، لسيبويه – بولاق ١٣١٦ – ١٣١٧ هـ .

١١٥ – الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، لمكى بن أبى طالب – تحقيق الدكتور محيى الدين رمضان – القاهرة ١٩٧٤ م .

١١٦ – لحن العوام ، لأبى بكر الزبيدى – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٦٤ م .

١١٧ – لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى – بولاق ١٣٠٠ – ١٣٠٧ هـ .

١١٨ – لغات البشر ، لماريوباى – ترجمة الدكتور صلاح العربى – القاهرة ١٩٧٠ م .

١١٩ – اللغات السامية ، لتيودور نولدكه – ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٦٣ م .

١٢٠ – اللغة ، لفندريس – ترجمة عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد القصاص – القاهرة ١٩٥٠ م .
١٢١ – اللغة بين القومية والعالمية ، للدكتور إبراهيم أنيس – القاهرة ١٩٧٠ م .
١٢٢ – اللغة بين المعيارية والوصفية ، للدكتور تمام حسان – القاهرة ١٩٥٨ م .
١٢٣ – مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٠ م .
١٢٤ – مراح الأرواح فى علم الصرف ، لابن مسعود ، بشرح ديكنقوز وابن كمال باشا – القاهرة ١٩٣٧ م .
١٢٥ – المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين – القاهرة ١٩٥٨ م .
١٢٦ – مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء ، للدكتور رمضان عبد التواب – مجلة المجمع العلمى العراق (المجلد الحادى والعشرون) بغداد ١٩٧١ م .
١٢٧ – معانى القرآن وإعرابه ، للزجاج – تحقيق عبد الجليل عبده شلبى – بيروت ١٩٧٢ م .
١٢٨ – معانى القرآن ، للفراء – تحقيق محمد على النجار – القاهرة ١٩٥٥ – ١٩٧٢ م .
١٢٩ – معنى القول المأثور : لغة الضاد ، للدكتور إبراهيم أنيس – البحوث والمحاضرات لمجمع اللغة العربية (الجزء العاشر) القاهرة ١٩٦٦ م .
١٣٠ – مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام المصرى – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة (بلا تاريخ) .
١٣١ – مفاتيح العلوم ، للخوارزمى – القاهرة ١٣٤٢ هـ .
١٣٢ – المفصل ، للزمخشرى – القاهرة ١٣٢٣ هـ .
١٣٣ – المقتضب ، للمبرد – تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة – القاهرة ١٩٦٣ – ١٩٦٨ م .
١٣٤ – مقدمتان فى علوم القرآن ، نشر آرثر چفرى – القاهرة ١٩٥٤ م .
١٣٥ – المقرب ، لابن عصفور – تحقيق أحمد عبد الستار الجوارى وعبد الله الجبورى – بغداد ١٩٧١ – ١٩٧٢ م .
١٣٦ – الممتع فى التصريف ، لابن عصفور – تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة – حلب ١٩٧٠ م .
١٣٧ – مناهج البحث فى اللغة ، للدكتور تمام حسان – القاهرة ١٩٥٤ م .
١٣٨ – المنصف ، لابن جنى ، شرح التصريف للمازنى – تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين – القاهرة ١٩٥٤ م .
١٣٩ – النشر فى القراءات العشر ، لابن الجزرى – نشر على محمد الضباع – القاهرة (بلا تاريخ) .

١٤٠ – نظرة تحليلية مقارنة على الضمائر العربية ، للدكتور محمد سالم الجرح – مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (الجزء الثانى والعشرون) ١٩٦٧ م .
١٤١ – النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير – تحقيق محمود الطناحى – القاهرة ١٩٦٣ – ١٩٦٥ م .
١٤٢ – النوادر فى اللغة ، لأبى زيد الأنصارى – نشر سعيد الشرتونى – بيروت ١٨٩٤ م .
١٤٣ – همع الهوامع ، شرح جمع الجوامع ، للسيوطى – القاهرة ١٣٢٧ هـ .
١٤٤ – وفيات الأعيان لابن خلكان – تحقيق الدكتور إحسان عباس – بيروت ١٩٦٨ – ١٩٧٢ .

★ ★ ★

ثانيا : المصادر الإفرنجية :

G. Bergsträsser, Hebräische Grammatik, Hildesheim 1926 .
G. Bergsträsser, Sprachatlas von Synen und Palästina, Leipzig 1915 .
L. Bloomfield, Language, London 1973 .
D. Bornstein, An Introduction to transformational grammar, Cambridge 1972 .
C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprache, Bd. I-II, Berlin 1908, 1913 .
C. Brockelmann, Syrische Grammatik, Leipzig 1955 .
N. Chomsky, Syntactic Structures, The Hague, Mouton and Co. 1957 -
N. Chomsky, Aspects of the Theory of Syntax, Cambridge 1967 .
W. A. Cook, Introduction to tagmemic analysis, New York 1969 .
A. Dillmann, Grammatik der äthiopischen Sprache, Graz 1950 .
W. Gesenius, Hebräische Grammatik, völlig umgearbitet von E. Kautzsch, 28. Auflage, Leipzig 1909 .
J. Fück, Arabiya, Untersuchungen zur arabischen Sprach- und Stilgeschichte, Berlin 1950 .
C. H. Gordon, Ugaritic Manual, Roma 1955 .
M. Höfner, Altsüdarabische Grammatik, Leipzig 1943 .
D. Jones, An Outline of English Phonetics, Cambridge 1947 .
De. Lacy O'Leary, Comparative Grammar of the semitic Languages, Amsterdam 1959 .
Micropaedia, U.S.A. 1974 .
S. Moscati, An Introduction to the comparative grammar of the semitic Languages... by S. Moscati, A. Spitaler, E. Ullendorf and W. von Soden, Wiesbaden 1964 .
Th. Nöldeke, Untersuchungen zur semitischen Grammatik, ZDMG, Bd. 38, S. 407-422 .
F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, New York 1955 .

Th. Prochazka, The prefect tens ending (k.) in the spoken Arabic of Ta izz,

Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Uni. of London, Vol. XXXVII, Part 2, 1974 .

C. Rabin, Ancient West Arabian, London 1951 .

R. H. Robins, A short history of Linguistics, London 1976 .

R. H. Robins, General Linguistics (An introductery survey) London 1976 .

Rosenkranz, Der Ursprung der Spraehe, Heidelberg 1961 .

E. Sapir, Language, New York 1921 .

F. De Saussure, Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, 2. Auflage, Berlin 1967 .

F. De Saussure, Course in general Linguistics, translated by Wade Baskin, New York 1959 .

W. von Soden, Grundriss der akkadischen Grammatik, Roma 1925 .

A. Spitaler, Zum Problem der Segolisierung im Aramäischen, Studia Orientalia in Memoriam Carli Brockelmann, Halle (Saale) 1968 .

Wojowasito & Poerwadarminta, Kamus Lenckap, Indonesia- Inggeris, Djakarta 1972 .

W. Wright, Lectures on the comparative grammar of the semitic languages, Cambridge 1890 .

★ ★ ★

فهرس الموضوعات

هذا الكتاب

مدخل إلى علم اللغة العام ، يتناول الكثير من القضايا التى لا تخص لغة معينة ، وإنما تنطبق على أية لغة من لغات العالم ، كالدراسة الصوتية للُّغة ، واختلاف الأصوات والعوامل المؤثرة فيها ، والعائلات الصوتية وتنوعاتها المختلفة فى هذه اللغة أو تلك .

كما يتناول بالمناقشة المذاهب المتعددة حول نشأة اللغة الإنسانية ، وعلاقة اللغة بالمجتمع البشرى الذى تعيش فيه ، والنفس الإنسانية وأثر الانفعالات والعواطف المختلفة فى تعدد الأنماط اللغوية ، واحتكاك اللغات ، وما ينتج عنه من صراع قد يؤدى إلى ولادة لغة واندثار أخرى ، ونشوء اللغات المشتركة واللهجات العامة والخاصة . وهو يشير إلى علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى ، ومدى إفادته من معطياتها المتجددة على مر الزمن .

وقد تعددت مناهج البحث اللغوى عند علماء اللغة ، وأسفرت بحوثهم عن ثلاثة مناهج مختلفة : المنهج الوصفى ، والمنهج التاريخى ، والمنهج المقارن ، فدرس الكتاب هذه المناهج المتعددة ، وبين الفروق بينها ، وتاريخ كل منهج منها ، وأهم أنصاره من العلماء . وقد اهتم الكتاب بعد ذلك بالدراسة التطبيقية للمنهج المقارن فى مجال الأصوات والبنية والتركيب ، وضرب لها الأمثلة المختلفة من اللغات السامية أو اللغة العربية ، ليستبين للدارسين مدى الفائدة التى تجنيها الدراسات العربية من البحث اللغوى المقارن .

الناشر

